

الإنسانية متشابهة إلى حد كبير، ويمكن تلخيصها في ثلاثة وظائف:

1. تفسير ما هو بهم: الدين يوضح أو يفسّر لبني الإنسان ما لا يستطيع الإنسان تفسيره، مثل: الوجود، المرض، الموت، أي أن الدين يجب للإنسان على السؤال «لماذا؟»، لماذا حدث كذا وكذا في هذا المكان، وفي هذا الوقت، وهذا الشخص بالذات؟ لماذا لم يحدث قبل اليوم أو بعد يوم من ذلك؟ ولماذا لم يحدث لشخص آخر؟

2. تنظيم الكون: المعتقدات والطقوس والممارسات المشتركة لأفراد مجتمع ما تدعم وتقوي تماسك وتعاضد ذلك المجتمع. الدين يعطي دعماً لمؤسسات المجتمع الأخرى ويمدها بالأهداف والقيم، ويخلق تناصقاً وتماسكاً بين الإدراك والشعور والتطلعات والأهداف، وفهم معنى وجود الكون وجود الإنسان فيه، في كل واحد متناسق، وترتبط جهود الناس وعواطفهم وتطلعاتهم وأهدافهم وطموحاتهم بذلك الكل المتناسق.

3. الدعم النفسي في التعامل مع المجهول: بما أن الدين يقدم صورة متناسقة ومتماضكة للكون وصورة منظمة لعلاقة الإنسان بذلك الكون، فإن الدين يخفف من مخاوفه وقلقه ويطمئنه، ليس فقط بالنسبة لحاضره، بل أيضاً لما سيحدث له في المستقبل، مثل الزواج والحمل والحروب والأمراض وغير ذلك.

هذه الوظائف مشتركة بين جميع الأديان في جميع الثقافات، إلا أنها تجد أن الإنسان أعطى أهمية وثقلًا دينيًّا أكبر للأشياء والأحداث الأكثر أهمية له في البيئة الطبيعية والثقافية التي يعيش فيها؛ أي إن دين جماعة يعطي أهمية أكبر للأشياء التي تهم تلك الجماعة، وبذلك تكون الفروق بين الأديان نابعة من الفروق الثقافية وليس العرقية أو البيولوجية.

الدين والسحر

يميز معظم علماء الإنسان بين الدين والسحر بينما يرفض عدد قليل منهم ذلك التمييز ويعتبرونه اعتباطياً ومفتعلًا، أولئك الذين يميزون بين الدين والسحر يشيرون إلى الفروق التالية:

1. أن الدين يمارس عادة من خلال مؤسسات، بينما يكون السحر من عمل أفراد يمارسه كل فرد بشكل مستقل.
2. الدين يعتمد على فكرة أن القوى الخارقة تحكم بالإنسان، بينما تعتمد ممارسة السحر على فكرة أن الإنسان يتحكم بالقوى الخارقة.
3. الدين يعتمد على فكرة أن هناك قوى خارقة تحكم بالكون وتتصرف بطرق لا يمكن توقعها أو استباقها أو التحكم بها من قبل الإنسان، أما السحر فيعتمد على أنه يمكن تفسير ما يحدث في الكون بأن هناك علاقات منطقية بين السبب والسبب ولذلك يمكن التحكم بها وضبطها والاستفادة من نتائج تلك العلاقات عن طريق ممارسات ومحاولات يعرفها الساحر.
4. السحر يمارس عادة عند الحاجة فقط، بينما يمارس الدين في مواعيد محددة ومتكررة.
5. في السحر نجد علاقة زبون لديه حاجة محددة بشخص مهني محترف يستطيع توفير ما يطلبه الزبون.
6. السحر يمكن أن يمارس وحده أو في إطار طقوس دينية.
7. السحر يستعمل عند الحاجة فقط ويكون عاطفياً بشكل أقل وواقعاً عملياً أكثر من الدين.
8. في الدين يلجأ الإنسان إلى إله أو قوة خارقة للوصول إلى أهداف، أما في السحر فالإنسان يعتمد على التحكم بعلاقة سلبية بين شيئين لا يعرفها إلا الساحر، فيستطيع التأثير على الشيء الثاني والحصول على النتائج المطلوبة عن طريق التأثير على الأول دون تدخل أي قوى خارقة.
9. السحر يعمل عادة بطريقتين أو حسب نوعين من المنطق:

أ. قانون التشابه: إذا تشبه شيئاً فالتأثير على أحدهما يؤثر على الآخر، من هنا جاءت ممارسة حرق صورة شخص أو حرق دمية تشبه الشخص أثناء المظاهرات لدينا.

ب. قانون التقارب: إذا تقارب أو تلامس شيئاً فإن التأثير على أحدهما



يؤثر على الآخر. من هنا جاء استعمال قطعة من ملابس شخص أو شعره في عمل «الحجب» في مجتمعنا.

الحركات الدينية:

الحركات الاجتماعية التي تسعى إلى استعادة نظام اجتماعي سابق، أو خلق نظام جديد كثيراً ما تأخذ صبغة دينية. وهذا يعيدنا إلى العلاقة بين النظام الديني والنظام الاجتماعي. هذه الحركات الاجتماعية الدينية كثيراً ما تظهر في مجتمع ما بنتيجة الاتصال بمجتمع ذي مستوى تكنولوجي أعلى، وفي إطار علاقة كولونيالية، وتظهر الحركة كمحاولة للحصول على مستوى اقتصادي، اجتماعي مساوٍ لمستوى مجتمع تلك الدولة المستعمرة، ولكن الدولة المستعمرة تمنعها من ذلك. هذه الحركات "الأصلانية" تحاول عادة إعادة إحياء أنماط سلوك ومعتقدات كانت سائدة قبل أن يقع المجتمع تحت التأثير الكوليونيالي. ويكون الهدف من التحرك هو تحسين الظروف الحياتية القائمة عن طريق استعادة طرق الحياة القديمة، بما فيها الآلهة والطقوس والمعتقدات السابقة. هذه الحركات تنطلق عادة مع ظهور قائد عظيم أو "مخلص متظر". بعض هذه الحركات عادة تنادي بالثورات المسلحة ضد المستعمر، وبالبعض الآخر بالعودة بمحض إرادة إلى الممارسات والمعتقدات القديمة، مثل هذه الحركات لا تظهر فقط في المجتمعات البدائية بل أيضاً بين الأقليات التي تشعر نفسها مظلومة في المجتمعات الكبيرة والحديثة. ومع أن أهداف هذه الحركات تكون تحسين ظروف الحياة المادية إلا أنها تلجأ إلى الدين عندما تكون سبل الوصول إلى أهدافها مسدودة.

مفاهيم أساسية في الفصل

كائنات روحانية (Spiritual Beings): كائنات ليس لها كيان مادي، يعتقد أن لديها قوة بحيث تستطيع أن تؤثر في شؤون بني الإنسان.

السحر (Magic): قوة أو تأثير خارق يعتقد أنه يأتي من قوى ما وراء الطبيعية ويستطيع التأثير على سير حياة بني الإنسان.

قوى خارقة (Supernatural Power): قوى من خارج العالم الطبيعي، ولا تنطبق عليها قوانين العالم الطبيعي ولكنها تستطيع التأثير عليه.

قانون التشابه (Law of Similarity): أحد قانونين يعتقد أن السحر يعمل حسبها، ويقول إنه إذا كان هناك شيئاً متشارهاً فإن ما يؤثر على أحدهما يؤثر على الآخر.

قانون التقارب (Law of Contiguity): القانون الثاني الذي يعتقد أن السحر يعمل حسبه، ويقول: إنه إذا كان هناك شيئاً متقارباً فإن ما يؤثر على أحدهما يؤثر على الآخر.

حركة دينية (Religious Movement): حركة يقصد بها إحداث إصلاح ديني.

حركة أصلانية (National Movement): حركة تطالب بإعادة السلطة إلى السكان الأصليين في البلدان المستعمرة وإحياء ثقافتهم.



أسئلة للنقاش والمراجعة

1. هنالك طریقتان لدراسة الدين ضمن حقل الأنثربولوجيا وهما؛ المقاربة الاجتماعية، والمقاربة الانثربولوجية، أيهما تفضل، ولماذا؟
2. للدين عدد من الوظائف المشتركة بين جميع ثقافات العالم، اذكر ثلاثة منها ووضحها؟
3. اشرح "التفسير التطوري" لنشوء الدين؟
4. هنالك عدد من الفروق بين الدين والسحر، اذكر خمسة منها؟
5. ما هي الظروف المناسبة عادة لظهور الحركات الدينية، وما الدوافع وراءها؟

الفصل السابع عشر الأنثروبولوجيا النفسية

يوضح هذا الفصل المنطق الذي يكمن وراء وجود حقل الأنثروبولوجيا النفسية، ويتحكم بطبيعة الدراسات التي يقوم بها المختصون في هذا الحقل، ويقدم بشكل مختصر عينة من أنواع الدراسات التي أجرتها عدد من المختصين في الحقل.

ظهر حقل الأنثروبولوجيا النفسية (Psychological Anthropology) - ويعرف أيضاً بـ «الثقافة والشخصية» (Culture and Personality) في الثلاثينيات من القرن الماضي، وانتعش كثيراً أثناء فترة الحرب العالمية الثانية وبعدها بقليل، ثم قلل الاهتمام به بعد ذلك، ولكنه ما زال موجوداً ويدرس في العديد من الجامعات الأمريكية بشكل خاص.

يعتمد منطق وجود حقل الأنثروبولوجيا النفسية ككل على الاعتبارات الثلاثة الآتية:

1. أن الأنظمة الثقافية الاجتماعية الموجودة في العالم تختلف عن بعضها كثيراً من حيث نظمها السياسية والاقتصادية، ومن حيث نظم القرابة والزواج، ونظم السكن بعد الزواج، وغير ذلك من النظم التي تحكم بحياة المجتمع.

2. الأطفال الذين يولدون ويعيشون في إطار أي من هذه النظم الثقافية - الاجتماعية المختلفة يكونون مضطرين للتوافق مع تلك النظم، وتعلم القوانين والقيم لتلك الثقافة، مهما كان نوعها. الكبار في المجتمع يعلمون الصغار عن الواقع كما يدركونه، والصغار يتبعون تعاليم الكبار ويتماهون معهم.

3. مدارس علم النفس المختلفة، من مدرسة التحليل النفسي وحتى المدرسة السلوكية، ترى أن شخصيات الكبار تكون بشكل أساسى في مرحلة

الطفولة، ولذلك فهي تشدد على دراسة مرحلة الطفولة. هذه الاعتبارات الثلاثة، جعلت علماء الأنثروبولوجيا يشددون على الدراسة المقارنة لمرحلة الطفولة، من أجل فهم الفروق النفسية بين المجتمعات ذات الثقافات المختلفة.

فيما يلي عينة صغيرة من تلك الدراسات:

أ. دراسات حول الحرمان من الأمومة: النمو الطبيعي عند الإنسان يتوقف على توفر عناية كافية ومناسبة من قبل الأم. عدم توفر عناية الأم، دون وجود بديل مناسب، قد يكون له نتائج شديدة الضرر على نمو الإنسان. عدد كبير من العلماء يرون أن الحرمان من عناية الأم في الطفولة يكون له أثر سيء على نمو الفرد في المراحل اللاحقة من حياته. البراهين على ذلك ليست قاطعة وهناك خلاف حول ما يشكل حرماناً يضر نمو طفل الإنسان.

أطفال جميع أنواع الرئيسيات، ما عدا الإنسان ، تتشبت بجسم الأم منذ الولادة وتبقى ملائمة لها طيلة فترة الطفولة. وقد أظهرت الدراسات المخبرية أنه عندما يُحرم أطفال الرئيسيات، من القردة العليا والسفلى، من التواجد مع الأم، فإنها لا يمكنها التفاعل مع الجنس الآخر بشكل طبيعي عندما تكبر. وإذا حملت بعض الإناث، التي كانت قد حُرمت من حنان الأمومة في طفولتها، فإنها لا تُظهر حناناً نحو أطفالها، بل تتصرف نحوها بعدم اهتمام أو حتى بعدواً. ولكنهم وجدوا أيضاً أنه يكفي لهؤلاء الأطفال أن يلعبوا مع أطفال آخرين من النوع نفسه لمدة عشرين دقيقة يومياً لينموا ويكونوا طبيعيين في علاقتهم الجنسية والاجتماعية.

لا يمكن طبعاً إجراء مثل هذه التجارب على أطفال الإنسان، ولكن يمكن ملاحظة ردود فعل شبيهة عند الأطفال الذين ينفصلون بسبب ما عن أمها لهم ويوضعون في دور أيتام أو مؤسسات أخرى. في مثل هذه الحالات، إذا كانت فترة الانقطاع عن الأم قصيرة وأعيد الطفل إلى الأم فإن الطفل يكون متربداً بين فترات من الاقتراب من الأم وفترات من رفضها. أما إذا كانت فترة الانفصال طويلة، فإن الطفل يصبح انفرادياً ويظهر عدم

الاهتمام بالأم إذا أعيد لها، ولا يحاول الاقتراب منها أو التفاعل معها، ويقى الحال على ذلك طيلة حياته.

إحدى الدراسات قارنت بين بيت للقطاء، من جهة، وحضانة تابعة لأحد السجون من جهة أخرى. العناية الجسدية في بيت اللقطاء كانت جيدة، ولكن الأطفال لم يكن لديهم أية امكانية لعلاقة حميمة مع الكبار. أما الأطفال في حضانة السجن فكان لديهم زيارة يومية من قبل الأمهات. ظهر عند أطفال بيت اللقطاء مشاكل عاطفية متنوعة، وحالات من الاكتئاب والضعف الجسدي الذي أدى إلى الموت في بعض الحالات. إلا أن الحياة في مؤسسة لا يؤدي حتماً إلى نتائج سيئة. إذ أن هناك عدداً من العوامل تؤثر في نتائج الحياة في مؤسسة، منها سن الطفل عند دخول المؤسسة، وطبيعة المؤسسة، ونوعية الناس الذين يعملون في المؤسسة، وغيرها.

هناك خلاف أيضاً حول نوع الحرمان الذي يقايس منه الأطفال في المؤسسات، إذ أن البعض يعزون النتائج السلبية إلى الحرمان من حب الأم وحنانها، بينما يعزوها آخرون إلى النقص في الاستشارة والتحفيز. عندما يكون في المؤسسة عدد كبير من الأطفال وعدد قليل من العاملين لا يكون لدى العاملين وقت كافٍ للتفاعل مع كل طفل بشكل فردي بحيث يوفرون لكل منهم التحفيز والتنشيط الجسدي والذهني الكافيين. وهذا فعلاً ما وجده أحد الدارسين عندما أجرى دراسة على الأطفال في ثلاثة مؤسسات في إيران فوجد أن الأطفال في مؤسستين منهما كانوا متأخرین في مقدراتهم على الوقوف والمشي ولم يظهر ذلك عند الأطفال في المؤسسة الثالثة. عزا الباحث الفرق إلى أنه لم يكن في المؤسستين الأوليين من العاملين ما يكفي لمارسة التفاعل الجسدي الفردي مع الأطفال، ولذلك فإن الأطفال في هاتين المؤسستين كانوا يقضون معظم أوقاتهم مستلقيين على ظهورهم، مما أعقّ مقدراتهم على الجلوس والحبو والمشي، وأآخر من نموهم الحركي بشكل عام.

بـ. نظرية فرويد حول تأثير الطفولة:

يرى فرويد أن الطفل، من الولادة حتى بداية المراهقة، يمر في أربع مراحل، في كل منها يتركز تفاعل الطفل مع العالم خارج الجسم في جزء أو عضو من أعضاء الجسم. **المرحلة الأولى**، ويسميها فرويد «المرحلة الشفوية» (Oral stage)، تحصر في السنة الأولى من حياة الطفل، فيها يستشعر الطفل العالم، ومن ضمنه الأم، ويتفاعل معه من خلال الفم والشفتين، بناء على هذه التجارب يكون الطفل شعوراً أساسياً ودائماً إما بالاطمئنان والثقة، أو بالشك والحدر الدائم تجاه الحياة والعالم ككل.

المرحلة الثانية تأتي أثناء السنة الثانية من حياة الطفل ويطلق عليها فرويد اسم «المرحلة الشرجية» (Anal stage).

في هذه المرحلة يبدأ تدريب الطفل على استعمال المرحاض، وضبط عملية التخلص من إفرازات الجسم، وفيها يتكون عند الطفل الشعور بالتحكم بالذات والبيئة المحيطة به، ويتعلم مجازياً وفعلياً كيف يقف على رجليه، مع أنه ما زال يعتمد على الأبوين. أثناء هذه المرحلة يكون عند الطفل صراع دائم بين الشعور بالاستقلالية والاعتماد على الذات من جهة، والشعور بالشك والخجل من جهة أخرى.

تند **المرحلة الثالثة** من حياة الطفل، من سن الثالثة حتى الخامسة، ويسميها فرويد «المرحلة القضيبية» (Phallic stage). يحدث عند الطفل في هذه المرحلة نمو جسmany وحركي سريع، ووعي واهتمام بوجود الأعضاء الجنسية ويظهر عند الطفل - حسب المنظور الفرويدي - ما يسمى «عقدة أوديب» (Oedipus complex)، والتي تتصنّف بتعلق الطفل الذكر بالأم وإظهار الغيرة والعدوانية تجاه الأب. وعكس ذلك تكون «عقدة إلكترا» (Electra complex) عند الطفلة، وتتصف بتعلق الطفلة بالأب وإظهار الغيرة والعدوانية تجاه الأم.

المرحلة الرابعة هي «مرحلة الكمون» (latency). وتمتد من سن الخامسة حتى بداية المراهقة. وتميز هذه المرحلة بغياب المشاعر الجنسية وعدم الاهتمام بالجنس.



حسب نظرية فرويد فإن الصدمات والإحباطات التي يواجهها الطفل في أي من هذه المراحل الأربع تجعله يبقى في المرحلة نفسها أو يتراجع إلى المرحلة التي سبقتها، وإذا كانت الصدمة شديدة فإنما قد تؤدي إلى الاضطراب العصبي (Neurosis)، أو الذهان (Psychosis).

نظرية فرويد هذه حول مراحل الطفولة ليست مقبولة من قبل الجميع، ولكنها تركت أثراً كبيراً على علماء الأنثروبولوجيا النفسية.

قد تختلف مراحل النمو الحركي عند الطفل من مجتمع إلى آخر بسبب الفروق الثقافية. ففي بعض ثقافات جنوب شرق آسيا لا يمر الطفل بمرحلة «الحبو» كما هو الحال في ثقافتنا مثلاً. والسبب في ذلك هو أن الأم وغيرها من الكبار في العائلة يحملون الطفل باستمرار خلال السنة الأولى من حياته، وينعنونه من الحبو على أربع قوائم لأنهم يرون أن ذلك يشبه سلوك الحيوان، ولذلك يكون النمو الحركي عند الطفل في تلك المرحلة أقل منه عند أطفال المجتمعات الأخرى. من جهة أخرى نجد أن النمو الحركي عند أطفال بعض المجتمعات في أفريقيا جنوب الصحراء الكبرى، مثل أوغندا، يسبق النمو الحركي عند أطفال أوروبا أثناء السنتين الأوليين من حياة الطفل، ويضم ذلك المقدرة على القبض على الأشياء واستعمالها وكذلك المقدرة على استعمال اللغة. ويقال إن أطفال أوغندا يستطيعون الجلوس وحدهم قبل أطفال إنجلترا بشهرين، وينطبق ذلك أيضاً على الحبو والوقوف والمشي. ويعزو أحد الدارسين ذلك إلى العلاقة القوية بين الأم والطفل، والإطعام حسب الطلب، والعلاقة الجسدية الحميمة. ويعتقد الباحث أن حمل الأم للطفل على ظهرها قد يساعد الطفل في رفع الرأس إلى أعلى وعلى الجلوس وحده. إذا كان هذا صحيحاً فإن هذه الدراسات تشير إلى أهمية استشارة وتنبيه الطفل والاتصال المستمر مع الأم، بقدر ما أشارت دراسات الأطفال في المؤسسات إلى الضرر الناتج عن عدم توفر ذلك.

تفوق الطفل الأوغندي على الطفل الأوروبي من حيث النمو الحركي يتناقض أثناء السنة الثانية من حياة الطفل، وبعد سن الثالثة يصبح الطفل الأوروبي متوفقاً على الأوغندي. هذا التراجع عند الطفل الأوغندي يُعزى إلى عملية



الفطام المفاجئة والسريعة، وما يتبع ذلك من تناقض الاتصال بين الأم والطفل، إذ عندما يولد طفل جديد فإن الأم الأوغندية تعطيه كل اهتمامها، وتحمل الطفل الأول كلياً ولا يكون لدى هذا الطفل الكثير من الألعاب أو من النشاطات المنتظمة.

ج. دراسات طرق تربية الأطفال في مجتمعات مختلفة:

في بعض المجتمعات يكون مقدار التفاعل واللامسة أكثر منه في مجتمعات أخرى. ينطبق هذا مثلاً على اليابان حيث ينام الطفل مع الأم لفترة طويلة، ويكون هناك الكثير من الملامسة بينهما عن طريق الحمل على الظهر، وعن طريق تغسيل الطفل. في بعض المجتمعات يُحِرَّم الجنس على الأم بعد ولادة طفل لمدة سنة أو يزيد، وأثناء هذه المدة كلها ينام الطفل مع الأم. بعض الباحثين يعتقدون أن هذا النمط يزيد من اتكال الطفل على الأم أو التماهي معها. النتائج نفسها قد تأتي من وجود فترة رضاع طويلة. وقد وجد أحد الباحثين أن معدل طول فترة الرضاع عند عينة مكونة من ٧٥ مجتمعاً تصل إلى حوالي سنتين ونصف.

الباحثون في الحقل يعتقدون أن تدريب الطفل على ضبط إفرازات الجسم وعلى استعمال المرحاض، هي أيضاً من العوامل التي تؤثر على تكوين الشخصية من خلال بدء التدريب في مرحلة مبكرة أو متأخرة، ومن حيث مدى استعمال العقاب أو التأنيب على الأخطاء التي يرتكبها الطفل أثناء التدريب. فالتدريب على استعمال المرحاض مثلاً يبدأ في المجتمعات المتقدمة تكنولوجياً أبكر منه في معظم الثقافات البدائية، ومن الطبيعي أن القبائل الـرّـحـل لا يهتمون كثيراً بتدريب أطفالهم على ضبط إفرازات الجسم، ولا يعاقبون الأطفال على الأخطاء والتجاوزات في هذا المضمار. ومع أن ذلك لم يوثق جيداً من قبل علماء الأنثروبولوجيا إلا أنهم بشكل عام يعتقدون أن التدريب المبكر جداً والشدة في التدريب تساعده في تكوين شخصية قهرية تتصرف بالنّقّ والخذلة والعناد والادّعاء والشك بالآخرين.

التربية الجنسية أثناء الطفولة أيضاً يعتقد أن لها أثراً كبيراً على الشخصية فيما بعد، حسب مقدار التشدد أو التسامح مع تجاوزات الطفل.

د. الثقافة والإدراك: ليست الشخصية فقط هي التي تتأثر بالثقافة، بل إن الفروق البيئية والثقافية تخلق فروقاً في الإدراك عند أفراد المجتمعات المختلفة. ولكن الدراسات في هذا الحقل تخرج عن إطار الأنثربولوجيا النفسية.



مفاهيم أساسية في الفصل

المراهقة (Adolescence): المرحلة ما بين البلوغ والنضوج.

ميتم (Orphanage): مبيت للأيتام، مكان يقيم فيه الأطفال الذين فقدوا أحد والديهم أو كليهما.

صدمة (Trauma): تجربة سيئة أو صعبة، تسبب للشخص صعوبات نفسية أو عاطفية، تبقى عادة لفترة طويلة.

العصاب (Neurosis): مرض نفسي خفيف نسبياً ليس له سبب عضوي يظهر فيه أعراض ضغط نفسي مثل القلق أو الإحباط، ولكن الشخص لا يفقد الصلة بالواقع.

الذهان (Psychosis): مرض عقلي أو نفسي يفقد فيه الشخص علاقته بالواقع.

عقدة أوديب (Oedipus Complex): حسب نظرية فرويد، هي رغبة الطفل بإقامة علاقة جنسية مع الوالد من الجنس الآخر والتنافس في ذلك مع الوالد من الجنس نفسه، استعمل فرويد هذا الاصطلاح مع الأفراد من الجنسين، ولكن بعض الفرويديين الجدد يستعملون اصطلاح عقدة إلكترا للإناث من الأطفال.

التدريب على استعمال المرحاض (Toilet Training): عملية تدريب الطفل على التحكم بإفراز البول والغاز واستعمال المرحاض لذلك، ويعتبر الطفل مدرباً عندما يبدأ بأخذ المبادرة للذهاب إلى المرحاض ويستطيع

التحكم بملابسها بما يتناسب مع ذلك.

حرمان من الأمومة (Maternal Deprivation): يشير الاصطلاح إلى النتائج السلبية لفصل الطفل عن الأم البيولوجية أو من يقوم مقامها.

أسئلة للنقاش والمراجعة

1. لماذا اهتم حقل "الأنثربولوجية النفسية" بدراسة مرحلة الطفولة أكثر من غيرها من مراحل الحياة؟
2. ما هو تأثير حرمان الطفل من التواجد مع الأم، أثناء فترة الطفولة، عند القردة العليا والسفلى؟
3. ما هو تأثير حرمان الطفل من التواجد مع الأم، أثناء فترة الطفولة، عند الإنسان؟
4. حسب نظرية فرويد يمر طفل الإنسان من الولادة حتى المراهقة في أربع مراحل. اذكر أسماء المراحل الأربع، وأهم صفات كل منها؟
5. اشرح وقارن بين "عقدة أوديب" و"عقدة الكترا" في نظرية فرويد.

الفصل الثامن عشر

الأنثربولوجيا السياسية

ندرس في هذا الفصل أسباب وجود أنظمة سياسية في جميع الثقافات، وما الذي يحاول حقل الأنثربولوجيا السياسية عمله، ثم نقدم صورة مختصرة عن أنواع النظم السياسية في العالم مرتبة حسب المراحل التطورية للمجتمعات. أية وحدة سياسية أو كيان سياسي تكون مضطرة للقيام بوظيفتين رئيسيتين:

1. أن تحافظ على النظام داخلها، وعلى العلاقات بين أفرادها.
2. أن تضبط علاقتها وتنظيمها مع الوحدات السياسية الأخرى الموجودة خارج إطارها.

كل المجتمعات في العالم لديها قواعد لسلوك أفرادها، ولكن الناس لا يلتزمون بالقواعد والأنظمة بمجرد دوافعهم الذاتية، بل يجب أن يكون هناك طرف ما، يفعل تلك القواعد والنظم بطريقة ما، إذا كانت تلك القواعد والنظم مهمة فعلاً لبقاء واستمرارية المجتمع.

المجتمعات أيضاً تتكون من أفراد ومن مجموعات، ومن الطبيعي أن يكون هناك صراع وتنافس بين الأفراد وبين الجماعات، ولا بد من حلّها أو ضبطها بطريقة من الطرق، سواء سُمِّينا طريقة حل النزاع أو ضبطه قانوناً أم شيئاً آخر، فإن إيجادها يكون وظيفة من وظائف السلطة السياسية.

الكيان السياسي أو الوحدة السياسية لا بد لها أيضاً من التفاعل مع وحدات من خارجها، وقد تحتاج إلى إدارة حروب مع الوحدات الأخرى، ما قد يقوّي القيادات السياسية ويثبتها، ولو مؤقتاً. إدارة هذه العلاقات الخارجية هي أيضاً تكون وظيفة من وظائف القيادات السياسية لأي كيان سياسي.

بعض الشعوب يكون لها قيادة سياسية خاصة بالنظام الداخلي وأخرى للشؤون الخارجية، ولكن أكثرية المجتمعات يكون لها قيادة أو سلطة سياسية واحدة، تهتم بضبط العلاقات الداخلية والخارجية.

الأنتروبولوجيا السياسية تحاول التعرف على كيف عالجت المجتمعات المختلفة في العالم مهمة ضبط وتسير علاقتها الداخلية والخارجية بمتطلباتها وواجباتها المختلفة.

نقدم فيما يلي صورة عامة عن أنواع النظم السياسية الموجودة في مجتمعات العالم في الوقت الحاضر، متبعين في ذلك إطاراً تطوريّاً نقسم حسبه المجتمعات إلى خمسة مستويات، وهي:

1. مجتمعات الصيد والجمع (Hunting Gathering).
2. مجتمعات تعتمد على البستنة (Horticultural).
3. مجتمعات رعوية (Pastoral).
4. مجتمعات زراعية (Agricultural).
5. مجتمعات صناعية (Industrial).

هذا لا يعني أنه يمكننا أن نعمم بشكل مطلق على جميع المجتمعات في كل مرحلة، ولكن هذا التبؤ يسمح لنا برؤية بعض الأنماط المشتركة بين معظم المجتمعات ضمن كل من هذه المراحل.

1. مجتمعات الصيد والجمع: يكون لدى هذه المجتمعات قليل جداً من التنظيم السياسي، وتكون الوحدات السياسية فيها بشكل عصابات، ويكون للعصابة قائد أو زعيم، ولكن القائد أو الزعيم لا يمارس الكثير من السلطة على أفراد العصابة، إذ إن العصابة تكون دائماً عرضة للتفكك والتشريد، خصوصاً وأن طبيعة حياة الصيد والجمع تتطلب ابتعاد أجزائها، أي العائلات المكونة للعصابة، عن بعضها أثناء بعض المواسم للتمكن من الاستفادة، بشكل أفضل، مما تقدمه البيئة. لذلك يكون من السهل للوحدات الصغيرة الانفصال عن باقي العصابة، وهذا يجعل من الصعب على زعيم العصابة تطبيق أية عقوبات على أفراد من العصابة يرتكبون أخطاء أو جرائم ضد آخرين في العصابة.

بعض العصابات تكون من عائلات يتراوح عددها من ١٥-٥ عائلة، تتحتم

كلها تكون قرية صغيرة في الصيف، عندما تكون مصادر الرزق متوفرة، ثم تفرق في فصل الشتاء، عندما تشخّص مصادر الرزق. ولا تعود جميع العائلات عادة إلى موقع القرية نفسه، ولا يكون موقع القرية أو عدد سكانها ثابتاً عبر فترة زمنية طويلة.

بعض عصابات الصيد والجمع في إفريقيا تتفسخ كثيراً وتعود للتجمع بطرق مختلفة عن سابقتها، ما يحافظ على الوئام داخل العصابة، إذ أن العائلات تفترق حال ظهور أية بوادر خلاف، وهذا التغيير المستمر في تركيبة العصابة يقلل من مقدرة زعيم العصابة على ممارسة أي سلطات سياسية على أفرادها.

عند بعض عصابات السكان الأصليين في أمريكا الجنوبيّة لا يوجد ما يجبر الأفراد على الالتزام بما يمليه الزعيم، ولا توجد عقوبات على عدم الالتزام، ولا يهتم الأفراد بما يقوله الزعيم، إلا إذا كان الشخص من أفراد عائلة الزعيم.

وقد وجد علماء الأنثروبولوجيا أنه بين عصابات الهنود الحمر في كندا لا يوجد إلا القليل جداً من جرائم القتل أو السرقات أو إظهار العدوانية تجاه الآخرين. ويعزو علماء الأنثروبولوجيا ذلك إلى الخوف الشديد المنتشر بينهم من السحر الأسود المستعمل لديهم. من جهة أخرى نجد أن جريمة القتل تنتشر كثيراً بين قبائل الأسكيمو نتيجة الصراع على النساء. هذه القبائل تسمح بقتل الإناث من الأطفال عند الولادة ولا يعتبرونه جريمة، ما يخل بالنسبة بين الجنسين. كذلك فإنهم لا يعتبرون قتل كبار السن من الجنسين الذين لا يستطيعون محاكاة باقي القبيلة في التنقل، جريمة. وإذا قُتل شخص فإن أحد أقارب المقتول قد يقوم بقتل القاتل، أو يتحداه إلى مبارأة في الغناء، حيث يتهم كل منهما على الآخر ويكون الجمهوّر هو الحكم في من يكون الفائز، عن طريق التصفيق وهتافات الاستحسان أو الاستنكار. وبعد انتهاء المبارأة تعود العائلتان إلى العلاقة الطبيعية.

2. **مجتمعات تعتمد على البستنة:** مجتمعات البستنة هي تلك المجتمعات التي تعتمد الزراعة فيها على طاقة الإنسان، وتكون الأداة الرئيسة



في العمل الزراعي هي العصا المدببة. وُجِدَت مثل هذه المجتمعات عند السكان الأصليين في الأميركيتين وفي جزر المحيط الهادئ. وهي لا تختلف كثيراً عن مجتمعات الصيد والجمع من حيث حجم التجمعات وبعض الصفات الأخرى، ولكن المساواة بين أفراد المجموعة تكون أقل، ويكون للزعماء فيها سلطات أكثر، وقد تكون لهم ملابس خاصة ويخاطبون بطرق رسمية أكثر من باقي أفراد المجموعة. في بعض التجمعات يكون للزعيم الحق في تعدد الزوجات وقد تكون مساحة حدائقه أكبر من حدائق الآخرين، وقد يكون له حق إعادة توزيع المحاصيل بين عائلات القرية. يكثر الغزو والحروب بين القرى أو التجمعات المختلفة في مثل هذه المجتمعات، ما قد يرفع من المنزلة الاجتماعية لزعيم القرية. يتوقع عادة من الزعيم، كما الحال في مجتمعات الصيد والجمع، أن يكون كريماً. وتزداد المركبة، كما تزداد سلطة الزعيم، مع تقدّم الزراعة في هذه المجتمعات.

3. المجتمعات الزراعية: تختلف الزراعة عن البستنة بأنها تعتمد على الطاقة الحيوانية، وأن الأداة الرئيسة في العمل الزراعي هي المحراث الذي يجره الحيوان. وقد نشأت الزراعة أولاً على ضفاف الأنهر في بلاد ما بين النهرين ثم في مصر والهند والصين وكذلك في أمريكا الوسطى والمكسيك.

ظهر نظام المحاكم في المراكز الحضرية في المجتمعات الزراعية في بلدان العالم القديم والحديث. ففي مجتمع الأزتك (Aztec) في المكسيك كان هناك محكمة في كل لواء خارج المدينة، وواحدة في كل حي من أحياط المدينة، وكانت المحاكم تعمل في جميع أيام السنة، وكان قصر حاكم البلاد يخدم كمحكمة الاستئناف والمرجع الأخير في القضاء. كان هذا النظام يشبه إلى حد كبير نظام المحاكم في المجتمعات الحديثة ولكن دون وجود محامين رسميين ودون محلفين. مع ظهور المحاكم بدأت القوانين المعتمدة من قبل السلطات بالظهور. ففي مدن بلاد ما بين النهرين في العصر البرونزي أصبح هناك سلطة مركبة أو دولة في كل مدينة، ومع ظهور الكتابة ظهر في كل مدينة مجموعة من القوانين الرسمية المعتمدة والمكتوبة والتي وصلت قمتها في قوانين حمورابي. وجود القوانين المكتوبة أدى إلى استقرار النظام القانوني وأصبح

من الممكن العودة بسرعة إلى الأحكام السابقة والاستعانة بها في الحالات الجديدة المشابهة. مع انتشار القراءة فيما بعد تعرف الكثيرون على القوانين ما قلل من التسلط العشوائي والمطلق للحكم. ويختلف القانون عن العادات والتقاليد في أن من يخالف العادات والتقاليد المتبعة في المجتمع قد يُعتبر شاذًا أو منحرفًا أما من يخالف القانون فيمكن عقابه وإجباره على الانصياع للقانون. هذا يعني أن القانون يُطبق من قبل سلطة أو جسم سياسي يعترف المجتمع بأنه مخول لتنفيذ القانون وإلقاء العقوبات على من يخالفه. نتيجة لذلك فإن القانون يتاسب عكسيًا مع وسائل الضبط الاجتماعي الأخرى المتوفرة في المجتمع، أي أنه يكون هناك قوانين أكثر في المجتمعات التي تكون وسائل الضبط الاجتماعي فيها ضعيفة.

حجم الفئات الحاكمة في المجتمعات الزراعية تكون عادة صغيرة ولا تزيد على ٢٪ من مجتمع الوحدة السياسية. وتتمكن الطبقة الصغيرة الحاكمة من التسلط على باقي المجتمع عن طريق كونها منظمة ومتماضكة أكثر من باقي أجزاء المجتمع، وتكون مدعومة بعدد كبير من المساعدين والحراس والجنود والخدم.

نظام الإقطاع يظهر عادة في المجتمعات التي تعتمد على الزراعة والتي لا يكون فيها الكثير من التجارة المنظمة، خصوصاً عندما يكون المجتمع قد مر في مرحلة من الانحلال والانقسام كما حدث للإمبراطورية الرومانية بعد انهيارها. وينظر علماء الأنثروبولوجيا إلى نظام الإقطاع بوصفه نظام حكم أكثر منه نظاماً اجتماعياً أو اقتصادياً، يكون التشديد في العلاقة بين رجل الإقطاع وأتباعه على الخدمة العسكرية. طبعاً لا يظهر حتماً نظام إقطاعي بعد سقوط كل إمبراطورية وإنما يكون ظهوره أحد الإمكانيات.

٤. **المجتمعات الصناعية:** توسيع الدولة الحديثة وتضخم أجهزتها أثناء القرن الماضي جاء في أعقاب توسيع الصناعة وتضخمها. وهناك تأثير متبدل بين النظمتين السياسي والصناعي في المجتمعات الصناعية الحديثة. وقد تصبح بعض الشركات الصناعية الكبيرة قوة سياسية بحد ذاتها، ولكن يكون عليها أن تنسب نشاطها مع النظام السياسي للدولة ككل.

يكون في الدول الصناعية الكبيرة دائماً خطر التحول إلى دكتاتوريات. من جهة أخرى فإن كثرة عدد العاملين في أجهزة الدولة بالإضافة إلى كثرة القوانين، وكثرة وسائل الاتصال، ونسبة التعليم العالية، قد تقود إلى انتشار واسع للديمقراطية، بينما قد يخدم اتساع نظام التعليم وكثرة وسائل الاتصال في نشر دعاية السلطة الحاكمة، وزيادة سيطرتها على المجتمع.

يدرس علماء الأنثروبولوجيا عادة النظام السياسي وليس السياسة نفسها؛ أي أنهم يهتمون بالتحليل البنائي للأجهزة والمؤسسات المسؤولة عن الضبط الاجتماعي، وحل الصراعات داخل المجتمع، ومع المجتمعات الأخرى، أما دراسة السياسة فإنها تتعامل مع العمليات وليس البناء.

ويمكن القول إن السياسة تتعلق بالأهداف العامة المرغوبة والتنافس عليها من قبل أفراد وفئات المجتمع المختلفة، والمتعلقة بتوزيع أو تقاسم السلطة. ويرى بعض علماء الأنثروبولوجيا أن العملية السياسية التي تقود إلى تكوين النظام السياسي في المجتمعات الصناعية تمر عادة في عدة مراحل، وهي:

1. مرحلة أولية تحاول فيها التنظيمات السياسية كسب المؤيدين والخلفاء عن طريق الإقناع والوعود بالمكافآت للأتباع والمؤيدين، وعن طريق نشر الإشاعات والدعایات السیئة عن الفئات المنافسة، وقد تُدفع الرشاوى لخلق الانشقاقات داخلها.

2. تأتي بعدها مرحلة من المواجهة والمحاكمة بين الفئات المتنافسة تنتج عنها أزمة تُخرج فيها المعايير الأخلاقية المتبعة في المجتمع عادة.

3. ينتج عن الأزمة ظهور تيارات معاكسة تحاول استعادة النظام والوئام داخل المجتمع.

4. بعد حل الخلافات والصراعات تسود المجتمع حالة من السلم والمهدوء.

مهام النظام السياسي في مجتمع من المجتمعات لا تنتهي عند ضبط الصراعات وحفظ النظام داخل الوحدة السياسية نفسها بل تضم أيضاً ضبط العلاقات مع الوحدات أو المجتمعات الأخرى. ما يتطلب عقد اتفاقيات ومعاهدات حول الحدود ومناطق النفوذ والعلاقات التجارية واستقبال الوفود وغير ذلك

من العلاقات. والفشل في تنظيم تلك العلاقات وضبطها قد يؤدي إلى حروب بين المجتمعات على جميع مستويات التطور الثقافي. بعض المجتمعات القبلية قد تعيش في حالة حرب مستمرة، وفي بعضها تكون الحروب موسمية، وفي بعضها يكون للحروب طقوس ومارسات معروفة ومتفق عليها وكأنها ألعاب.

وفي حروب بين بعض مجتمعات البستنة، التي درسها علماء الانثروبولوجيا، كان يقتل ما يزيد على ربع الرجال البالغين في المجتمع. وقد زادت الحروب بين المجتمعات الزراعية مع ازدياد كثافة السكان. ويضاف إلى كثافة السكان في المجتمعات الصناعية، زيادة سلطة الدولة على السكان، وزيادة نجاعة الأسلحة في القتل والدمار.

هناك عدد من العلماء من يعتقدون أن الإنسان كائن عدواني بالغريزة، ولكن الأكثريّة يرون أن العدوانية جزء من الثقافة، وأن الثقافة متعلمة ويمكن التحكّم بها وتغييرها.

مفاهيم أساسية في الفصل

النظام السياسي (Political Organization): الطريقة التي يجري بها ضبط النظام والانضباط الاجتماعي في مكان ما.

وحدة سياسية (Political Unit): بلد أو منطقة أو مجتمع أو دولة لها حدود معروفة ومتفق عليها، ولها حكومة أو سلطة سياسية واحدة.

حل النزاعات (Conflict Resolution): العملية أو الطريقة التي يجري إيجاد حل سلمي لخلاف أو نزاع بين طرفين أو أكثر، ويمكن أن يكون الخلاف شخصياً أو مادياً أو سياسياً أو عاطفياً أو غير ذلك.

الضبط الاجتماعي (Social Control): الطريقة التي بها يقوم المجتمع بضبط سلوك أفراده وضمان التزامهم بالنظام عن طريق القانون أو الضغط الاجتماعي.

سلطة سياسية (Political Authority): المقدرة على الحكم عن طريق الدكتورية أو عن طريق الحق بالوراثة، كما في حالات الملكية المطلقة، أو بالموافقة كما في الديمقراطية.

مجتمعات الصيد والجمع (Hunting Gathering Societies): مجتمعات تستعمل استراتيجية تواافق أو بقاء تعتمد على مصادر الغداء الطبيعية بصيد الحيوانات البرية والأسماك وجمع النباتات البرية.

البستنة (Horticulture): استراتيجية تواافق أو بقاء تعتمد على طاقة الإنسان باستعمال عصا مدببة، أو منكوش لحفر الأرض وزراعة جذور، أكثر من زراعة الحبوب.

الزراعة (Agriculture): استراتيجية توافق أو بقاء تعتمد على زراعة النباتات باستخدام طاقة الحيوان أي استعمال المحراث الذي يجره الحيوان.

مجتمعات صناعية (Industrial Societies): مجتمعات تستعمل أسلوب إنتاج يعتمد على الطاقة غير الحية، أي غير طاقة الإنسان والحيوان، لتشغيل الآلات في إطار مصانع في استخراج وتحويل المصادر الغذائية الموجودة في الطبيعة.

عصابة (Band): مجموعة من السكان، عادة أقل من خمسين، تجمعهم علاقات قرابة أو صداقة، مستقلة سياسياً، تسودها المساواة، ولا توجد لها قيادة معينة أو معرفة رسمياً، ولديها اكتفاء اقتصادي ذاتي.

التشرذم والالتحام (Fission and Fusion): ما يحدث في بعض العصابات من تشرذم إلى فئات صغيرة في بعض المواسم التي تقل فيها مصادر الغذاء، والعودة إلى التجمع والالتحام في المواسم التي تكثر فيها تلك المصادر.

قتل الإناث (Female Infanticide): الممارسة المسموح بها في بعض المجتمعات بقتل الإناث من الأطفال حال الولادة أو بعدها بفترة قصيرة لأسباب اقتصادية واجتماعية.



أسئلة للنقاش والمراجعة

1. ما هي وظائف التنظيم السياسي، اشرح وقدم أمثلة؟
2. التنظيم السياسي في المجتمعات الصيد والجمع يكون عادة ضعيفاً، ومع ذلك لا يوجد فيها إلا القليل من جرائم القتل، أو السرقات، أو إظهار العدوانية تجاه الآخرين. كيف تفسر ذلك؟
3. قارن بين نتائج قتل البنات عند قبائل الأسكيمو، ووأد البنات كما كان عند القبائل العربية في الجاهلية؟
4. قارن بين دور الزعيم في المجتمعات الصيد والجمع، ودوره في المجتمعات التي تعتمد على البستنة؟
5. يرى علماء الأنثropolوجيا أن وجود القانون يتناصف عكسياً مع وسائل الضبط الاجتماعي الأخرى الموجودة في المجتمع. كيف تفسر ذلك؟

الفصل التاسع عشر الأنثروبولوجيا الاقتصادية

يهم حقل الأنثروبولوجيا الاقتصادية بشكل عام بكيفية استغلال الطاقة الكامنة في البيئة الطبيعية وفي بني الإنسان الذين يعيشون فيها؛ أي بكيفية إنتاج البضائع والخدمات، وكيفية توزيعها بين أفراد المجتمع وبين الأهداف وال حاجات المختلفة للمجتمع، وكيفية استهلاك تلك البضائع والخدمات، بالإضافة إلى أنماط العلاقات الاجتماعية، وأنماط السلوك التي تتطلبها تلك النشاطات، وطرق إدراك وفهم أبناء المجتمع لتلك النشاطات.

عالم الأنثروبولوجيا الاقتصادية الذي يدرس النظام الاقتصادي لمجتمع من المجتمعات يتساءل إذاً حول ثلاثة مواضيع عريضة هي: الإنتاج، والتوزيع، والاستهلاك، للبضائع والخدمات في ذلك المجتمع.

من المعروف أن علم الإنسان ككل نشأ في العالم الغربي أي في أوروبا الغربية وأمريكا. قبل بداية الدراسات الأنثروبولوجية للمجتمعات البدائية كانت النظريات الاقتصادية الكلاسيكية، والغربيون عموماً، ينظرون إلى الاقتصاد على أنه يساوي الربح المادي، وأن الربح هو هدف كل شيء في الحياة، وأن النجاح المادي برهان على الصلاح الديني والروحياني للإنسان، وأن محاولة الحصول على أكبر مقدار من الربح هو أساس التعامل بين الناس وأساس السلوك العقلي. بدأ الشك في هذا المنطق بين الأوروبيين عندما بدأوا يطّلعون على بعض الشعوب البدائية ويرون أن الربح المادي ليس هو الخيار الوحيد، وليس الدافع الوحيد للسلوك.

في البداية اعتقد الغربيون أن الإنسان في المجتمعات البدائية أو ما قبل الصناعية ليس لديه أية خيارات وإنما كل شخص يتبع من سبقوه في السير على الطريق نفسه، لكن عندما بدأ علماء الأنثروبولوجيا بعمل الدراسات في المجتمعات البدائية وجدوا أن هناك خيارات كثيرة أمام الأفراد في تلك الثقافات. فكل مزارع مثلاً يعمل حسابات وانتقاءات كثيرة بين إمكانيات

مختلفة غير الربع المادي، ولكنها عقلانية، وأن ما هو عقلاني يتوقف على الأهداف التي يسعى إليها الشخص، وليس فقط على محاولة زيادة الربح المادي. وإذا عرف عالم الأنثربولوجيا الأهداف التي يسعى إليها الناس في تلك الثقافات أصبح سلوكهم يظهر منطقياً، وأصبح بإمكانه أن يتوقع سلوكهم الاقتصادي ويربطه مع النواحي الأخرى من سلوكهم.

الأنثربولوجيا الاقتصادية الحديثة تنطلق من مبادئ أخرى غير منطلق الربح المادي، وتعتمد بشكل عام على المنطق القائل بأن كل مجتمع إنساني له حاجات بيولوجية وروحية لا بد من إشباعها من أجلبقاء ذلك المجتمع واستمراريته. سد تلك الحاجات يأتي من تفاعل الإنسان مع البيئة التي يعيش فيها، أي من استغلال المصادر والطاقة المتوفرة في تلك البيئة، واستغلال المصادر يتوقف على عنصرين هما: تكنولوجيا الإنتاج المتوفرة في ذلك المجتمع، وتقسيم العمل بين أفراد المجتمع لاستغلال المصادر والثروات المتوفرة في البيئة. كيفية استغلال مصادر البيئة وبنهايتها تعكسان على تكوين المجتمع المحلي من حيث كثافة السكان في المجتمع المحلي، ونمط توزيع السكان، وحجم التجمع السكاني. ما ينتجه أعضاء المجتمع المحلي من استغلالهم لمصادر البيئة يوزع بينهم حسب قواعد وقوانين متفق عليها تكون نظاماً اقتصادياً.

البيئة الطبيعية للمجموعة:

البيئة الطبيعية التي تتوارد فيها الثقافة تكون أهم عامل يؤثر في الثقافة. طريقة حياة أعضاء المجتمع تتأثر بنوع المصادر والإمكانيات التي توفرها البيئة. فالبيئة التي تكثر فيها الحيوانات مثلاً تشجع تطوير تكنولوجيا الصيد، بينما يشجع توفر الأرض الخصبة على تطوير تكنولوجيا البستنة أو الزراعة، والمناطق العشبية تشجع على الرعي وتربية الماشي. كذلك تتأثر الثقافة أيضاً بعدم توفر مصادر معينة في البيئة؛ فعدم خصوبة الأرض أو الجفاف أو الانخفاض الشديد لدرجات الحرارة يؤثر في نوع تكنولوجيا الإنتاج التي يمكن أن يلجأ إليها أفراد المجتمع. هذا يعني أن البيئة لا تُملي حتماً نوعاً معيناً من

تكنولوجيَا التوافُق مع البيئة، ولكنها تطرح إمكانيات، وتضع حدوداً لما هو ممكِن.

يقسّم علماء الأنثروبولوجيا أنواع البيئة حسب هذا المعيار؛ أي حسب الإمكانيات والحدود التي تضعها أمام الإنسان ، إلى ثمانية أنواع وهي: 1. صحراء 2. غابات استوائية، 3. غابات حوض البحر المتوسط، 4. غابات معتدلة، 5. مناطق عشبية، 6. غابات المناطق الشمالية، 7. مناطق قطبية، 8. مناطق جبلية.

تكنولوجيَا الإنتاج:

الإمكانيات والثروات الموجودة في بيئه طبيعية معينة تبقى كامنة حتى تستغل من قبل جماعة تمتلك تكنولوجيا مناسبة لتلك المصادر. أي أن المصادر والإمكانيات التي يجري استغلالها تتوقف على تكنولوجيا الإنتاج الموجودة عند تلك الجماعة. ويقصد بتكنولوجيا الإنتاج: النشاطات التي يقوم بها أعضاء المجتمع لاستغلال بيئتهم للحصول على ما يضمن بقاء المجتمع واستمراريته، أو الأساليب التي يتواافق المجتمع بواسطتها مع بيئته الطبيعية. ويتفق علماء الأنثروبولوجيا على أن هناك أربعة أنواع أساسية من التكنولوجيا أو طرق التوافق في البيئة الطبيعية وهي: 1. الصيد والجمع، 2. الرعي وتربيه الحيوانات، 3. البستنة، 4. الزراعة. بعض الثقافات تعتمد على نوع واحد من أنواع التكنولوجيا هذه، بينما يعتمد البعض على نوعين أو أكثر في الوقت نفسه.

الثقافات التي تعتمد على نوعين أو أكثر من التكنولوجيا ربما تستغل إمكانيات أكثر مما توفره البيئة الطبيعية، مقارنة بالمجتمعات التي تعتمد على نوع واحد من التكنولوجيا.

كثافة السكان في ثقافة من الثقافات تتأثر كثيراً بنوع التكنولوجيا المستعملة في التوافق مع البيئة الطبيعية، ولذلك لا يمكن تقدير الكثافة السكانية في ثقافة ما من مجرد معرفة نوع البيئة الطبيعية الموجودة فيها، مع أنها طبعاً، نعرف أن بعض البيئات الطبيعية أصلح لحياة بني الإنسان من غيرها.



ولكننا نعرف بشكل عام أنه بين أنواع التواوفقات الأربع التي ذكرناها فإن تكنولوجيا الزراعة تحمل أكبر كثافة سكان، بينما تحمل تكنولوجيا الصيد والجمع أقل كثافة من السكان، وتأتي كثافة السكان في الثقافات التي تعتمد على الرعي وعلى البستنة بينهما.

على أي من الجنسين تعتمد تكنولوجيا التوافق يؤثر كثيراً في تركيبة العائلة وفي نظام القرابة في تلك الثقافة، فإذا كان الرجال هم الذين يقومون بالدور الرئيس فإنه من المتوقع أن يكون الرجال هم الذين يملكون الممتلكات من الأدوات والحيوانات والأرض المستعملة في الإنتاج، وأن الرجال يكونون صلب نظام القرابة. وإذا كان النساء هن اللاتي يقمن بالعبء الرئيس في الإنتاج فمن المتوقع أن النساء هن اللواتي يملكن معظم الممتلكات وأن الأقارب من النساء يعيشن مع بعضهن ويأتي الأزواج ليعيشوا معهن، وتكون النساء صلب بمجموعة القرابة.

من جهة أخرى فإن نوع تكنولوجيا التوافق يقرر إلى حد كبير من من الجنسين يتحمل العبء الأكبر في الإنتاج. ويعتقد أن الأعمال التي تتطلب جهداً جسدياً أكبر تكون عادة من نصيب الرجال، والتي تتطلب جهداً أقل تكون للنساء. فالصيد يكون عادة للرجال بينما الجمع للنساء، ويشارك الاثنين في صيد السمك. وبما أن الزراعة تتطلب جهداً أكثر من البستنة فإن النساء يلعبن دوراً أكبر في البستنة منه في الزراعة. هذا المنطق طبعاً لا ينطبق حتماً على جميع الأعمال في جميع ثقافات العالم.

لا يقوم جميع أفراد المجتمع عادة بنوع العمل نفسه، وإنما يوزع العمل بين أعضاء المجتمع على أساس قواعد ومعايير معروفة لأفراد المجتمع، ومتافق عليها. في كل ثقافات العالم توزع الأعمال المختلفة بين أفراد المجتمع حسب معيارين هما: الجنس والسن، وأحياناً يدخل معيار ثالث هو المهارات أو الاختصاص، على أساس جزئي أو كلي.

تقسيم العمل على أساس الجنس والسن فقط بحده في الثقافات البسيطة جداً. أما في الثقافات المعقدة أكثر، مثل المجتمعات الصناعية الحديثة فإن تقسيم العمل يعتمد على الاختصاص الكامل؛ أي أنه كلما ازدادت

ال المجتمعات حجماً وتعقیداً تحول تقسيم العمل من الاعتماد على الجنس والسن إلى الاعتماد على التدريب والمهارات والاختصاص الكامل.

حجم التجمعات السكانية ونمط انتشارها في الأراضي المخصصة لثقافة من الثقافات أيضاً يتأثر بنوع التكنولوجيا المستعملة. تختلف أنماط التجمعات السكانية وحجمها من ثقافة إلى أخرى. يمكن أن تكون التجمعات عبارة عن عصابات صغيرة أو قبائل من الرجال أو أنصاف الرجال، بينما يعيش جماعات أخرى في عزب صغيرة دائمة ولكنها متباينة، وهناك قرى صغيرة وكثيفة، بينما يعيش البعض في بلدات ومدن كبيرة وشديدة الاكتظاظ.

الثقافات التي تعتمد على تكنولوجيا الصيد والجمع أو على الرعي وتربية الماشي تكون عادة من الرجال أو أنصاف الرجال، بينما تمثل الثقافات التي تعتمد على البستنة أو الزراعة إلى الاستقرار في عزب أو قرى دائمة. عندما تزيد كثافة السكان كثيراً، ويصبح تقسيم العمل يعتمد على المهارات والاختصاص الكامل، تظهر البلدات الكبيرة والمدن. الحرب أيضاً تؤثر في نوع التجمعات، إذ تضطر السكان إلى التجمع في قلاع أو قرى ومدن كثيفة ومحصنة.

توزيع البضائع والخدمات وأشكال التبادل:

تجدهنا حتى الآن عن إنتاج البضائع والخدمات من خلال التفاعل بين التكنولوجيا والبيئة الطبيعية. ننتقل الآن إلى توزيع البضائع والخدمات بين أفراد المجتمع. نهتم هنا بكيفية انتقال البضائع والخدمات من طرف إلى آخر أو من جماعة إلى أخرى. تبادل البضائع والخدمات يكون إما داخل المجتمع المحلي أو بين مجتمعات محلية ضمن الثقاقة نفسها.

أولاً: التبادل داخل المجموعة المحلية:

من المتفق عليه بين علماء الأنثروبولوجيا أن هناك ثلاثة طرق أو قواعد للتبادل أو التوزيع بين الأفراد أو المجموعات ضمن المجتمع المحلي نفسه، وهي: المقايضة، وإعادة التوزيع، والتبادل من خلال السوق. كل نظام

اقتصادي يكون فيه واحد على الأقل من أنماط التبادل الثلاثة، وقد يكون هناك نمطان أو ثلاثة، ولكن يكون أحدهما هو النمط المسيطر.

١- المقايضة:

هي صيغة تبادل سلع وخدمات بين وحدات من النوع نفسه، مثل أفراد، أو عائلات، أو مجموعات قرابة، أو وحدات فرعية داخل الوحدة المحلية. مثل هذا التبادل يحدث عادة بين وحدات تجمعها أصلاً علاقات اجتماعية أو رسمية، أي أن التبادل يتبع خارطة العلاقات الموجودة ولا تخلقها. المقايضة تأخذ عادة شكل تبادل هدايا، إذ إن توزيع السلع ذات القيمة المادية ليست هي الهدف من هذا النوع من المقايضة. الهدف الأساسي من هذا النوع من التبادل هو الحفاظ على الروابط الاجتماعية بين الوحدات. ويمكن التمييز بين نوعين من المقايضة:

أ. المقايضة المتوازنة: هي التبادل المباشر لبضائع أو خدمات ذات قيم متساوية خلال فترة محدودة. أي أن الهدية يجب أن تقابل بهدية متساوية بالقيمة المادية، مثلاً، خلال سنة. فإذا لم تُقابل الهدية بهدية متساوية أو لم تُقابل بالمرة خلال الفترة المحددة تصبح العلاقة الاجتماعية التي يجري حسبها التبادل لاغية. أي أن المقايضة المتوازنة تكون طريقة للحفاظ على العلاقات الاجتماعية بين وحدات المجتمع المحلي، وعادة لا تكون هناك، بين الوحدات المتبادلة، علاقة قرابة.

ب. مقايضة عامة: في هذه الحالة يكون التبادل بحيث أن السلع والخدمات تسير في اتجاه واحد، ويقابلها الشكر والاحترام والامتنان من الاتجاه الآخر. أي أن الطرف الأول يقدم هدية ولا حاجة للطرف الثاني أن يقابلها خلال وقت محدد، وإذا قابلها بهدية فلا حاجة لأن تكون هذه متساوية لها بالقيمة المادية، ولكن من الواجب حتماً إظهار الاحترام والشكر والامتنان. هذا النوع من التبادل يجري عادة بين الأقارب من نفس وحدة القرابة. مثلاً

توزيع لحم الصيد بين الأقارب في جماعة الصيد والجمع، تكون عادة من هذا النوع من التبادل. الصياد الذي يوزع اللحم على الأقارب يحصل على�احترام والجاه والمنزلة الاجتماعية العالية.

٢- إعادة التوزيع:

تكون إعادة التوزيع عن طريق انتقال السلع والخدمات بشكل منظم إلى مقر إدارة مركزية، وتقوم السلطة المسؤولة بإعادة توزيعها. نظام إعادة التوزيع يجري إما طوعاً من قبل أفراد المجتمع، أو يكون إجبارياً بأن ترسل السلطة المركزية وكلاء يجبرون الأعضاء على تقديم السلع أو الخدمات للسلطة المركزية. ما يُجمع قد يستعمل لمساعدة المحتاجين، أو لمكافأة الأتباع، أو لدعم الجيش، أو لضمان الرفاه للفئة الحاكمة. وقد تراوح السلطة المركزية من رئيس عصابة، أو شيخ قبيلة، إلى حاكم مملكة أو دولة كبيرة.

٣- تبادل السوق:

هذا النوع من التبادل هو تبادل السلع والخدمات حسب قانون العرض والطلب. في هذه الحالة يكون للسلع والخدمات قيم وأسعار يحددها العرض والطلب. وجود نقود متداولة من قبل الجميع يجعل ذلك ممكناً، شرط وجود سلطة مركزية تضمن التعاقدات المالية. وجود عملة رسمية، وسريان قانون تعاقد مضمون من قبل سلطة مركزية، ضرورتان حتميتان لسير نظام تبادل السوق بشكل منتظم. ولا يكون وجود موقع سوق حقيقي ضرورياً، ووجود موقع سوق حقيقي لا يضمن وجود نظام تبادل سوق منتظم.

ثانياً: التبادل بين الوحدات المحلية في داخل الثقافة الواحدة: نفس طرق التبادل الثلاث التي يمكن أن توجد داخل الوحدات المحلية، يمكن أن توجد بين الوحدات المحلية في الثقافة ككل. وهذا التبادل يخلق ترابطات بين أجزاء الثقافة، وقد يكون الترابط اجتماعياً أو سياسياً أو اقتصادياً. وإذا لم يكن هناك ترابط بين وحدات المجتمع ككل فإن التبادل بين الوحدات المحلية

لا يحدث. أنواع التبادل بين وحدات الثقافة، وأنواع الترابط داخل المجتمع، تقرران المستوى التطوري للمجتمع. حسب هذين المعيارين يتحدث علماء الانثربولوجيا عن أربعة مستويات:

1. **مستوى عصابات Bands**: وهو أدنى المستويات على سلم تطور المجتمعات. ولا يوجد على هذا المستوى أي ترابط اجتماعي أو سياسي أو اقتصادي بين الوحدات المحلية.
2. **مستوى القبائل Tribes**: يكون فيها ترابط قوي بين الأفراد داخلها من خلال قرابة الدم، وقد يكون هناك تبادل اقتصادي مع قبائل أخرى.
3. **إمارات أو مشيخات Chiefdoms**: يكون فيها إعادة توزيع من خلال سلطة مركزية. ويشرف الشيخ أو الأمير على إعادة التوزيع.
4. **دول States**: تنشأ الدول عندما تكون هناك حكومة لها سلطة قانونية شرعية يحق لها استعمال القوة، ويكون فيها اقتصاد سوق ينتج من خلاله ترابط اقتصادي.

الاستهلاك:

المهتمون بالاستهلاك يدرسون كيف يجري استهلاك السلع والخدمات التي يتم إنتاجها وتوزيعها بين أفراد المجتمع، وما هي أنماط السلوك المتبعة في ذلك، وما هي القواعد والقوانين المتبعة في استعمال المنتجات واستهلاكها. لقد كرس علماء الانثربولوجيا جهوداً أقل بكثير لدراسة الاستهلاك منها لدراسة الإنتاج والتوزيع. بشكل عام يظهر أن طرق الاستهلاك متتشابهة كثيراً بين جميع أفراد المجتمعات التي لا يوجد فيها تقسيم عمل مبني على الاختصاص المهني، إذ لا يوجد فيها أي فائض، ويوجد عند كل فرد في المجتمع ما هو موجود عند الباقيين، ولا يكون بينهم أغنياء، ولا تتوفر عند أي منهم أية كماليات.

مع تطور التكنولوجيا والشخص في العمل وظهور التجارة داخل الوحدات المحلية وخارجها تبدأ الفروق الاجتماعية بالظهور، وتختلف أنماط الاستهلاك بين الطبقات الاجتماعية، ويصبح نمط الاستهلاك ونوع السلع المستهلكة وكمياتها، مما يميز الطبقات والمراكز الاجتماعية عن بعضها. ويمكننا التعميم بالقول بأن المجتمعات الإنسانية تدرج من أعلى درجات المساواة عند مجتمعات الصيد والجمع، وتصل أعلى درجات عدم المساواة في نظام الدولة، حيث يتتوفر أكبر مقدار من الفائض في السلع والخدمات.



مفاهيم أساسية في الفصل

إنتاج (Production): الطريقة التي بها يحول المجتمع المصادر المتاحة له إلى بضائع (للتوزيع والاستهلاك فيما بعد).

توزيع (Distribution): توصيل البضائع والخدمات التي ينتجها المجتمع إلى أفراد المجتمع.

استهلاك (Consumption): أنماط السلوك المتعلقة باستعمال البضائع والخدمات التي ينتجها ذلك المجتمع.

الإيكولوجيا (Ecology): دراسة العلاقة بين الكائن أو مجموعة كائنات والبيئة التي تعيش فيها.

بضائع (Goods): الأشياء الجاهزة للاستهلاك في إشباع حاجات الإنسان ولا تستعمل في عمليات إنتاج أخرى.

خدمات (Services): نشاط تجاري لا ينتج أشياء ملموسة، ولا أشياء يمكن الاحتفاظ بها، ولا يمكن امتلاكها.

البيئة الطبيعية (Natural Environment): جميع الأشياء الحية وغير الحية، الموجودة بشكل طبيعي على سطح الأرض أو في منطقة محددة منها.

استراتيجية التوافق (Adaptive Strategy): الخطة الناتجة عن التكنولوجيا مع تنظيم العمالة التي بواسطتها يستطيع المجتمع الحفاظ على استمراريته بالتفاعل مع البيئة.

كثافة السكان (Population Density): مقياس لنسبة السكان إلى المساحة التي يشغلونها، أو عدد السكان في وحدة المساحة مثل الكيلومتر المربع.

المصادر الطبيعية (Natural Resources): الأشياء الموجودة في الطبيعة، مثل الماء والمعادن والحيوانات، في بيئه معينة ويمكن للإنسان استعمالها من أجل البقاء.

مقايضة (Bartering): تبادل بضائع أو خدمات دون استعمال النقود.

أسئلة للنقاش والمراجعة

1. لِّخَصْ مُحَالَاتْ اهْتَمَامْ حَقْلِ الْأَنْثِرِبُولُوجِيَا الْاِقْتِصَادِيَّةْ؟
2. ناقش الجملة التالية على ضوء دراسة المجتمعات البدائية:
"الربح المادي هو هدف كل شيء في الحياة وهو أساس السلوك العقلاني".
3. البيئة الطبيعية التي تتوارد فيها الثقافة تكون أهم عامل يؤثر في الثقافة.
إلى أي مدى تتفق مع هذا الرأي، قدم أمثلة من المجتمعات العربية.
4. تتوقف تركيبة العائلة في المجتمعات المختلفة على من يمتلك ويدير
تكنولوجيَا التوافق في ذلك المجتمع؟ فسر وقدم أمثلة.
5. يقسم علماء الأنثربولوجيا الاقتصادية أنماط التبادل في المجتمعات المختلفة
إلى ثلاثة أنماط. قارن بين هذه الأنماط وقدم أمثلة.

الفصل العشرون

الأنثربولوجيا التطبيقية

الأنثربولوجيا التطبيقية فرع من فروع الأنثربولوجيا الثقافية وهي فرع جديد نسبياً. في الماضي لم يكن علماء الأنثربولوجيا يحاولون تغيير المجتمعات التي كانوا يدرسونها، بل إن أخلاقيات الحقل كانت تحض على أن لا يتدخل الباحث في شؤون الثقافة التي يدرسها، ولا يحاول تغيير أي شيء فيها، وإنما يكتب الباحث ملاحظات ميدانية يصف فيها ما يشاهده وعندما يعود إلى مجتمعه الأصلي ينشر ما توصل إليه. وقد يكون لبعض ما ينشره تأثير طفيف وغير مباشر وغير مقصود على الثقافة التي درسها. هنا يختلف علماء الأنثربولوجيا التطبيقية عن سابقיהם، إذ إنهم لا يكتفون بالوصف، بل إنهم يحاولون عمداً إحداث تغييرات مختلفة في المجتمعات التي يدرسونها.

لماذا ظهر هذا النوع من الدراسات الأنثربولوجية؟

مصادر الغذاء في العالم لا تتزايد بما يتناسب مع نسبة تزايد السكان، مما جعل علماء السكّان يتباينون بظهور مجاعات في أماكن مختلفة من العالم، وهناك تقارير منذ سبعينيات القرن الماضي تتحدث عن مجاعات في أجزاء من شمال أفريقيا والهند وبنغلادش. للتعامل مع هذه المشاكل جلأت بعض الدول إلى برامج تطويرية وتنموية مثل برامج استصلاح الأراضي، ومشاريع الري، وإيصال الكهرباء إلى الأرياف، واستعمال الأسمدة الكيماوية، وتحسين نوعية البذور، ونشر المعلومات الزراعية، وتحسين الأدوات الزراعية، وتوفير القروض، وتحسين الطرق، ونشر التعليم، والتثقيف الصحي، وتحفييف المستنقعات، وطرق التخلص من النفايات، وتوفير الخدمات الصحية، وغير ذلك من البرامج الوقائية والتنموية.

الكثير من هذه المشاريع نجحت وأعطت ثماراً طيبة، ولكن المراقبين كثيراً ما فوجئوا بأن السكان أحياناً لا يرحبون بمشاريع يفترض أن تصب في مصلحتهم، ما يؤدي إلى فشل تلك المشاريع. وهنا يأتي دور علماء

الأنتروبولوجيا التطبيقية الذين يعملون في المشاريع التنموية في البلدان المختلفة نسبياً تكنولوجياً واقتصادياً. يدرس هؤلاء العلماء البيئة الاجتماعية - الثقافية للمجتمعات المحلية ويوصون بأنواع المشاريع المناسبة لكل منها، كما يعملون على تشخيص أسباب فشل مشروع من المشاريع ويقترحون طرقاً لتلافي الفشل أو يطرحون مشاريع بديلة مناسبة أكثر لذلك المجتمع. هنالك أسباب عديدة يمكن أن تكمن وراء فشل مشروع من مثل تلك المشاريع منها إمكانية تناقض المشروع مع العادات والتقاليد أو مع المعتقدات المحلية، أو صعوبة توفير الصيانة الفنية للأدوات المستعملة في المشروع. أحياناً قد يخدم مشروع من المشاريع مصلحة فئة من المجتمع دون أخرى، كأن تكون لصالح الأغنياء دون الفقراء أو العكس، ما قد يثير معارضة إحدى الفئات للمشروع. في مثل هذه الحالات لا تكون المشكلة في التكنولوجيا وإنما في التركيبة الاجتماعية أو الثقافية لذلك المجتمع.

نورد فيما يلي عدداً من المشاريع التي واجهت صعوبات كتلك المذكورة أعلاه، وطلبت تدخلاً من قبل علماء الأنثروبولوجيا التطبيقية:

1. **حبوب الذرة المحسنة:** عندما يحاول موظف من وزارة الزراعة في دولة ما اقناع بعض المزارعين بزراعة بذور جديدة مطورة ومحسنة، فالمفروض أنهم سيقبلون ذلك خدمةً لمصالحهم. ولكن العكس كان صحيحاً في حالات حذلت في ولاية تكساس في الولايات المتحدة وكذلك في الهند وبعض بلدان أمريكا اللاتينية. في ولاية تكساس رفض المزارعون الفكرة، ولكن أحد المزارعين اقترح مازحاً أن يزرع بذور الذرة المطورة إذا تعهد موظف دائرة الزراعة بتعويضه عن خسارته إذا جاء متوج الحبوب الجديدة أقل من متوج الحبوب المستعملة لديهم تقليدياً. قرر الموظف المغامرة وتعهد بما طلبه المزارع. فزرع المزارع نصف حقله بالحبوب الجديدة والنصف الآخر بالقديمة. كانت تلك السنة سنة جفاف وكانت الحبوب المطورة محصنة ضد الجفاف، فكان متوجهاً أفضل بكثير من متوج الحبوب القديمة. رأى المزارعون ذلك فاقتربوا ولكن فقط بعد وجود البرهان القاطع. تجربة أخرى حصلت في ولاية نيومكسيكو في الولايات المتحدة سنة 1946، حيث



أنتجت الحبوب المطورة ثلاثة أضعاف متوج الحبوب التي كانت مستعملة سابقاً وخلال سنة كان حوالي ثلاثة أرباع المزارعين يستعملون الحبوب المطورة للزراعة. ولكن بعد سنتين كان الجميع قد عادوا إلى استعمال النوع القديم. وكان السبب أن ربات البيوت لم يحببن طحين الحبوب الجديدة إذ أن «عجينه» لم يكن متماسكاً جيداً ولم يحببن طعم طحين الحبوب الجديدة. وفي إحدى القرى الهندية تراجع استعمال الحبوب المطورة بعد أن وجد أهل القرية أن الأبقار لا تأكل التبن من نباتات الحبوب المطورة. وفي قرى أخرى في الهند فشلت محاولة لجعل أهل القرية يستعملون «روث» البقر كسماد بدلاً من استعماله كمحروقات لأن النار الهادئة من «روث» البقر كانت مفضilla عند النساء في تسخين الحليب وعمل السمن منه، وكذلك فضل الرجال نار «روث» البقر لإشعال الأراجيل.

2. استهلاك الحليب من قبل قبائل الزولو: كانت الظروف الصحية عند قبائل الزولو في جنوب تاتال في أفريقيا سيئة؛ كانت نسبة وفيات الأطفال مرتفعة جداً، وكانت علامات سوء التغذية بادية على أكثر من ثمانين بالمائة من السكان، الأمراض المتعلقة بسوء التغذية كثيرة الانتشار بين الأطفال، وكان هناك الكثير من أمراض التوبيركلوس والدزنتاريا. حاول أعضاء أحد المراكز الصحية دعوة أفراد القبائل إلى زيادة استهلاك كميات أكبر من البيض والحليب. لم يكونوا عادة يأكلون البيض إذ كانوا يحافظون على البيض لانتاج الصيصان، ويعتبرون أكل البيض من علامات الجشع. وكانت الفتيات اللواتي يأكلن البيض يعتبرن قليلات أدب. استطاع أعضاء المركز، من خلال حملة توعية صحية، رفع نسبة استهلاك البيض. ولكن مشكلة الحليب كانت أصعب. قبائل الزولو يربّون قطعان البقر ويتعزّزن بها كثيراً. كان الحليب لذلك متوفراً وكان الرجال يستهلكونه، ولكن وجود عدد من المعتقدات قلل من استعمال النساء للحليب، إذ كان يحرم على النساء أثناء فترة الحيض الاقتراب من الأبقار أو استهلاك الحليب. كانت هذه المعتقدات ذات جذور عميقه وقوية بحيث لم يستطع أعضاء المركز تحديها، مع أنهم كانوا يحرصون كثيراً على جعل النساء خصوصاً المرضعات



منهن، يستهلكن الحليب، وكادوا يقطعون الأمل من التغلب على هذه المشكلة، ولكن فجأة عثروا على حل سهل جداً وهو استعمال مسحوق الحليب المحفف. كان النّزولو يعرفون أنه مأخوذ من الحليب ولكنهم اعتبروه مختلفاً ولا تطبق عليه التحريمات التي تنطبق على الحليب العادي، وبذلك ارتفع استهلاك الحليب بينهم، ما أدى إلى انخفاض نسبة الأمراض الناتجة عن سوء التغذية.

3. حُفر لحفظ روث البقر: في قرى شمال الهند تقوم النساء بجمع روث البقر في كومة في جانب من ساحة البيت أو على مقربة منه. موظفو الصحة العامة العاملون في تلك القرى حاولوا إقناع أهالي القرى بوضع القمامنة وروث البقر في حفر على طرف القرية لاعتبارات صحية ما يحافظ على نظافة القرية ويحفظ لهم السماد بشكل أفضل. حُفرت الحُفر حول القرية ولكنها بقيت فارغة. مع أن نساء الطبقات العليا في تلك القرى يلمسن روث البقر وينظمنه في أكوام في ساحات بيوتهم ولكنهن يرفضن أن يُرين وهن يحملنه إلى طرف القرية، والرجال يرفضون عمل ذلك لأنه جزء من عمل النساء. وهكذا استمرت الطريقة التقليدية في تجميع «روث البقر» في ساحة البيت أو قربه.

4. استعمال المراحيض: في إطار برامج الصحة العامة في أماكن مختلفة من العالم جرى حض الناس على إنشاء المراحيض البيئية لاعتبارات صحية معروفة. في أوغندا مثلاً يعتقد الناس أن الشخص يجب أن لا يسمح للآخرين بمعرفة مكان وجود برازه لأن البراز يستعمل لأغراض السحر الأسود الذي يسبب الضرر لصاحبها. سبب آخر لرفض استعمال المراحيض موجود في بعض القرى في الهند إذ اعتادت النساء على الخروج إلى الحقول للتغوط. هذا أعطى النساء مجالاً للالتقاء في مجموعات مع صديقاتهن للتسامر وتبادل الأخبار. وهذا مهم بشكل خاص لنساء الطبقة العليا المحافظة، اللواتي تقتصر حياتهن على البقاء داخل البيت.

5. الحفاظ على سلامة الأدوات والآلات: بعض الآلات والأدوات الحديثة تدخل بعض المجتمعات المتأخرة تكنولوجياً وتكون مقبولة، ويكثر

استعمالها، ولكنهم بعد فترة يهجرونها ويعودون إلى الأدوات التقليدية، وذلك لأن المجتمع المحلي لا تكون لديه المعرفة الفنية والمهارات التكنولوجية لإصلاح تلك الآلات والأدوات والحفاظ عليها صالحة للاستعمال. من الأمثلة على ذلك، الآبار التي قامت شركة أمريكية بحفرها في لاوس. وكان السكان المحليون سعداء بتوفّر الماء من تلك الآبار ولكن بعد حوالي سنتين كانت تلك الآبار غير مستعملة وكان السبب هو عدم معرفة السكان المحليين بكيفية صيانة وإصلاح المضخات الضرورية لرفع الماء منها. فلما قامت تلك الشركة وقتها بتدريب بعض المحليين على صيانة المضخات وإصلاحها لكان المشروع أنجح بكثير.

6. **التجديد والبنية الاجتماعية:** بعض مشاريع التغيير والتجديد قد تكون لها آثار جيدة على فئة معينة في المجتمع دون غيرها، ما يشير حسد المجموعات غير المستفيدة وغضبتها. من الأمثلة على ذلك محاولة بناء الطرق الموصلة إلى بعض القرى في الهند. كانت الفكرة تقوم على إشراك سكان القرية في بناء الطرق المؤدية إليها. رحب أبناء الطبقة العليا بهذه المبادرة لأن الطرق الجديدة مكنتهم من إيصال منتوجاتهم الزراعية من الحبوب وقصب السكر إلى الأسواق في المدن. لم تكن هناك مصلحة هامة للفقراء وأبناء الطبقات الدنيا، إذ لم تكن لديهم عربات تجرّها الثيران لتسير على هذه الطرق، ولم تكن لديهم الكثير من المنتجات الزراعية التي يحتاجون إلى نقلها إلى الأسواق، فلم يكونوا متحمسين لبناء الطرق. وزاد من غضب الطبقات الدنيا أن أبناء الطبقة العليا استولوا على دور الإدارة والمراقبة في العمل الجماعي لأهل القرية بينما قام أبناء الطبقات الدنيا بالجهد الجسدي المتعب دون أي مردود مادي لهم.

أحياناً يكون أبناء الطبقة العليا هم الذين تزعجهم مشاريع التطوير والتجديد. في إحدى قرى المكسيك مثلاً قام معالج شعبي كبير وناجح بمعارضة إدخال عيادة طبية إلى القرية وأخذ ينشر الدعايات والإشاعات السيئة حولها مع أنه كان من المفترض أن تخدم العيادة جميع أبناء القرية. كذلك عندما قامت إحدى الجامعات بمشروع لنشر الديمقراطية والتوعية

الاجتماعية في إحدى القرى في بيرو ولكن حين رأى أفراد طبقة ملاك الأراضي أن المشروع كان ناجحا، خافوا من قيام ثورة بين العمال تحدد صالح ملاك الأرض فعارضوا المشروع وحاربوه.

علماء الأنثربولوجيا طبعاً ليسوا معصومين عن الخطأ، وقد يرتكبون أخطاء تضر بالمجتمع، ولكن التغيير الاجتماعي حادث لا محالة، خصوصاً في المجتمعات العالم الثالث. وإذا تردد عالم الأنثربولوجيا في تقديم الرأي فإن هناك دائماً كثيرين من هم مستعدون للإدلاء بآرائهم ومن يحاولون التأثير على سير الأمور وهم غالباً أقل علمًا ومعرفة بأمور المجتمع من عالم الأنثربولوجيا، وربما كانت لهم صالح وأهداف شخصية تؤثر على آرائهم أكثر مما لعالم الأنثربولوجيا، وربما كان عالم الأنثربولوجيا خير من يحاول التأثير في مسيرة التغيير الثقافي والاجتماعي لصالح أبناء المجتمع بشكل عام.



مفاهيم أساسية في الحقل

تطوير المجتمع المحلي (Community Development): العملية التي يتكاتف فيها أبناء المجتمع ويعملون من أجل إيجاد حلول للمشاكل المشتركة لذلك المجتمع.

مجاعة (Famine): نقص حاد جداً في المواد الغذائية نتيجة قحط أو كارثة.

أخلاقيات الحقل (Field Ethics): قوانين السلوك والممارسة المبنية على اعتبارات أخلاقية عند ممارسي مهنة من المهن مثل الطب.

سوء تغذية (Malnutrition): حالة مرضية ناجحة عند عدم الحصول على مقدار كافٍ من الغذاء لاستمرار الجسم بالقيام باليقظة الطبيعية.

الصحة العامة (Public Health): تشير إلى جميع الجهود المنظمة، الخاصة منها وال العامة، المقصود منها منع الأمراض وتحسين الأوضاع الصحية لجميع السكان، عن طريق توفير ظروف صحية جيدة للجميع وليس للمرضى فقط.

السحر الأسود (Black Magic): استعمال السحر أو القوى الخارقة لأهداف شريرة وأنانية، وهو من أقدم وأكثر أنواع السحر التي استعملها الإنسان.

نظام طبقات (Caste System): يتقرر انتماء الشخص فيه بالولادة.

أسئلة للنقاش والمراجعة

1. كيف يختلف علماء الأنثربولوجيا التطبيقية عن باقي علماء الأنثربولوجيا من حيث "أخلاقيات المهنة"؟
2. ما هو المنطق الذي يكمن وراء ظهور حقل الأنثربولوجيا التطبيقية؟
3. أحياناً يعود السبب في فشل المشاريع التنموية في التركيبة الاجتماعية أو الثقافية للمجتمع وليس للتكنولوجيا، فسر ذلك.
4. كيف تغلب علماء الأنثروبولوجيا على القيم المعاشرة لاستهلاك الحليب من قبل الإناث عند قبائل الزولو؟
5. أعط مثالاً من مجتمعنا على إفشال البنية الاجتماعية لبعض المشاريع التنموية.



الفصل الحادي والعشرون

الأنثربولوجيا الطبية

تعريف الأنثربولوجيا الطبية:

يحاول علماء الأنثربولوجيا الطبية استعمال مفاهيم حقل الأنثربولوجيا الأساسية، في فهم كيف يدرك المرضى أمراضهم وكيف يتعاملون معها، هم وأطهرهم الاجتماعية ومعاجلتهم، وكيف ترتبط معتقداتهم وممارساتهم الطبية بأطهرهم الاجتماعية والثقافية وتناسق معها.

أي أن الأنثربولوجيا الطبية لا تكتفى بمجتمع واحد، أو نظام صحي واحد، وإنما بقضايا الصحة على المستوى العالمي عبر المكان والزمان، مستعملة في ذلك أسلوب البحث الخاص بحقل الأنثربولوجيا وهو العمل الميداني والملاحظة بالمشاركة.

يعترف حقل الأنثربولوجيا الطبية بأهمية البيولوجيا في المرض، ولكنه يحاول أيضا فهم التفاعل بين البيولوجيا والثقافة والنظام الاجتماعي في تشكيل مظاهر المرض وكيفية علاجه، ولا يعترف باحتكار أي نظام صحي لفهم الأمراض أو لطريقة علاجها، وإنما تعتبر أي نظام صحي جزءاً من تراث المجتمع الذي نشأ فيه، وأنه يتأثر بنوع العلاقات الاجتماعية بين أفراد العائلة وبين الفئات والطبقات الاجتماعية وفي المجتمع ككل؛ أي أن الصحة هي ظاهرة بيولوجية - ثقافية - اجتماعية.

كيف ومتى ظهرت الأنثربولوجيا الطبية:

ظهر الاهتمام بالقضايا الصحية في حقل الأنثربولوجيا مع بدايات الحقل كأحد العلوم المهمة بالمجتمعات الإنسانية. سنة 1898 ذهب ثلاثة أطباء بريطانيون إلى أستراليا لإجراء الأبحاث حول السكان الأصليين فيها. وكانت تلك الرحلة واحدة من أوائل الرحلات الأنثربولوجية في تاريخ الحقل. وكان من بين المواد التي قاموا بجمعها حول السكان الأصليين معلومات تتعلق

بالمعتقدات والممارسات الطبية لديهم. كان أحد هؤلاء الأطباء يدعى ريفرز W.H.R. Rivers، ويعتبره الكثيرون اليوم مؤسس علم الأنثربولوجيا الطبية. حاول ريفرز في حينه استعمال المعلومات التي جمعها في تلك الرحلة لدحض ما كان يعتقده الكثير من الأطباء وغيرهم من الباحثين الغربيين من أن الطب الشعبي الذي تمارسه الشعوب غير الغربية هو عبارة عن ممارسات لا معنى لها ولا علاقة بينها، بينما كان ريفرز يعتقد، ويحاول إقناع الآخرين، بأنها تكون أنظمة متماضكة من المعتقدات والمعارف الثقافية حول طبيعة الأمراض وأسبابها. لقد دعمت الأبحاث التي أجريت منذ ذلك الوقت وجهة نظر ريفرز وأثبتت صدقها، ليس فقط بالنسبة لأنظمة الطب عند الشعوب البدائية بل أيضاً بالنسبة لنظام الطب الغربي الحديث. هذه النقطة الأخيرة حول نظام الطب الغربي أثارت، وما زالت تثير، الكثير من النقاش والجدل بين علماء الأنثربولوجيا الطبية. هنالك فئة تقول بأن الطب الغربي الحديث يستند إلى قوانين الطبيعة وإلى القواعد العلمية، ويجب استعماله كمعيار لتقييم مدى صلاحية، ونجاعة، أنظمة الطب التي تختلف عن الطب الغربي الحديث. الفئة الثانية ترى أن الطب الغربي الحديث في مفاهيمه وممارساته إنما يعكس الثقافة التي نشأ فيها ولا يختلف عن الأنظمة الطبية عند الشعوب الأخرى، وإن الكثير من الأفكار والممارسات في الطب الغربي لا تعتمد على المبادئ والقوانين العلمية فقط، وإنما تل JACK إلى الكثير من الأفكار والمعتقدات الموجودة أصلاً في الثقافة الغربية التي انبثق منها، فالبعض يرى أن الكثير من سلوك الطواقم الطبية في المستشفيات الغربية الحديثة، عند التحضير لإجراء عملية جراحية، لا حاجة طبية عملية لها وإنما هي طقوس ثقافية يقصد بها تقليل نسبة القلق، وزيادة الثقة بالنفس، عند أفراد الطاقم وعند المرضى وذويهم.

بدأ حقل الأنثربولوجيا الطبية بالظهور في البداية كجزء من الحركة الإستعمارية البريطانية في الثلاثينيات والاربعينيات من القرن العشرين، حيث أدخل الطب الغربي إلى المستعمرات البريطانية كجزء من محاولات الاستعمار لإدارة وضبط السكان الأصليين في المستعمرات.



مع تبلور الحقل بشكله النهائي بعد الحرب العالمية الثانية كفرع واضح ودائم ضمن حقل الأنثربولوجيا أصبح علماء الأنثربولوجيا الطبية يعملون كخبراء عمليين، وتطبيقيين في مؤسسات التنمية والصحة الدولية، وكمدرسين وباحثين وإداريين في الجامعات والدوائر الطبية، وعمل الكثير منهم بدور وسطاء ثقافيين لتسهيل دخول الطب الغربي الحديث إلى المجتمعات المتطورة، كما تأسست جمعيات ونقابات فرعية خاصة بعلماء الأنثروبولوجيا الطبية.

مثال على عمل علماء الأنثربولوجيا الطبية:

هناك نوع من البعوض يحمل نوعاً من مرض الحمى وينقله من شخص إلى شخص. هذا البعوض يعيش في المناطق الاستوائية وشبه الاستوائية من أمريكا الجنوبية وجزر البحر الكاريبي وجنوب شرق آسيا، ولكنه يتواجد أيضاً بشكل أقل في معظم بلدان العالم الأخرى. ويقدر الخبراء أن عدد من يقاومون من هذا المرض في جميع بلدان العالم يتراوح بين خمسين إلى مائة مليون سنوياً.

ينتقل هذا المرض عادة عندما تلسع البعوضة أحد المرضى ثم تنتقل لتلسع الأصحاء وتنقل المرض إليهم. سكان ماليزيا بشكل خاص يعانون كثيراً من هذا المرض. من أعراض هذا المرض عادة ألم شديد في المفاصل والمعدة والرأس وخلف العينين، مع موجات شديدة من ارتفاع درجة الحرارة والغثيان والتقيؤ، يرافقها عادة نزيف دم من الأنف والأمعاء وأعضاء الجسم الداخلية.

عدد من علماء الأنثروبولوجيا عملوا في إطار حملة لاحتواء هذا المرض ومنع انتشاره. بدأت الحملة في إحدى قرى هندوراس بتصميم استراتيجية تتضمن دراسة المعتقدات والممارسات الطبية التقليدية المتعلقة بهذا المرض في ذلك المجتمع، واستعمالها في حملة لمقاومة المرض فيه. تكونت الخطوة الأولى في المشروع من عمل مقابلات مكثفة وعميقة مع أفراد المجتمع حول ما يفكرون وما يعتقدون عن طبيعة المرض وعن وسائل وطرق انتشار ذلك المرض، وعن طرق الوقاية من ذلك المرض، وعن طرق التعامل معه

عند حدوثه. استعملت المعلومات التي جمعت بهذه الطريقة في حملة لتوسيع السكان بأساليب ومحفوظات مناسبة ومفهومة لهم حول الحشرة التي تنقل المرض وطرق مقاومتها وإبادتها. أثمر هذا المشروع، المناسب والحساس ثقافياً، بأن أدى إلى انخفاض ملحوظ في انتشار البعوض الذي ينقل العدوى وفي عدد الإصابات بالمرض.

فريق آخر من علماء الأنثروبولوجيا الطبية بنى على تجربة وإنجازات الفريق الأول في هندوراس، ونقلها إلى مجتمع محلی صغير في ماليزيا لمقاومة المرض نفسه وال虱ات ذاتها. قام هذا الفريق، كما فعل الفريق الأول، بدراسة توجهات ومعارف السكان المحليين والتعرف على أفكارهم ومعتقداتهم وممارساتهم المتعلقة بالمرض، وشكلوا مجموعات بؤرية مكونة من أرباب العائلات والقيادات المحلية لمناقشة الموضوع. فوجدوا أن المجتمع المحلي لا يعرف عن انتقال المرض بواسطة البعوض ولم يكونوا يربطون بين انتشار المرض وجود البعوض. ومع أن الناموسيات ومبيدات الحشرات كانت متوفرة لديهم فإنهم لم يكونوا يستعملونها. قام الفريق بتنظيم ورشات عمل دربوا فيها عدداً من المتطوعين على كيفية تقييم حاجات الأهالي لوسائل مقاومة المرض. استعمل الفريق المعلومات التي تم جمعها في تصميم وتطبيق استراتيجية، مناسبة ثقافياً وعملياً للقضاء على البعوض. نجح المشروع بخالقاً كبيراً وعزى أفراد الفريق نجاح المشروع إلى تقييمهم لاحتياجات المجتمع كما يراها المجتمع نفسه، وإلى الاستفادة من آراء وأفكار أفراد المجتمع في خطة القضاء على البعوض، وإشراك أفراد المجتمع في جميع خطوات المشروع.

ما الفائدة من حقل الأنثروبولوجيا الطبية؟

الإجابة على هذا السؤال هي أن الأنثروبولوجيا الطبية، باستعمال أساليب البحث الأنثروبولوجية التقليدية التي تعتمد على الانخراط في المجتمع لدراسة حياة الناس عن قرب، وفي إطارها الطبيعي، ودراسة جميع نواحي الحياة في الوقت نفسه، ومحاولتها فهم الحياة من وجهة نظر الناس الذين يعيشونها،

وبناظرة عملية تطبيقية إلى مشاكل الناس، يمكنها أن تترك أثراً كبيراً على المجتمع الإنساني ككل. ومع أن الحقل حقل عملٍ تطبيقي فإن الناحية النظرية لحقل الأنثربولوجيا الطبية تعالج أسئلة مثل: مالذي يقرر وجود المرض أو عدمه في المجتمعات المختلفة؟ كيف ولماذا تختلف المجتمعات عن بعضها في معتقداتها حول الأمراض وفي طرق معالجتها؟ وما الدور الذي تلعبه الثقافة في تقرير نتائج العلاج؟

هناك فكرة سائدة تقول: إن ما يدرسه الطلاب في الجامعات لا صلة له بالحياة اليومية العملية لباقي الناس في المجتمع، حقل الأنثربولوجيا الطبية يتحدى تلك الفكرة إذ أنه بالإضافة إلى ما يساهم به من معلومات نظرية في الصحة والمرض والعلاج، فإنه يساهم بطريقة عملية في الحياة اليومية للناس عن طريق حل المشاكل المتعلقة بالصحة ووضع الخطط للسياسات الصحية حول العالم. علماء الأنثربولوجيا الطبية لا يعملون جميعهم في التدريس في الجامعات، بل إن الكثيرين منهم يعملون في مشاريع عملية تطبيقية مبنية على فهمهم النظري لطبيعة الصحة والمرض وللعلاقة بين الثقافة والصحة، والتفاعل بين الشؤون الصحية والعلاقات الاجتماعية. بكلمات أخرى فإن علماء الأنثربولوجيا الطبية يستعملون فهمهم للقضايا الصحية لغرض تحسين حياة بني الإنسان.

علاقة الأنثربولوجيا الطبية بحقول أخرى:

يتكون حقل الأنثربولوجيا تقليدياً من أربعة حقول فرعية هي: الأنثربولوجيا الثقافية - الاجتماعية، والأنثربولوجيا الطبيعية (أو البيولوجية)، وعلم الآثار (الأركيولوجيا)، واللغويات.

وبينما ينظر البعض إلى حقل الأنثربولوجيا الطبية على أنه يكون حقلًا فرعيا خامساً ضمن علم الأنثربولوجيا، يرى آخرون أنه نقطة الالتقاء بين حقلين الأنثربولوجيا الثقافية والأنثربولوجيا الطبيعية، ويضم مواضيع منها لفهم قضايا الصحة والمرض والعلاج. فعند ثلاثة ترى أن الأنثربولوجيا الطبية هي نقطة التقاء الأنثربولوجيا النظرية بالأنثربولوجيا التطبيقية.



بعض النظر عن كيفية تعريفها فإن الأنثربولوجيا الطبية قد أصبحت أكبر فروع الأنثربولوجيا بعد الفروع الأربع الرئيسة المعروفة تقليدياً. إحدى نقاط النقاش بين العاملين في الأنثربولوجيا الطبية حالياً، هي مدى تطوير هذا الحقل الفرعى لنظرياته الخاصة به، مقابل افتراض للنظريات والأفكار الموجودة أصلاً في الفروع الأربع التقليدية للحقل.

تفاعل الأنثربولوجيا الطبية منذ بدايتها مع حقل الآثار، في محاولاتها لدراسة الأمراض التي وجدت عند الإنسان في الماضي خصوصاً في مرحلة ما قبل التاريخ، عن طريق دراسة العظام المتحجرة التي يستخرجها علماء الآثار من حفرياتهم الأثرية.

شارك علماء الأنثربولوجيا الطبية أيضاً في مشاريع الإحصاء الطبي (Epidemiology) التي تدرس أنماط وكيفية انتشار الأمراض مثل مرض «الإيدز».

ساهم علماء الأنثربولوجيا الطبية كذلك في دراسة ردود الفعل في المجتمعات الفقيرة والمتاخرة تكنولوجياً، على انتشار الأدوية والطب الحديث والأدواء الطبية وطرق العلاج الجديدة ومدى صحة استعمالها أو سوءه. عمل العديد من علماء الأنثربولوجيا الطبية أيضاً في دراسة الفروق في مدى انتشار الأمراض وفي إمكانية الحصول على العلاج عند الفئات المختلفة لنفس المجتمع مثل الفروق بين الطبقات الاجتماعية أو بين الريف والمدينة أو بين الجماعات الإثنية أو الدينية أو فروق السن أو الجنس، وفي دراسة أسباب وجود الفروق في انتشار الأمراض وفي توفر العناية الصحية عند هذه الفئات المختلفة، كذلك ساهم علماء الأنثربولوجيا الطبية في تصميم منهجية دراسات الإحصاء الطبي، ودراسات الصحة العامة والمجتمعية، خصوصاً تلك الدراسات التطبيقية التي يشارك في تنفيذها وتطبيقها أفراد الجماعات المحلية.

الأطر النظرية الرئيسة في حقل الأنثربولوجيا الطبية

علماء الأنثربولوجيا الطبية، كما هو الحال مع كل الحقول العلمية، يفهمون العالم بطرقهم الخاصة بهم، وأحد المؤثرات الرئيسة في كيفية نظر علماء الأنثربولوجيا الطبية إلى قضايا الصحة والمرض هو الإطار النظري أو المدرسة الفكرية التي ينظر العالم من خلالها إلى تلك القضايا. هنالك ثلاث مدارس فكرية رئيسة في حقل الأنثربولوجيا الطبية: المدرسة الأولى تشدد على قضية التوافق، وتعزف التوافق على أنه تغير في البيولوجيا أو في السلوك على مستوى الفرد أو المجموعة يساعد على البقاء في بيئه معينة، وتعتبر هذا المفهوم على أنه المفهوم المركزي في الحقل ككل. حسب هذا المفهوم تُعتبر الصحة على أنها المقياس لدرجة التوافق مع البيئة، أي أنه من وجهة نظر هذه المدرسة فإن النظام الطبيعي المتوفّر عند مجموعة ما، سواء كان طبًّا شعبيًا تقليديًا، أو علميًّا حديثًا، يمكن النظر إليه على أنه استراتيجية توافق ثقافية اجتماعية لتلك المجموعة.

المدرسة الثانية ترى أنه لا يجوز النظر إلى المرض والعلاج وكأنهما أجزاء من البيئة الطبيعية تتفاعل مع باقي الأجزاء بشكل أوتوماتيكي لا تحكم للإنسان فيها، بل يجب النظر إليها كحتاج ثقافي ملؤه بالرموز والمعاني الثقافية الموجودة عند المرضى والمعالجين، سواء في الطب الشعبي أو في الطب الغربي الحديث، وذلك ما يجب أخذه بعين الاعتبار من قبل علماء الأنثربولوجيا الطبية في دراساتهم.

المدرسة الثالثة ترى أن المدرستين السابقتين لا تأخذان بعين الاعتبار تأثير البناء الاجتماعي وال العلاقات الاجتماعية، في دراساتهم للصحة والمرض، وطرق انتقال الأمراض والوقاية منها وإمكانيات الحصول على العلاج والدواء، ولا تأخذان بعين الاعتبار كيف يحافظ توزيع المرض والوقاية والعلاج بدورها على استمرار الفروق الاجتماعية الموجودة في المجتمع.

مفاهيم أساسية في الحقل

نظام صحي (Health System): نظام مكون من الناس والمؤسسات والمصادر، التي توفر خدمات صحية لتفويت الحاجات الصحية، لمجموعة من الناس في مجتمع معين.

طب شعبي (Folk Medicine): مجموع المعرف والمهارات والممارسات المبنية على نظريات ومعتقدات وتجارب موجودة أصلاً في ثقافة من الثقافات وتستعمل للحفاظ على صحة أبناء المجتمع ولتشخيص الأمراض والوقاية منها.

أعراض (Symptoms): أية إشارات أو دلائل ذاتية أو موضوعية تشير إلى وجود خلل أو مرض في جسم الكائن.

الحركة الاستعمارية (Colonialism): السياسة أو الممارسة من قبل دولة غنية أو قوية لمد سلطتها على بلد آخر خصوصاً عن طريق بناء المستعمرات واستغلال المصادر.

وسطاء ثقافيون (Cultural Mediators): أشخاص يتدخلون عند التفاعل بين أشخاص من ثقافتين مختلفتين ليوضحوا ممارسات ومعتقدات كل فريق للفريق الآخر.

مرض فقد المناعة (AIDS): مرض طويل المدى يمكن أن يؤدي إلى فقدان حياة المريض، سببه فيروس يسبب نقص المناعة عند الإنسان، ويعطل مقدرة الجسم على محاربة الكائنات التي تسبب الأمراض.

إحصاء طبي (Epidemiology): هو الحقل المعنى بدراسة أسباب حدوث الأمراض ومدى انتشارها، وتطبيق تلك الدراسات لمنع الأمراض والمشاكل الصحية.

أسئلة للنقاش والمراجعة

1. أعط تعريفاً قصيراً لحقل الأنثربولوجيا الطبية؟
2. كيف اختلفت وجهة نظر ريفرز حول الطب الشعبي عن غيره من علماء الأنثربولوجيا الأوائل؟
3. إلى أي درجة تعتقد أن الطب الحديث يعكس الثقافة الغربية المعاصرة؟
وضح جوابك بأمثلة.
4. كيف تختلف نظرة علماء الأنثربولوجيا الطبية إلى المرض عن نظرة الأطباء العاديين؟
5. ما العلاقة بين حقل الأنثربولوجيا الطبية وعلم الآثار؟



مدخل إلى علم الإنسان

إن علم الإنسان يدرس «الإنسان» في كل زمان وكل مكان، وليس كما يعتقد البعض بأنه يدرس الإنسان القديم، أو الثقافة البدائية، أو شعوب العالم الثالث، أو الشعوب المستعمرة. ويدرس أيضاً تطور الإنسان وطرق تواافقه بيولوجياً وثقافياً عبر الزمان والمكان.

ظهر علم الإنسان أولاً في أوروبا ثم في أمريكا الشمالية، ثم انتشر إلى باقي بلدان العالم. إلا أن مفهوم الحقل في أمريكا كان دائماً أوسع بكثير منه في أوروبا. فعلم الإنسان في أوروبا بشكل عام يقتصر على الأنثربولوجيا الاجتماعية - الثقافية، بينما علم الإنسان بالمفهوم الأمريكي يضم، بالإضافة إلى الأنثربولوجيا الاجتماعية - الثقافية، كلاً من الأنثربولوجيا الطبيعية والأركيولوجيا واللغويات وعدداً من الفروع الأخرى التي ظهرت في مراحل لاحقة. الكتاب الذي بين أيدينا يتبنى التعريف الأمريكي للحقل، بأشمل أشكاله، وهو لذلك يشمل فصولاً عن الأنثربولوجيا النفسية والأنثربولوجيا السياسية والأنثربولوجيا الاقتصادية وغيرها من فروع الأنثربولوجيا.



ISBN 978-9957-39-194-2



9 789957 391942

الأردن، عمان، وسط البلد، بناية 12، وبنية 34
ص. ب 7855 هاتف 00962 6 4638688
فاكس 00962 6 4657445 منشورات 2018

S H A R I F K A N A A N A

كتاب

مدخل إلى

علم الاجتماع

شريف كتابة



**مدخل إلى
علم الإنسان**





الأهلية للنشر والتوزيع

e-mail: alahlia@nets.jo

الفرع الأول (التوزيع)

المملكة الأردنية الهاشمية، عمان، وسط البلد، بناية 12

هاتف 00962 6 4638688 ، فاكس 00962 6 4657445

ص. ب: 7855 عمان 11118، الأردن

الفرع الثاني (المكتبة)

عمان، وسط البلد، شارع الملك حسين، بناية 34



مدخل إلى علم الإنسان / دراسات

شريف كناعنة / فلسطين



الطبعة الأولى، 2018

حقوق الطبع محفوظة



All rights reserved. No part of this book may be reproduced in any form or by any means without the prior permission of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة، لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب
أو أي جزء منه، بأي شكل من الأشكال، إلا بإذن خطّي مسبق من الناشر.

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية: 2017/7/3589

الترقيم الدولي: ISBN 978-9957-39-194-2

325891

c. 2

Digitized by

مدخل إلى

علم وألسنان

SPC

♦ شريف كناعنة ♦

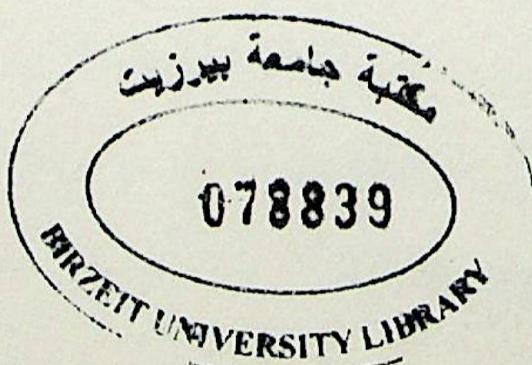
GN

31.2

K35

2018

B2U



161638



666



المحتويات

7.....	تصدير
الفصل الأول: حقل الأنثربولوجيا – نظرة عامة.....	11.....
الفصل الثاني: الخلفية التاريخية لنشوء علم الإنسان	23.....
الفصل الثالث: النظريات الرئيسية في علم الإنسان	31.....
الفصل الرابع: أساليب البحث في علم الإنسان	47.....
الفصل الخامس: آليات التطور	57.....
الفصل السادس: الأعراق.....	67.....
الفصل السابع: التركيبة الداخلية لمجموعة الرئيسيات.....	77.....
الفصل الثامن: الحياة الاجتماعية للرئيسيات	85.....
الفصل التاسع: كيفية تصنيف الإنسان	93.....
الفصل العاشر: مراحل التطور البيولوجي لأجداد الإنسان	
الحديث.....	103.....
الفصل الحادي عشر: مراحل التطور الثقافي لأجداد الإنسان	
الحديث.....	109.....
الفصل الثاني عشر: ظهور الحضارات.....	121.....
الفصل الثالث عشر: الزواج والعائلة.....	133.....
الفصل الرابع عشر: اللغة.....	149.....
الفصل الخامس عشر: التغيير الثقافي.....	159.....



الفصل السادس عشر: الأنثربولوجيا الدينية.....	167
الفصل السابع عشر: الأنثربولوجيا النفسية.....	175
الفصل الثامن عشر: الأنثربولوجيا السياسية.....	185
الفصل التاسع عشر: الأنثربولوجيا الاقتصادية.....	195
الفصل العشرون: الأنثربولوجيا التطبيقية.....	207
الفصل الحادي والعشرون: الأنثربولوجيا الطبية.....	215



تصدير

جاء هذا الكتاب نتيجة لتجربتي في تعليم مساق «مدخل إلى علم الإنسان» في عدد من الجامعات الفلسطينية لفترة لا تقل عن 35 سنة. وأعتقد أنني كنت أول من أدخل هذا الحقل إلى جامعة فلسطينية، وذلك سنة 1975. والمهم ذكره هنا هو أنني لم أ عشر، طوال تلك الفترة، على مصدر مقبول ، باللغة العربية، لتدريس ذلك المساق، بل كنت أجمع عدداً من الفصول والمقالات باللغة العربية من مصادر مختلفة، وأترجم بعضها من مصادر أجنبية. وكنت دائماً أطمح إلى تأليف مصدر يفي بالغرض، ولكنني لم أجده الوقت والجهد الكافيين لتلبية ذلك الطموح إلا بعد بلوغ مرحلة التقاعد، قبل سنوات قليلة.

أثناء تحضيري لهذا الكتاب أخذت بعين الاعتبار، طبعاً، تمكين الأستاذ من إيصال المعلومات المفروض إيصالها إلى الطلبة في مساق «مدخل إلى علم الإنسان» وتمكينهم من الحصول على تلك المعلومات بأبسط الطرق وأكثرها فائدة. بناء على ذلك فقد راعيت في تحضير الكتاب عدداً من الاعتبارات التي قد تهم الأستاذة أو الطلبة أو الطرفين معاً، منها:

1. أن علم الإنسان يدرس «الإنسان» في كل زمان وكل مكان، وليس كما يعتقد البعض بأنه يدرس الإنسان القديم، أو الثقافة البدائية، أو شعوب العالم الثالث، أو الشعوب المستعمرة. ويدرس أيضاً تطور الإنسان وطرق توافقه بيولوجيًّا وثقافياً عبر الزمان والمكان.

2. ظهر علم الإنسان أولاً في أوروبا ثم في أمريكا الشمالية ثم انتشر إلى باقي بلدان العالم. إلا أن مفهوم الحقل في أمريكا كان دائماً أوسع بكثير منه في أوروبا. فعلم الإنسان في أوروبا بشكل عام يقتصر على الأنثropolجيا الاجتماعية – الثقافية، بينما علم الإنسان بالمفهوم الأمريكي يضم، بالإضافة



إلى الأنثربولوجيا الاجتماعية – الثقافية، كلاً من الأنثربولوجيا الطبيعية والأركيولوجيا واللغويات وعدهاً من الفروع الأخرى التي ظهرت في مراحل لاحقة. الكتاب الذي بين أيدينا يتبنى التعريف الأمريكي للحقل، بأشمل أشكاله، وهو لذلك يشمل فصولاً ليس فقط عن الأنثربولوجيا الطبيعية والأركيولوجيا، بل أيضاً، فصولاً عن الأنثربولوجيا النفسية والأنثربولوجيا السياسية والأنثربولوجيا الاقتصادية وغيرها من فروع الأنثربولوجيا حسب التعريف الأمريكي.

3. لم أتبع، عند ذكر فكرة ما في الكتاب، تاريخ تطور تلك الفكرة، أو الجدل والنقاش الذي يمكن أن يكون قد دار حولها في تاريخ تطورها، وإنما قدمت صيغة واحدة لكل فكرة، وهي الصيغة التي أعتقد أنها أكثر قبولاً على العاملين في الحقل في الوقت الحاضر.

4. المادة الموجودة في الكتاب تمثل ما أعتقد أنه القاسم المشترك الأكبر بين العاملين في الحقل في جميع نواحي العالم، ولا تختص بشعب ما أو مجتمع ما، ولذلك فإني لم أدرج أمثلة واقعية من أي مجتمع محدد لتوضيح النقاط النظرية الواردة في الكتاب، بل تركت ذلك للأساتذة والطلبة في المقام لاختيار أمثلة تطبيقية من مجتمعاتهم، كي لا أحصر صلاحية الكتاب للتدرис في مجتمع واحد أو ثقافة واحدة.

5. حاولت استعمال لغة بسيطة وواضحة، وجمل قصيرة وغير معقدة قدر الإمكان، لكن ليس إلى الدرجة التي أضحت فيها بالمحتوى العلمي للمادة.

6. حاولت جعل الفصول قصيرة وشاملة قدر الإمكان كي يبقى الكتاب قصيراً بحيث يمكن إنتهاء الكتاب كله في فصل أكاديمي واحد، أي ما يقارب فصلاً ونصف من الكتاب لكل أسبوع من أسابيع الفصل الدراسي، ليأخذ الطالب فكرة شاملة عن الحقل ككل ويستطيع عند انتهاء الفصل الدراسي اتخاذ قرار عقلاني فيما إذا كان يريد التخصص لاحقاً في هذا الحقل.



7. معرفة المصطلحات الأساسية في الحقل باللغة الإنجليزية ضرورية لكل من يريده متابعة دراسة هذا الحقل، ولذلك وضعت المصطلحات الرئيسية بالإنجليزية بعد العربية مباشرة في متن الكتاب ووضعت تعريفاً دقيقاً وموجزاً لكل مصطلح في نهاية الفصل الذي يظهر فيه المصطلح وليس في آخر الكتاب كي لا يحتاج الطالب إلى العودة إلى نهاية الكتاب أثناء المطالعة.

8. وضعت مجموعة مكونة من خمسة أسئلة في نهاية كل فصل. هذه الأسئلة عريضة أو مفتوحة ولا يقصد منها أن تستعمل كأسئلة امتحان، وإنما لمراجعة مادة الفصل بكل من قبل طلاب المساق وحدهم أو بمساعدة أستاذ المادة.

9. استعمال هذا الكتاب لا يتطلب من الطلبة أية معرفة سابقة بالحقل، ويفترض أن يحضر الطلبة للتمكن من القراءة في مصادر متقدمة في علم الإنسان.

10. كل فصل من فصول الكتاب يكون وحدة متكاملة ومستقلة نسبياً بحيث يمكن لمدرس المادة أن يغير ترتيب الفصول إذا رأى حاجة لذلك.

بقي أن أقول إن ما جاء في هذا التقدم لا يعني أن المؤلف يعتقد بأن الكتاب قد بلغ درجة الكمال، بل إنني مستعد لتقبل أي نقد أو تعليق يأتيني من الأساتذة أو الطلبة الذين يستعملون هذا الكتاب من أجل مزيد من التطوير والتحسين في طبعات لاحقة.

ولا يفوتي في ختام هذا التصدير أن أتوجه بالشكر الجزييل إلى طلابي وطالباتي الذين درستهم مساق "مدخل إلى علم الإنسان" خلال أربعة عقود في جامعتي بيرزيت والنجاح، حيث كان هذا الكتاب هو حصيلة تلك التجربة.

وكذلك فإنني أتقدم بالشكر الخاص لطالبات النجيبات بحلاء بركات، ونور



صالحية، ورشا الحسن، لدورهن في الطباعة والتنضيد والإشراف الفني لهذا الكتاب، كماأشكر الصديق طارق حميدة على مراجعته اللغوية للكتاب.



الفصل الأول

حقل الأنثروبولوجيا: نظرة عامة

الغرض من هذه الوحدة هو أن نوضح للقارئ ما هو علم الإنسان (الأنتربولوجيا) وما الذي يقوم به علماء الإنسان.

يدرس هذا العلم كائناً واحداً هو الإنسان. وقد جاء الاسم (Anthropology) من اللغة اليونانية. وهو مركب من مقطعين: (Anthropos) وتعني الإنسان، والمقطع الثاني (logia) ويعني العلم أو الدراسة. ويدور هذا العلم حول دراسة نوع واحد هو الإنسان (Homo Sapiens) وهذا يشير إلى أن جميع بني الإنسان «نوع» (Species) واحد. ويضم هذا النوع عدداً من الأجناس أو الأعراق (Races).

نسعى في دراستنا هذه إلى التعرف على هذا النوع، «الإنسان»، كيف وصل إلى ما هو عليه الآن، وما هي مقدراته وإنجازاته. مع أن علماء الإنسان يعتبرون هذا العلم حقلًا واحداً متكاملاً ومتماساً إلا أنه علم واسع جداً، ما أدى إلى تقسيمه إلى عدة فروع من أجل الإحاطة بجميع نواحيه.

يُقسم علم الإنسان إلى فرعين رئисين هما: الأنثربولوجيا الثقافية والأنتربولوجيا الطبيعية.

القسم الرئيس الأول من أقسام علم الأنثربولوجيا هو الأنثربولوجيا الطبيعية، وهي تدرس الناحية الجسدية البيولوجية لبني الإنسان، أي النوع المسمى «الإنسان العاقل»، (Homo Sapiens)، كما تدرس تطور هذا النوع من بدايته حتى الوقت الحاضر. الإنسان فرع من الرئيسيات والتي هي فرع من الثدييات. تضم الرئيسيات (Primates)، بالإضافة إلى الإنسان، كلاً من القردة العليا (Apes) والقردة السفلية (Monkeys). لذلك فالأنثربولوجيا الطبيعية تدرس الرئيسيات ككل وتحتم بالإنسان بشكل خاص.



بالنسبة للرئيسيات تدرس الأنثربولوجيا الطبيعية مواضيع عدّة منها:

1. متحجرات الرئيسيات بأنواعها، لاكتشاف ترتيب ظهورها في الطبقات الجيولوجية والحقب الزمنية.

2. الصفات والمميزات التشريحية المقارنة لأنواع الرئيسيات الموجودة في الوقت الحاضر.

3. سلوك أنواع الرئيسيات في بيئتها الطبيعية، لفهم التفاعل وال العلاقات الاجتماعية بين أفراد كل نوع.

4. القيام بتجارب مخبرية على أفراد من أنواع المختلفة من الرئيسيات ومن أنواع أخرى من الحيوانات.

5. كذلك تدرس الأنثربولوجيا الطبيعية الفروق الجسدية البيولوجية للإنسان بشكل خاص؛ حيث جميع بني الإنسان في الوقت الحاضر هم من نوع واحد (Species)، وجميع الأجناس (Races) الإنسانية قادرة على التزاوج وعلى إنجاب خلف قادر على التكاثر، ولكن توجد بين هذه الأجناس فروق موروثة بعضها ظاهر واضح وبعضها غير ظاهر للعيان، ولكن يمكن التعرف عليه بالدراسة والبحث. فعلماء الأنثربولوجيا الطبيعية لا يدرسون فقط الفروق الظاهرة مثل لون الجلد ولون الشعر، بل ويهتمون أيضاً بدراسة فئات الدم والفروق البيوكيماوية المختلفة، كما يدرسون الأمراض التي تنتقل بالوراثة الجينية، والقابلية الوراثية للأمراض المختلفة، والمناعة الموروثة لبعض الأمراض. وهم يدرسون أيضاً أنماط النمو وعلاقتها بأنواع الغذاء وبالتوافق مع البيئات المختلفة.

وتقسم الأنثربولوجيا الثقافية بدورها إلى ثلاثة فروع رئيسة هي: اللغويات (Linguistics)، وعلم الآثار (Archaeology)، والإثنولوجيا (Ethnology). ويأتي المنطق في تقسيم الحقل إلى قسمين، ثقافي وطبيعي، من حقيقة أنَّ الإنسان له جسم أو تركيبة بيولوجية، وله ثقافة تميّزه عن الكائنات الأخرى. الثقافة (Culture) كما قلنا تميّز بني الإنسان عن باقي الكائنات، ولا توجد أية مجموعة إنسانية أو مجتمع بدون ثقافة. فالثقافة مهمة في تعريف الإنسان ودراسته وفهمه. لذلك، وجب علينا، أن نعرف ما هي الثقافة.



الثقافة: تشير إلى السلوك المتعلم والمنمط والمشترك بين أفراد مجتمع من المجتمعات. ومن المهم أن نذكر أنّ هذا السلوك متعلم، أي ليس موروثاً بالجينات ولا يولد مع الإنسان كجزء من تركيته الوراثية، وأنّ كلّ بني الإنسان لديهم ثقافة يكتسبونها بالتعلم بعد الولادة. ولا تقتصر الثقافة على الشخص «المثقف» كما يستعمل الناس هذا الاصطلاح في حديثهم العادي. بالإضافة إلى القول بأنّ جميع بني الإنسان لديهم «ثقافة»، يمكن الحديث عن «ثقافات» الشعوب أو المجتمعات المختلفة مثل ثقافة «الأسكيمو» أو ثقافة «زنجو أستراليا». هنا «ثقافة» تعني أسلوب حياة تلك الجماعة؛ أي مجموع أنماط السلوك المتعلمة المنقولة من جيل إلى جيل عن طريق اللغة و/أو التقليد والمحاكاة، عند شعب أو مجتمع معين. من هذه التعريفات نستطيع أن نستخرج عدداً من صفات الثقافة أو مميزاتها، من مثل:

1. أنّ الثقافة متعلّمة، أي لا تنتقل أو تورث بالجينات. علينا أن نلاحظ هنا أنّ مقدرة الإنسان أو قابليته لاكتساب الثقافة موروثة بالجينات. أمّا محتويات الثقافة فهي موروثة اجتماعيّاً. أي أنها تنتقل من جيل إلى جيل من خلال اللغة و/أو التقليد ولا يخترع كل جيل ثقافته من جديد، ولكن يمكنه أن يضيف إليها قليلاً.
2. أنّ الثقافة مشتركة بين أفراد المجتمع، وهذا يمكن أفراد المجتمع من التفاهم والتفاعل والتعايش.
3. جميع بني الإنسان لديهم ثقافة؛ أي لديهم أسلوب حياة متعلم ولا توجد أيّ مجموعة إنسانية تعيش بالغريزة.
4. أنّ الثقافة منمّطة أي مكونة من أنماط، أي أنّ كلّ جزء منها ينتظم في إطار نظام أكبر، وكل نظام ينتظم في إطار نظام أكبر، حتى نصل إلى مستوى الثقافة كلّها. فالثقافة متراقبة ومنظمة وعلاقة جزئياتها بعضها ليست عشوائية بل منطقية وعضوية. فمن أنظمة الثقافة مثلاً: اللغة، الدين، نظام الطعام، نظام الملابس... الخ.
5. أنّ الثقافة ثابتة نسبياً؛ أي لها استمرارية عبر الزمان ولا تتغير كلّها



فجأة بل تتطور تدريجياً بحيث تحافظ على تمسكها وعلى شخصيتها ونكتتها الخاصة.

ونقدم فيما يلي تعريفاً مختصراً بفروع الأنثربولوجيا الثقافية:

1. اللغويات (Linguistics): هي دراسة اللغات.

جميع أنواع الحيوانات لها أساليب اتصال. ونحن نلاحظ أنّ الأصوات والحركات التي تصدرها الحيوانات تؤثر في سلوك الحيوانات الأخرى من أبناء النوع نفسه، ولكن لا يوجد أيّ كائن آخر له أسلوب اتصال رمزي ومعقد مثل لغة الإنسان. وهذا النظام الرمزي المعقد هو الذي يخول الإنسان نقل الثقافة من جيل إلى جيل، وبذلك يوصل تراث الأجيال الماضية إلى الجيل الحاضر ويضمن حفظه لينتقل إلى الأجيال التالية فيما بعد. ليس جميع دارسي اللغة هم من الأنثروبولوجيين، ولكن عدداً من علماء الأنثربولوجيا يختصون بدراسة اللغة. وهم يدرسون اللغة لأنّها إحدى أهم أنماط الثقافة ولأنّ الثقافة تنتقل من جيل إلى جيل بوساطة اللغة، وكذلك لأنّ دراسة أيّ مجتمع تتطلب معرفة لغة ذلك المجتمع لجمع المعلومات من أبنائه.

2. الإثنولوجيا والإثنوغرافيا: تهتم الإثنولوجيا والإثنوغرافيا بدراسة الثقافات المعاصرة. الإثنوغرافيا: هي في العادة دراسة وصفية موسعة لثقافة واحدة. أما الإثنولوجيا فهي دراسة تحليلية مقارنة تعالج قضية أو مشكلة نظرية معينة عن طريق مقارنة المتغيرات المطروحة في المشكلة في عينة كبيرة من الثقافات.

3. علم الآثار، الأركيولوجيا (Archaeology): الأركيولوجيا علم يختص بدراسة الثقافات التي كانت موجودة في وقت ما في الماضي ثم اختفت أو بادت، بعكس الإثنولوجيا التي تدرس الثقافات الموجودة في الوقت الحاضر. ويقال أحياناً إنّ الأركيولوجيا تدرس ثقافات ما قبل التاريخ (Prehistoric).

Cultures). والمتفق عليه أنّ التاريخ بدأ مع اختراع الكتابة ومن ثم وجود الوثائق المكتوبة. ولكن هذا القول ليس دقيقاً؛ لأنّ علماء الآثار يعتمدون عادة على البقايا المادية مثل الأدوات الحجرية أو الفخارية أو المصنوعة من العظم أو العاج أو غير ذلك من المواد التي تبقى مدة طويلة، والكثيرون منهم يعتمدون، بالإضافة إلى ذلك، على الوثائق المكتوبة إذا توفّرت، كما هو الحال مثلاً في دراسة حضارات مصر القديمة، وحضارات ما بين النهرين، وحضارات أمريكا الوسطى. علينا أيضاً أن نلاحظ أنّ مرحلة ما قبل التاريخ لم تنته في جميع نواحي العالم في الوقت نفسه، فبينما عرفت الكتابة وتوفّرت الوثائق المكتوبة في الشرق الأوسط قبل حوالي خمسة آلاف سنة (أي 3000 سنة ق.م) فهناك بعض الثقافات التي لا تعرف الكتابة حتى هذا اليوم.

الأنثروبولوجيا والحقول الأخرى التي تدرس الإنسان:

أولاً: الأنثروبولوجيا الاجتماعية – الثقافية وعلم الاجتماع:

يشترك الحقلان، الأنثروبولوجيا الاجتماعية – الثقافية، وعلم الاجتماع، بأن الحقلين يهتمان بالمجتمع الإنساني، بسلوك الإنسان ضمن جماعات، وبشبكة العلاقات الاجتماعية، مع ذلك هنالك فروق بين ممارسة الأنثروبولوجيا وممارسة علم الاجتماع. وينبع الفرق بشكل رئيس من الفرق بين المجتمعات التي يدرسها كل من الحقلين:

1. علم الاجتماع اهتم، بشكل استثنائي تقريباً، بدراسة نوع واحد من المجتمعات؛ المجتمعات الصناعية الغربية في أوروبا وأمريكا، واهتم كل عالم اجتماع بدراسة المجتمع الذي عاش فيه. علم الإنسان، من الجهة الأخرى، اهتم بدراسة المجتمعات البدائية والمجتمعات الفلاحية.

2. نتج عن الفرق بين نوعي المجتمعات التي اختص بها كل من الحقلين فروق في أساليب جمع البيانات وتحليلها. علماء الاجتماع اعتمدوا كثيراً على استعمال الاستثمارات والوسائل الأخرى الصالحة لجمع البيانات الكمية القابلة للقياس أو للعد، كما اعتمدوا على تحليل البيانات بالأساليب الكمية



والاحصائية.

3. علماء الاجتماع اقتصرت أبحاثهم على المجتمعات التي يكون المبحوثون فيها قادرين على القراءة والكتابة بحيث يستطيعون ملء الاستمرارات وإعادتها بالبريد. علماء الأنثروبولوجيا، من الجهة الأخرى، عملوا غالباً مع مجتمعات أميّة أو شبه أميّة وهي بشكل عام مجتمعات صغيرة وبسيطة يعكس المجتمعات الصناعية الكبيرة والمعقدة التي عمل فيها علماء الاجتماع.

4. عالم الأنثروبولوجيا أثناء عمل البحث، يعيش عادة داخل المجتمع، مع السكان المحليين، بحيث يمكن من مراقبة سلوكهم اليومي وحياتهم الاجتماعية العاديّة، ويجمع المعلومات بالتعرف عليهم بشكل شخصي وإقامة علاقات صداقة، وبذلك يتعرف على ما يعملون ومع من يلتقيون وكيف يتفاعلون معهم. هذه الطريقة في البحث الإثنوغرافي تعرف باسم «الملاحظة بالمشاركة» (Participant Observation) بحيث يشارك الباحث في النشاطات التي يراقبها ويحللها. ابتداءً من عقد السبعينيات من القرن العشرين، أخذ العلماء من الحقول يقتربون من بعضهم في أساليب وأدوات البحث التي يستعملونها ونوع المجتمعات التي يدرسونها، ولكن الحقول ما زالاً منفصلين ومستقلين عن بعضهما في الكثير من أساليب البحث والتحليل.

ثانياً: علم الاقتصاد والعلوم السياسية:

حقل الاقتصاد وحقل العلوم السياسية فرعان من العلوم الاجتماعية ولكن يختص كل منهما بمنطقة واحدة ضيقة من سلوك بني الإنسان، يعكس علم الإنسان الاجتماعي - الثقافي الذي يشمل كل نواحي سلوك الإنسان. كذلك فإن علمي الاقتصاد والعلوم السياسية يميلان عادة إلى دراسة المجتمعات الصناعية الحديثة.

الاقتصاد والسياسة عند الشعوب البدائية والفلاحية، التي اعتاد علماء الإنسان على دراستها، لا يبرزان عادة كنواحٍ خاصة من السلوك التي يمكن دراستها بشكل مستقل عن باقي نواحي الحياة كما هو الحال في المجتمعات

الحديثة التي يدرسها علم الإنسان. النشاطات السياسية والاقتصادية عند الشعوب البدائية تندمج عادة ضمن الحياة الاجتماعية العادلة للمجتمع؛ فعند المجتمعات البدائية لا توجد عادة حكومات ولا سلطات مركبة وإنما تمارس السلطة من خلال علاقات القرابة أو من خلال الأدوار الاجتماعية المبنية على الجنس أو السن. وهذه تحكم بالمصادر المتوفرة للمجتمع وكيفية منع أو احتواء الخلافات بين أفراد المجتمع.

ثالثاً: علم الإنسان وعلم النفس:

كما هو الحال مع العلوم الاجتماعية الأخرى هناك بعض التداخل بين الدراسات النفسية والدراسات الأنثروبولوجية، إذ إنها جميعاً تهتم بسلوك الإنسان في إطار المجتمع. وكما هو الحال مع العلوم الاجتماعية التي ذكرناها حتى الآن فإن علم النفس أيضاً يميل إلى دراسة المجتمعات التي يعيش فيها علماء النفس أنفسهم.

وقد أخذ بعض علماء الأنثروبولوجيا دراسات أجراها علماء النفس في مجتمع واحد، ووضعوها في إطار مقارن، ومن أهم تلك الدراسات تلك المعروفة باسم «الثقافة والشخصية». كذلك تعاون بعض علماء الأنثروبولوجيا وعلماء النفس والأطباء النفسيين (Psychiatrists) في دراسات أساليب تربية الأطفال وتكون الشخصية في المجتمعات غير الغربية.

مارجريت ميد (Margaret Mead) مثلاً في دراستها لمجتمع غينيا الجديدة (New Gunea) وساموا (Samoa) وغيرها من المجتمعات، أظهرت كيف أن المجتمعات المختلفة تختلف في حكمها على ما هو طبيعي وما هو مقبول، كما تختلف أيضاً في أنواع الشخصيات التي تنتجها تلك الثقافات. هكذا فإن علماء الأنثروبولوجيا الذين يدرسون «الشخصية والثقافة» وضحوا كيف أن الثقافات المختلفة التي تبني أنماط قيم مختلفة ترى أطفالها بطرق وأساليب مختلفة وبذلك تنتج أنواع شخصيات مختلفة. علماء آخرون حاولوا إثبات أن العوامل الاقتصادية في ثقافة ما تؤثر في نوع الشخصيات التي تنتجها تلك الثقافة.



هنا لك فرق آخر بين علم الإنسان وعلم النفس وذلك في نظرهما إلى الفرد، فعلم النفس يدرس الفرد كفرد أما عالم الأنثربولوجيا في درس الفرد كممثل للثقافة التي ينتمي إليها، كي يصل في النهاية إلى تعميمات عن الثقافة ككل.

رابعاً: حقل الأنثربولوجيا وحقل التاريخ:

الأنثربولوجيا والتاريخ حقول يدرسان التغير عبر الزمن إلا أنهما ينظران إلى التغير بطريقتين مختلفتين؛ التاريخ يدرس التغير عبر الزمن من خلال الأفراد وأثرهم في المجتمع، يدرس الحكام والقادة والعظام والمشاهير. التاريخ ينظر إلى التغير وكأنه تغير في الأشخاص مع بقاء النظام الثقافي – الاجتماعي ثابتاً. علم الإنسان يدرس الأفراد ليس من أجل ذاتهم كأفراد أو كممثلين للنظام الثقافي الاجتماعي. النظام الثقافي – الاجتماعي قد يكون مستقرًا لفترة ما ثم يتغير لأسباب مثل التغير في البيئة الطبيعية، أو لظهور احتيارات جديدة، أو للتغير في العلاقات مع المجتمعات المجاورة. هذا النوع من التغير يكون أقرب إلى التطور، أي أن علماء الإنسان يهتمون بتطور المجتمعات أكثر من اهتمامهم بتغير وتبدل الأشخاص وهم عادة لا يعرفون أفراداً محددين من المجتمعات القديمة التي يدرسونها.



مفاهيم أساسية في الفصل

علم الإنسان حقل الأنثروبولوجيا (Anthropology): علم يدرس الإنسان ككائن بيولوجي وثقافي واجتماعي.

إنسان (Homo Sapiens): النوع الذي تنتهي له جميع أجناس الإنسان منذ بداية ظهور الإنسان.

نوع (Species): مجموعة من الكائنات لا تنجب أفراداً قادرين على التكاثر إلا بالتزاوج بين أفرادها ضمن ذلك النوع.

عرق (Race): فرع رئيس من بني الإنسان له صفات بيولوجية مميزة، وقابلة للتوارث عبر الأجيال.

لغويات (Linguistics): علم يدرس اللغات من حيث تركيبها، وطبيعتها، وتاريخها، وتطورها، وعلاقتها ببعضها.

علم الآثار (Archaeology): فرع من فروع علم الإنسان، يختص بدراسة الثقافات البائدة عن طريق الحفريات واستعادة البقايا المادية.

إثنولوجيا (Ethnology): دراسة نظرية، تحليلية، لعدد كبير من الدراسات الوصفية الإثنографية.

ثقافة (Culture): مجموع أساليب التوافق المتعلم، والمشتركة، لمجتمع من المجتمعات.



ما قبل التاريخ (Prehistory): مرحلة ما قبل ظهور الكتابة.

اثنографيا (Ethnography): دراسة وصفية مفصلة لثقافة أو مجتمع عن طريق الملاحظة بالمشاركة.

الرئيسيات (Primates): العائلة من الفرع من الكائنات الذي يضم الليمور والتارزير والقردة العليا والسفلى والإنسان.

القردة العليا (Apes): فرع من الرئيسيات يضم الشمبانزي والغوريلا والبونابو والأورانجutan والجيبيون.

الوراثة الجينية (Genetic Inheritance): هي الوراثة البيولوجية عن طريق الجينات، تمييزاً لها عن الوراثة الاجتماعية عن طريق التعلم.



أسئلة للنقاش والمراجعة

1. ما هو المنطق الذي يكمن وراء تقسيم علم الأنثروبولوجيا الى فرعين رئيسين؟
2. هل مقدرة الإنسان على المشي على قدمين جزء من الثقافة؟ برّر الجواب.
3. اذكر ووضح ثلاثةً من صفات الثقافة؟
4. كم نوعاً (Species) من بني الإنسان يوجد في العالم اليوم؟ برّر الجواب.
5. الأنثروبولوجيا والتاريخ حقلان يدرسان التغيير عبر الزمن إلا أنهما ينظران إلى التغيير بطريقتين مختلفتين. اشرح وقارن.



الفصل الثاني

الخلفية التاريخية لنشوء علم الأنثربولوجيا

نماج في هذا الفصل تسلسل الاكتشافات المادية والثقافية والنظرية التي أددت بمجموعها إلى ظهور وتبور حقل علمي جديد هو علم الإنسان . (Anthropology)

بدأت جذور الأنثربولوجيا بدراسات وصفية لشعوب وثقافات، كتبها بعض الرحالة القدماء الذين اطّلعوا على شعوب وثقافات غير شعوبهم وثقافاتهم، فلفتت الفروق في أساليب الحياة والعادات والتقاليد أنظارهم، فاستهجنوها وكتبوا عنها يصفونها. كان من بين هؤلاء رحالة يونان ورومان وعرب. وقد قلت مثل هذه الكتابات في أوروبا عند دخولها مرحلة الخمول في العصور الوسطى أو «المظلمة»، كما قلت عند العرب مع تراجع أو انحسار الإمبراطورية الإسلامية في القرنين الرابع والخامس عشر. عاد حب الاستطلاع والاهتمام بالثقافات الأخرى بين الأوروبيين مع اكتشاف الأمريكتين والتعرف على الثقافات الغريبة لسكانهما الأصليين من الهند والهنود الحمر. ورافق ذلك اكتشاف الأوروبيين لعلوم وحضارات اليونان والرومان القدماء والتي كان العرب قد حافظوا عليها وطوروها وترجموها إلى اللغة العربية. فقام الأوروبيون مع بداية عصر النهضة الأوروبية بترجمتها من العربية ودراستها. وتزامن هذا مع اكتشاف الطباعة، مما سهل وسرع في انتشار هذه المعارف بين الأوروبيين. وتبع ذلك اكتشاف الأوروبيين لجزر المحيط الباسفيكي ولبقاء أخرى من العالم لم تكن معروفة لهم سابقاً، مما عرف الأوروبيين على المزيد من الثقافات المختلفة، وزاد من وعيهم لتأثير الثقافة على سلوك بني الإنسان. وتزامن ازدياد المعرفة عن شعوب وثقافات العالم، مع ازدياد المعرفة بالعمق الزمني الطويل لوجود بني الإنسان على الأرض. وببدأ البعض يتحدثون عن إمكانية تطور الإنسان جسدياً وثقافياً. وكان



معظم الأوروبيين في القرن التاسع عشر ما زالوا يعتقدون أنَّ عمر الأرض وعمر وجود بني الإنسان عليها لا يزيد عن ألف قليلة من السنين لا تزيد في أقصى حد عن ستة آلاف سنة، وكان هناك اعتقاد واسع بين الأوروبيين بأنَّ آدم وحواء خُلقاً سنة 4004 ق.م. ففي ذلك الوقت لم يكن معروفاً إلا القليل جداً عن علم طبقات الأرض (Geology).

كانت الرحلات الاستكشافية للأوروبيين قد أحضرت إلى أوروبا عينات عديدة من أنواع غريبة من الحيوانات والنباتات التي لم تكن مألوفة لديهم سابقاً، وهذه زادت من اهتمام الأوروبيين بالدراسات المقارنة بين أنواع الحيوانات وأنواع النباتات من أماكن مختلفة من العالم وتبسيب الكائنات المختلفة ومحاولة اكتشاف العلاقات بينها. وفي هذه المرحلة، أي في القرن الثامن عشر، جرى لأول مرة تصنيف الإنسان مع القردة العليا ضمن «الرئيسيات» (Primates). وقد جاء هذا التصنيف بناءً على التشابه الجسدي بين الإنسان والقردة العليا. ولكن لم يفترض العلماء في ذلك الوقت أنَّ الرئيسيات كلّها، بما فيها الإنسان، تعود إلى جد واحد مشترك وأنَّ التطور سبب الانقسام بين هذه الأنواع، وإنما كان يفترض أنَّ الأنواع المختلفة التي جرى تصنيفها وُجِدت بشكلها الحالي منذ بداية الخليقة كما خلقها الله في البداية. ولكن كان هناك في القرن الثامن عشر عدد قليل من العلماء ومنهم العالم الفرنسي لامارك Jean Lamarck الذي عاش من 1744-1829، والبريطاني إرasmus Darwin الذي عاش من 1731-1802، وهو جد تشارلز داروين Charles Darwin صاحب نظرية التطور التي طرحها في كتابه «أصل الأنواع» والتي ما زالت النظرية الأكثر قبولاً عند العلماء حتى الوقت الحاضر. وزادت كذلك في القرن الثامن عشر المعرفة في علم طبقات الأرض (الجيولوجيا) وذلك لأنَّ الثورة الصناعية أدّت إلى حفر الكثير من المناجم والقنوات وخطوط السكك الحديدية، وتوصّل المهندسون إلى أنَّ طبقات الأرض المختلفة تتميز بأنواع مختلفة من المتحجرات، وأنَّ الطبقات الوسطى تكونت في مرحلة أقدم من الطبقات التي فوقها. كذلك عرفوا أنَّ طبقات الأرض تكونت وما زالت

ت تكون و تتشكل نتيجة تأثير العوامل الطبيعية مثل الرياح والمياه والتغير في درجات الحرارة والانحرافات وتحلل المواد العضوية وغير ذلك.

وقد كتب العالم الانجليزي تشارلز ليل Charles Lyell في السنوات 1830-1833 كتاباً من ثلاثة مجلدات اسمه *مبادئ علم الطبقات* (*Principles of Geology*) وأصبح هذا الكتاب مصدراً هاماً لنشوء وتقديم علم الجيولوجيا، وكان له تأثير كبير في تفكير داروين وفي تشكيل نظرية التطور.

ازداد عدد الذين أصبحوا يطرحون فكرة التطور مع ازدياد المعرفة عن الكائنات المختلفة في الأزمنة السحيقة، والتي أخذت المعلومات عنها تتکاثر وتتجمّع من خلال ازدياد أعداد المتحجرات المكتشفة في طبقات الأرض فقد اكتشفت في القرن الثامن عشر الكثير من المتحجرات لحيوانات غريبة بائدة، وكان بعضها موجوداً برفقة بعض بقايا الإنسان، فمثلاً وُجدت سنة 1715 بقايا حيوان يشبه الفيل قرب لندن، ووُجدت بالقرب من هذه البقايا أدوات حجرية من صنع الإنسان. وفي سنة 1771 اكتشفت في ألمانيا بقايا إنسان قديم ومعها عظام دبٌ من نوع لم يعد موجوداً. وفي عام 1848 اكتشفت في جبل طارق عظام إنسان ذات شكل بدائي. كما اكتشفت بقايا هيكل بدائي لبني الإنسان من غار في ألمانيا اسمه «نياندر» (*Neander*) في وادٍ في ألمانيا يحمل نفس الاسم، وهذا أعطانا فيما بعد اسم «الإنسان النياندرتالي» أو (*Neanderthal Man*). وقد نظر في حينه إلى هذه البقايا، خصوصاً الجمجمة، على أنها جمجمة إنسان مريض، أي لديه مرض أدى إلى تشويه شكل ججمته، ولذلك لم يجر اهتمام كبير بها. أمّا الآن فقد أصبح الإنسان النياندرتالي يُعدُّ فرعاً من نوع الإنسان العاقل أي مثل الإنسان الحديث «الإنسان العاقل العاقل» (*Homo Sapien*) (*Sapien Neanderthal*). فيسمى «الإنسان العاقل النياندرتالي» (*Homo*)، سنة 1859 نشر «داروين» كتابه الشهير «أصل الأنواع» أي كتاب (*On the Origin of Species*)، الذي قدم فيه العديد من الأدلة على حدوث التطور عند الكائنات العضوية، واقتصر في مفهوم «الانتقاء



ال الطبيعي» لتوضيح الكيفية أو الآلية التي من خلالها أو بواسطتها يحدث التطور. وبعد ظهور هذا الكتاب بسنوات قليلة نشر «جريجور مندل» (Gregor Mendel) عدداً من المقالات عن تجاربه، والتي أصبحت فيما بعد حجر الأساس في علم الوراثة (Genetics). وكان كتاب أصل الأنواع تعلق بتطور الكائنات بشكل عام، ولكن «داروين» عاد فنشر سنة 1871 كتاباً آخر بعنوان (The Descent of Man) خصّصه كلياً لتطور الإنسان. وقد أحدثت كتابات «داروين» تحولاً جذرياً في تاريخ العلوم الاجتماعية والحياتية. سنة 1891 اكتشفت أجزاء جمجمة في جزيرة جاوا في إندونيسيا، وفي سنة 1920 اكتشفت أجزاء من هيكل عظمي في بكين، وظهر أن كلّيّهما أجزاء من أفراد مرحلة من مراحل أجداد الإنسان النيندريثالي، امتدّت بين قبل مليوني حتى 300 ألف سنة، وأعطيت تلك المرحلة اسم الإنسان القائم أو المنتصب (Homo Erectus).

في عشرينيات القرن الماضي (القرن العشرين) اكتشفت متحجرات أخرى لبقايا أجداد الإنسان في جنوب أفريقيا، وظهر أنها تعود إلى مرحلة أقدم من مرحلة الإنسان المنتصب تمتّد من حوالي 5 ملايين إلى مليوني سنة وسميت مرحلة (Australopithecus) أي «قرد الجنوب». بالإضافة إلى دراسة مراحل تطور الإنسان البيولوجية، اهتم علماء القرن التاسع عشر بمحاولة التعرّف على مراحل تطور ثقافة بني الإنسان، وكان عالم دنمركي اسمه كريستيان طومسون (Christian Thomsen) أول من وضع تقسيماً للمراحل الثقافية إلى ثلاثة عصور: الحجري ، والبرونزي، والحديدي. وكان ذلك في أوائل القرن التاسع عشر. وجاء بعد ذلك تقسيم العصر الحجري إلى مراحلتين: العصر الحجري القديم والعصر الحجري الحديث. وأطلق في هذا الوقت اسم «ما قبل التاريخ» على جميع العصور التي سبقت استعمال الكتابة. واهتم الكثيرون في القرن التاسع عشر بدراسة «ما قبل التاريخ» (Prehistory) أي الأركيولوجيا أو علم الآثار، واحتضن هذا العلم بدراسة الثقافات الإنسانية البائدة في مراحل ما قبل التاريخ، فجرى الكشف عن الكثير من حضارات الشرق الأوسط القديم في الهند وإيران وتركيا وما

بين النهرين (العراق) ومصر. ونجح هؤلاء العلماء في تحليل رموز ولغات هذه الحضارات وفهمها من الوثائق المكتوبة التي اكتشفوها في أواخر القرن التاسع عشر ظهر بعض العلماء، مثل ادوارد تايلور (Edward Tylor) ولويس مورجان (Lewis Morgan) الذين حاولوا تجميع وتنسيق المعلومات التي كانت معروفة في حينه عن تطور ثقافة الإنسان، وقاموا بوضع بعض التعميمات وتقسيم تاريخ تطور ثقافة الإنسان إلى مراحل تتناسب مع المراحل التي كان قد وضعها علماء الآثار. وكانت دراسات هؤلاء العلماء تعتمد كثيراً على الظن أو التحزيز في ترتيب مراحل التطور الثقافي، ولذلك عُرفت طريقة عملهم بالمدرسة «التاريخية» أو «التطورية» أو «مدرسة التاريخ الظني» أو «مدرسة التطور وحيد الاتجاه» Unilineal Evolutionism.

جاءت ردة الفعل على النظريات «الظنية» لهذه المدرسة في أوائل (1858-1942) القرن العشرين على يد بواز Boas ومن بعده في الولايات المتحدة. كان رأي بواز أن الأنثropolوجيا في ذلك الوقت لم تكن ناضجة بعد إلى الحد الذي تستطيع معه إعطاء صورة متكاملة لتطور ثقافة الإنسان، وأن الحاجة في حينه كانت ما زالت ماسة إلى جمع أكبر مقدار ممكن من المعلومات الإثنوغرافية المفصلة من جميع نواحي العالم، أي أن التشديد في الأنثropolوجيا الأمريكية في ذلك الحين كان على الأبحاث الميدانية وليس على بناء النظريات. بعد معارضة بواز ونقده للمدرسة التطورية ظهرت العديد من المدارس والاتجاهات، منها «المدرسة الانتشارية» Diffusionism و«الوظيفية» Functionalism، «البنائية» Structuralism .

كما عادت المدرسة التطورية إلى الانتعاش بعد سنة 1930 ولكن بشكل التطوري متعدد الاتجاهات Multilineal Evolutionism. ومدارس أخرى غيرها.



مفاهيم أساسية في الفصل

العصور المظلمة (Dark Ages): اصطلاح يطلق على العصور الوسطى في أوروبا، وهي تزامن مع مرحلة ازدهار الحضارة العربية - الإسلامية.

السكان الأصليون (Natives): اصطلاح يطلقه علماء الأنثropolوجيا على السكان في المجتمعات البدائية التي يدرسونها، وفيه معانٍ البساطة والجهل والتخلف.

الهنود الحمر (American Indians): السكان الأصليون الذين كانوا يعيشون في الأمريكتين عند دخول الرجل الأبيض إليهما، ويرجح أنهم دخلوها من سيبيريا قبل حوالي 20 ألف سنة.

تطور جسدي (Biological Evolution): تطور الصفات البيولوجية الموراثة عن طريق الجينات، والناتجة عن تأثير الانتقاء الطبيعي على الطفرات.

تطور ثقافي (Cultural Evolution): التطور في السلوك المكتسب للإنسان، والمورث اجتماعياً عن طريق التعلم والمشاهدة.

لامارك (Jean Lamark): عالم حيوان فرنسي صاحب أول نظرية تطور، وتعتمد على فكرة «الإهمال والاستعمال»، وعلى فكرة وراثة الصفات المكتسبة.

داروين (Charles Darwin): صاحب نظرية التطور التي ما زالت سائدة، والتي تعتمد على تأثير الانتقاء الطبيعي على الطفرات.

نظرية التطور (Theory of evolution): النظرية التي تحاول تفسير التغير البيولوجي المستمر للكائنات من البسيط إلى الأكثر تعقيداً.

أصل الأنواع (On The Origin of Species): كتاب داروين الذي

ظهرت فيه لأول مرة نظرية التطور، وما زالت سائدة حتى الآن.
الثورة الصناعية (Industrial Revolution): المرحلة من القرن الثامن عشر وحتى القرن العشرين، التي بدأ فيها اعتماد بعض الشعوب على الصناعة كطريقة تואفق رئيسية.

متحجرات (Fossils): البقايا المتحجرة لأنواع كائنات قديمة بقيت محفوظة في التربة أو في الصخور.

الإنسان النيandرتالي (Neanderthal Man): نوع من الإنسان العاقل، عاش أثناء العصر الجليدي الثالث والرابع، وانقرض قبل 40-50 ألف سنة مع ظهور الإنسان الحديث (العقل - العاقل).

الإنسان المنتصب (Homo Erectus): نوع من أجداد الإنسان عاش بين 2 مليون - 300 ألف سنة وانقرض مع ظهور الإنسان النيandرتالي.

قرد الجنوب (Australopithecus): من أجداد الإنسان، عرف من 5 مليون . 2 مليون سنة، كانت جسمته صغيرة، ويمشي على اثنين.

التطور وحيد الاتجاه (Unilineal Evolution): نظرية التطور الثقافي التي سادت أثناء القرن التاسع عشر وكانت تقول بمرور جميع ثقافات العالم في ثلاث مراحل متتابعة وهي الوحشية، والبربرية، والحضارة.



أسئلة للنقاش والمراجعة

1. ماذا كان دور العرب في النهضة الأوروبية في نهاية العصور الوسطى؟

2. ما هي نقطة الضعف الرئيسية في نظرية لامارك حسب علماء الوقت الحاضر؟

3. هل انتهى عصر ما قبل التاريخ؟ متى، وأين، ولماذا؟

4. كيف جاء اسم «مدرسة التاريخ الظني» وماذا كانت ردود الفعل عليها؟

5. كيف جاء اسم مدرسة «التطور وحيد الاتجاه» وماذا كانت ردود الفعل عليها؟

الفصل الثالث

النظريات الرئيسية في علم الانسان

ظهر حقل الأنثربولوجيا، كما ذكرنا في الفصل الثاني من هذا الكتاب، في بلدان غرب أوروبا، وبالذات في إنجلترا وفرنسا. سادت في أوروبا في حينه مدرسة فكرية انبثقت عن التراث التوراتي وكانت تقول بأن الشعوب البدائية المتوحشة، مثل الهنود الحمر في أمريكا، انحدرت من حضارات كانت سابقاً أعلى وأرقى منها وأصابها تقهقر وانحطاط.

إدوارد تايلور (Edward B. Tylor) (1832-1917) البريطاني، والذي يعتبر مؤسس حقل الأنثربولوجيا عاش وعمل في تلك الفترة. قال تايلور إنه، يعكس ذلك، فإن جميع الأدلة تشير إلى أن الأدوات الأقدم هي الأبسط، وأنه كان هناك تطور ثقافي، من الأبسط إلى الأكثر تعقيداً، عبر ثلاثة عصور وهي: الوحشية (Savagery)، والبربرية (Barbarism)، والحضارة (Culture). وكان تايلور أول من استعمل مصطلح «ثقافة» (Culture) بالمعنى الأنثربولوجي الحديث، وعرف الثقافة بأنها، ذلك الكل المعد الذي يضم المعرفة، والمعتقدات، والفن، والأخلاق، وبوضع هذا التعريف كان تايلور قد حدد مادة علم جديد، هو علم «الأنثربولوجيا الثقافية». كان من أوائل المشاكل التي عالجها علماء الأنثربولوجيا منذ بداية الحقل، مشكلة التشابه بين بعض الثقافات بعيدة عن بعضها جغرافياً. كان إدوارد تايلور يقول إن التطور الثقافي سار، منذ البداية، في خطوط متشابهة لدى الثقافات المختلفة، في أماكن مختلفة من العالم. وكان تايلور يعتقد أن التشابه بين الثقافات في مناطق مختلفة جاء نتيجة عمل عقول بني الإنسان تحت ظروف متشابهة. أي إنه نتيجة تشابه عقول بني البشر، عبر اللغات والأعراق، فإنهم عندما يواجهون بمشاكل متشابهة، يخرجون بحلول متشابهة. كان تايلور واعياً لوجود تفسير آخر للتشابه بين الثقافات وهو «الانتشار» (Diffusion) أي انتقال الجزئيات الثقافية من ثقافة إلى أخرى، وكان يرى



أن محتويات كل ثقافة تجتمع عن طريق الاختراعات المتشابهة والانتشار، في الوقت نفسه، وأنه ليس من السهل معرفة أي العمليتين تكمن وراء وجود نمط ثقافي معين، ولكنه كان يهتم أكثر بعملية التطور المتوازي بين الثقافات. كان مورغان (Lewis Henry Morgan 1818-1881) أيضاً من الشخصيات الهاامة في تطوير حقل الأنثربولوجيا في القرن التاسع عشر. كان مورغان محامياً يعيش في ولاية نيويورك، وكان مهتماً بقبائل الهندو-الحمر الموجودة في تلك الولاية، وكان من أوائل من نشروا دراسات كاملة وموسعة حول قبيلة هندية. كان مورغان مهتماً بشكل خاص بتطور العلاقة بين نظام القرابة من جهة والمؤسسات السياسية والاقتصادية من جهة أخرى، عند قبائل الهندو-الحمر. كان تايلور قبل ذلك قد قسم تاريخ تطور المجتمعات الإنسانية إلى ثلاث مراحل هي: الوحشية، والبربرية، والحضارة. اتفق مورغان مع تايلور على هذا التقسيم ولكنه ذهب أبعد منه بأنّ قسم كلاً من المراحلين الأولى والثانية إلى ثلاث مراحل فرعية: دنيا، ووسطى، وعلياً. وقال مورغان إن المجتمعات الإنسانية عاشت أثناء مرحلة الوحشية الدنيا على الفواكه بدون استعمال النار، واستعملوا القوس والنشاب في المرحلة العليا. في مرحلة البربرية الدنيا دخلت صناعة الفخار، وفي المرحلة الوسطى جرى تدجين الحيوانات في العالم القديم، وزراعة الذرة في أمريكا، وظهر استعمال الأدوات الحديدية في العليا. في مرحلة الحضارة ظهر استعمال الأبجدية والكتابة.

أثناء الفترة التي عمل فيها تايلور ومورغان لم يكن حقل الأركيولوجيا قد قطع شوطاً كبيراً، ولكنه كان يشير إلى أن الثقافة تطورت من البسيط إلى الأكثر تعقيداً. حقل التاريخ كان أيضاً ما زال محدوداً، وكان يتعاطى بشكل رئيس مع المجتمعات الأوروبية الحديثة. كان المصدر الرئيس الذي اعتمد عليه مؤسسو حقل الأنثربولوجيا في القرن التاسع عشر، في بناء مراحلهم التطورية، هو التقارير التي كانت تصلهم عن الشعوب والقبائل غير الغربية، التي كانت تعتمد على أساليب مختلفة من التوافق من أجل البقاء، مثل إستراتيجية الصيد والجمع أو البستنة أو الزراعة. فكانوا مثلاً يأخذون

أفكارهم عن العصر الحجري القديم من السكان الأصليين في أستراليا، وعن العصر الحجري الحديث من بعض قبائل الهنود الحمر، وكان هناك الكثير من الجماعات التي كانت ما زالت تعتمد على الصيد والجمع. بهذه الطريقة بني مورغان مراحله للتطور الثقافي من التقارير الإثنوغرافية، إضافة إلى بعض الظن والخيال والتحزير.

من مثل هذه الدراسات التي قام بها تايلور ومورغان وغيرهم، في القرن التاسع عشر، جاء نمط الدراسات المقارنة في حقل الأنثربولوجيا. امتازت المراحل المختلفة، حسب رأي مورغان، كلّ بنوع مختلف ومتىز من نظام العائلة ونظام القرابة. ومع أن أفكار مورغان لقيت الكثير من النقد والمعارضة، إلا أن الأكثريّة الساحقة من المشغلين في حقل الأنثربولوجيا، في أواخر القرن التاسع عشر، كانوا يقبلون آراء مورغان، وكان الرأي السائد لديهم هو أن المجتمع الإنساني في بداياته لم يكن لديه أية أساليب ضبط للعلاقات الجنسية، وظهر بعض الضبط فيما بعد، في إطار زواج الجماعة، أي بين مجموعتين من الجنسين. وبما أنه لم يكن من الممكن للطفل، في هذه الحالة، معرفة الأب البيولوجي، فإن مفهوم «أب» كان ينطبق على جميع الذكور من الجيل السابق في المجموعة ككل، كذلك كان مفهوم الأم ينطبق على جميع الإناث من الجيل السابق. وعندما دخل نظام القرابة في خط واحد كانت علاقات القرابة من جهة الأم فقط، إذ أن الطفل يعرف دائماً من هي أمه. مع مر الزمن تحولت الحمائل والقبائل الأمومية إلى حمائل وقبائل أبوية عندما أصبح هناك علاقات ثابتة ومستمرة بين كل وحدة مكونة من ذكر وأنثى، وعندما سادت فكرة الملكية الخاصة. هكذا كان الزواج بين فردين، واحد من كل جنس، كما كان الحال في العالم الغربي في القرن التاسع عشر، يعتبر أعلى درجة في تطور نظام العائلة. وبما أن نظام القرابة والعائلة الأمومية جاءت قبل الأبوية فإنه من المتوقع أن نجد في النظام الأبوبي بعض بقايا النظام الأمومي، ولكن العكس ليس صحيحاً. وقد استعمل هذا المنطق في إثبات أن النظام الأمومي سبق النظام الأبوبي تاريخياً، عن طريق مقارنة أنظمة العائلة والقرابة في مجتمعات على مستويات



مختلفة من التطور، حسب المراحل التي وضعها تايلور ومورغان.

المدرسة الانتشارية Diffussionism

ظهرت في أواخر القرن التاسع وأوائل العشرين مدرسة نظرية أخرى بالإضافة إلى التطورية، وهي المدرسة الانتشارية، والتي شددت على أهمية الانتشار في تفسير التشابه بين الثقافات المختلفة. انقسمت الانتشارية إلى فرعين: بريطاني وألماني. كانت المدرسة الانتشارية البريطانية ترى أن معظم مكونات الثقافات العالية ظهرت أولاً في مصر ثم انتقلت منها إلى أماكن مختلفة من العالم. فإذا وجدت الزراعة، وصناعة الفخار، وبناء الأهرامات في الأمريكتين، فإنهم اعتقادوا أن ذلك يعني أن المصريين أو شعوباً أخرى على اتصال بالمصريين، كانوا قد وصلوا إلى الأمريكتين، وقد بُنيت أفكارهم على افتراضهم أن معظم شعوب العالم ليست خلقة، وأن الاختراعات المتوازية نادرة جداً. أفكار هذه المدرسة لم تعد موجودة في الأنثربولوجيا الحديثة. أما المدرسة الانتشارية الألمانية فكانت تجمع بين الأفكار الانتشارية والتطورية. كان أصحاب هذه الدراسة يشتّرون مع الانتشارية البريطانية بالاعتقاد بأن معظم شعوب العالم ليست خلقة، وكانوا يشكّون بوجود الكثير من حالات التطور المتوازي. كانوا كذلك يعتقدون أن مركبات كبيرة ومعقدة من الثقافة يمكن أن تنتقل ككل إلى ثقافات بعيدة جغرافياً، فكانوا مثلاً يربطون بين ثقافة جزر ميلانيزيا وبين ثقافة العصر الحجري الحديث في أوسط أوروبا، إذ كانت مخططات البيوت لدى الطرفين متتشابهة، كما كان لدى الطرفين صناعة فخار وصناعة فؤوس متتشابهة.

بدايات العمل الميداني

ثلاثة علماء كان لهم الفضل في وضع اللبنات الأولى في علم الأنثربولوجيا الحديث، وهم فرانز بواز (Franz Boas) (1858-1942)، وبرونسلو مالينوفسكي (Bronislaw Malinowski) (1884-1942)، ورادcliffe براون (A.B.Radcliffe Brown) (1881-1955). كان هؤلاء الثلاثة



أنثربولوجيين أكاديميين، ومهنيين، ومدرسين جامعيين، ومدرّبين بحيل جديد من الأنثربولوجيين. بواز مالينوفسكي بدءاً في حقل الفيزياء وحصل كلّ منها على شهادة الدكتوراه فيها. نشأ بواز درس في ألمانيا، أما مالينوفسكي فقد نشأ درس في بولندا، ولكن الاثنين كتباً معظم إنتاجهما الأكاديمي بالإنجليزية، وكان لعملهما أثر كبير في الأوساط الأكademie في أمريكا وإنجلترا. وقد اختلف هذان الاثنان عمن سبقهما من علماء الأنثربولوجيا بكثرة ما قاما به من العمل الميداني. كان بعض علماء الأنثربولوجيا السابقين قد قاموا ببعض العمل الميداني ولكن لفترات قصيرة ولم يعيشوا مع السكان الأصليين الذين درسواهم في مجتمعاتهم. كان بواز ومالينوفسكي ورادركليف - براون أساتذة ناجحين يتمتعون بالمحبة والولاء من قبل طلابهم الذين كانوا يكلفونهم بالعمل الميداني. كان بواز كثيراً ما يحذّر من أن الكثير من الثقافات البدائية كانت مهددة بالاختفاء تحت تأثير الثقافة الغربية، وأن على الأنثربولوجيين أن يوثقوا تلك الثقافات قبل اختفائها. وكان مالينوفسكي شديد الحماس لأسلوب الملاحظة بالمشاركة، التي ينغمّس فيها الباحث بالحياة اليومية للناس الذين يدرسهم، وذلك ما فعله مالينوفسكي نفسه في جزر تروبرياند في ميلانيزيا. وقد شدد كلّ من بواز ومالينوفسكي على أهمية تعلم لغة السكان الأصليين من أجل فهم الثقافة كما يمارسها ويفهمها أهلها.

فرانز بواز (Franz Boas): جاءت أول وأقوى ردة فعل للنظريتين التطورية والانتشارية في القرن التاسع عشر، من قبل بواز وتلاميذه. ولد بواز سنة 1858 في ألمانيا، وفيها تربى وعاش درس وحصل على شهادة الدكتوراه في الفيزياء. قام بواز بأول عمل ميداني له بين الأسكيمو سنة 1883-1884. كان بواز قد تأثر بفكرة تحكم الجغرافيا بشّافة الأسكيمو. توصل بواز من بحثه هذا إلى القناعة بأن الجغرافيا لا تشكل الثقافة، وإنما تضع حدوداً لها، أي تحدد الإمكانيات المتوفرة أمامها. فالأسكيمو لديهم تاريخ وتراث طويلاً، ويعملون أشياء كثيرة لا تتطلبها أو تميلها البيئة، وثقافتهم تختلف



كثيراً عن ثقافات شعوب أخرى تعيش تحت ظروف بيئية مشابهة، مثل سكان سيبيريا. فالثقافة تتأثر بعدد كبير جداً من الظروف التي مرت بها، ومن ضمنها الثقافات الأخرى التي كان لها اتصال معها. هذه الاستنتاجات جعلت بواز يشكك في صحة القوانين العالمية، مثل تلك التي جاء بها منظرو التطور الثقافي، مما جعله وطلابه يكترون من نقد المنظرين الذين سبقوهم. اعتقاد بواز أن التعميمات العالمية التي وضعها دعاة التطور الثقافي كانت سابقة لأوانها، وأنها كانت تعتمد على معلومات غير كافية عن الشعوب البدائية، وأن تلك المعلومات كانت مستمدّة من المبشرين وربابنة السفن والبحارة والتجار والمغامرين الذين كانت نظرتهم إلى السكان الأصليين سطحية وغير حيادية وغير موضوعية. اقترح بواز، لذلك، التوقف عن إصدار النظريات العريضة، ريثما يتم جمع مواد إثنوغرافية موثوقة، بكميات كبيرة كافية لعمل تعميمات عالمية عريضة.

اتبع بواز التوصيات التي اقترحها، وقام بثلاث عشرة رحلة ميدانية إلى قبائل الهندود الحمر التي عاشت قرب الساحل الشمالي الغربي من أمريكا الشمالية أثناء الفترة من 1886 حتى 1931، وتعلم بواز لغة هذه القبائل كما كان قد تعلم لغة الأسكيمو من قبل. لعب بواز دوراً قيادياً في حقل اللغويات في أمريكا. وكان أحد أسباب اهتمامه باللغويات أنه كان يعتقد أن الثقافة يجب أن تفهم حسب فهم وتصنيف السكان لها، وليس حسب خطة يكون عالم الأنثropolوجيا قد وضعها مسبقاً، وأن يكون الهدف من البحث معرفة كيف يرى أصحاب الثقافة العالم. كان بواز يسجل الحكايات بلغة السكان المحليين، ثم يترجمها فيما بعد. اشتغل طلاب بواز بنفس طريقة. ولذلك فإننا نجد اليوم كميات هائلة من التقارير الميدانية عن ثقافات قبائل الهندود الحمر. وكان بواز يدرب طلابه على العمل مثل آلات تصوير تسجل كل شيء، وأي شيء، يظهر أمامها. وكان يهتم بإعادة بناء تاريخ كل ثقافة وحدها بدلاً من الاهتمام باكتشاف قوانين عامة لتطور الثقافة عالمياً. وكان يعتقد أن جمع الكثير من المعلومات عن كل ثقافة قد يخوله فيما بعد اكتشاف بعض التشابهات والتماثيلات بينها. ما قد يخوله

بناء بعض القوانين العامة، ولكنه في النهاية أصبح يشكك في إمكانية اكتشاف أي قوانين عالمية وأخذ يدعو إلى دراسة الفرد تحت ضغوط الثقافة التي يعيش فيها، ما أدى إلى ظهور بدايات حقل «الثقافة والشخصية» الذي كانت تلميذاته روث بندكت (Ruth Benedict) ومارجريت ميد (Margaret Mead) من أوائل المؤسسين له وأهمهم فيه.

برونسلو مالينوفסקי (Bronislaw Malinowski):

بعد حصوله على شهادة الدكتوراه في الفيزياء درس مالينوف斯基 الأنثروبولوجيا في إنجلترا لمدة أربع سنوات، ثم قام بالعمل الميداني في ميلانيزيا وأستراليا لمدة ثلاث سنوات (1915-1918)، حيث امتنع عن الاتصال مع السكان من أصل أوروبي، وعاش مع السكان الأصليين وتعلم لغتهم. فعل مالينوف斯基 كما فعل بواز، إذ دون الكثير من النصوص بلغة السكان المحليين الأصليين، وحاول التعرف على كيف يصنف السكان ثقافتهم وكيف يرون العالم ويفهمونه من حولهم. ولم يكن مالينوف斯基 مهتماً باكتشاف قوانين عامة ولا بإعادة بناء تاريخ الثقافات المحلية للسكان الأصليين، وإنما كان يدعو إلى طريقة تفكير أسمها «الوظيفية» (Functionalism) تنظر إلى الثقافة على أنها تمد المجتمع بوسائل تضمن سد حاجات أفراده. كان مالينوف斯基 يقول إن النظرة الوظيفية إلى الثقافة تصر على أن كل جزئية من الثقافة، كل عادة، وكل فكرة، وكل معتقد، وكل أداة مادية، لها وظيفة أساسية، لها عمل تنجذه، وتمثل جزءاً لا يمكن الاستغناء عنه، لكي يقوم النظام ككل بوظيفته. هذه النظرة جاءت رد فعل لنظرة الأوروبيين إلى المجتمعات غير الأوروبية بأنها غير عقلانية أو أنها بقايا متحجرة من الماضي السحيق. كان مالينوف斯基 في عمله يركز عادة على مجتمع محدد في فترة معينة من الزمن، وكان يهتم بمعرفة كيفية الحصول على الطعام في بيئة معينة، وكيفية توزيعه في المجتمع، وكيف يتم احتواء الصراعات في المجتمع، وضمان التكافف والتعاون فيه. هذا كان يعني دراسة التفاعل بين الاقتصاد، والتنظيم الاجتماعي، والدين، ومؤسسات المجتمع الأخرى، إذ أن مالينوفסקי كان يرى جميع أجزاء الثقافة متشابكة ومترابطة.



كان مالينوفسكي مهتماً أيضاً بكيف يقوم السحر والدين بسد الحاجات النفسية لبني الإنسان. وكان مالينوفسكي يعتقد أن الإنسان يلجأ إلى السحر عندما تفشل الوسائل العادلة العقلانية في إيصاله إلى أهدافه، السحر في هذه الحالات يعطي الإنسان الثقة للاستمرار في محاولة الوصول إلى الهدف. وصف مالينوفسكي سكان جزر «ترويرباند» الذين درس ثقافتهم، بأنهم عمليون وعقلانيون، وأن سلوكهم يكون مفهوماً لمن يفهم المبادئ والمعتقدات الثقافية التي ينطلقون منها.

رادكليف براون (Radcliffe-Brown):

ولد رادكليف براون وعاش ودرس الأنثربولوجيا في إنجلترا، وقام بعمل ميداني بين سكان جزر الأندaman (Andaman Islands) في الفترة 1906-1908. قام رادكليف براون أيضاً بعمل ميداني في أستراليا أثناء الفترة 1910-1912. ودرس الأنثربولوجيا فيما بعد في عدد من الجامعات في أستراليا وأنجلترا وجنوب إفريقيا والولايات المتحدة.

كان رادكليف - براون، مثل مالينوفسكي، مهتماً بدراسة ثقافة مجتمع معين، في لحظة معينة، ولم يكن مهتماً بإعادة بناء تاريخ ثقافة المجتمع. وكان يصف نفسه بأنه من أتباع المدرسة «الوظيفية» ولكن تعريفه للوظيفية كان يختلف بعض الشيء عن تعريف مالينوفسكي لها، إذ كان يعرف وظيفة مؤسسة ما بأنها مساعدة تلك المؤسسة في استمرار التركيبة البنائية أو البناء الاجتماعي لذلك المجتمع، وليس في سد الحاجات الضرورية لأفراد المجتمع، كما كان مالينوفسكي يقول، لذلك فإن فكر رادكليف - براون يعرف أحياناً بـ «الوظيفية - البنائية» (Structural-Functionalism). وقد جاء اهتمام العديد من الأنثربولوجيين البريطانيين والأمريكيين بنظام القرابة في المجتمعات التي درسوها نتيجة لأفكار رادكليف - براون.

اعتبر رادكليف - براون «الثقافة» مفهوماً واسعاً جداً وغامضاً، ولذلك اعتبر موضوع بحثه الرئيس ليس الثقافة، بل البناء الاجتماعي، أي شبكة العلاقات الاجتماعية بين أفراد المجتمع، واعتبر أن علاقات القرابة هامة جداً في المجتمعات القبلية التي كان يدرسها هو وطلابه، واعتبر نفسه



عالماً في العلوم الاجتماعية، يحاول اكتشاف قوانين اجتماعية عالمية.
دراسات «الثقافة والشخصية»

ذكرنا سابقاً أن بواز أصبح في ثلاثينيات القرن الماضي يشدد على دراسة الفرد تحت ضغوط الثقافة التي يعيش فيها، ومن هنا انطلقت دراسات «الثقافة والشخصية». وكان كتاب «أنماط الثقافة» (Patterns of Culture) الذي ألفته تلميذة بواز، روث بندكت (Ruth Benedict)، خطوة هامة في هذا الاتجاه. كان الكتاب ناجحاً ولاقى قبولاً كبيراً. احتوى الكتاب على دراسة مقارنة لثلاث ثقافات، وشددت فيه على الفروق في القيم وفي النظرة إلى العالم بين الثقافات الثلاث، وبيّنت كيف أن الطفل المولود في إحدى هذه الثقافات لا بد أن تكون تجاريه في الحياة وأهدافه وافتراضاته مختلفة عنها عند الأطفال في الثقافتين الآخرين.

مارجريت ميد (Margaret Mead) أيضاً كانت إحدى طالبات بواز وشددت في كتاباتها على أهمية الإطار الثقافي في بناء الشخصية، وأجرت مقارنات في تجارت الأطفال والمرأهقين في ساموا (Samoa) وفي غينيا الجديدة (New Guinea) من جهة، مع أطفال ومرأهقي أمريكا من الجهة الأخرى. كانت الأنثربولوجيا قبل مجيء تيار الثقافة والشخصية تهتم بشكل عام بسلوك الكبار، وأي اهتمام بشؤون الأطفال كان ثانوياً. جاء الاهتمام بتدريب الأطفال وتربيتهم نتيجة لأفكار ثلاثة منظرين هم فرويد (Freud) وجون ديوي (John Dewey) وبواز. وقد ظهر هذا التأثير واضحاً في أعمال مارجريت ميد وبرونسلو مالينوفسكي. وكان أكثر ما اهتمت به هذه المدرسة هو العلاقة بين تربية الأطفال وتربيتهم من جهة، وباقى أجزاء الثقافة من جهة أخرى. كان أتباع هذه المدرسة يعتقدون أن أساليب تدريب الأطفال وتربيتهم عند جميع العائلات في الثقافة نفسها تكون متتشابهة ومشتركة ولذلك تكون شخصيات جميع الكبار في تلك الثقافة متتشابهة، وبذلك تتميز كل ثقافة بنوع شخصية أساسية موحدة ومشتركة عند جميع الكبار (Basic Personality Structure).



دراسات مقارنة عبر الثقافات

في الوقت نفسه تقريباً الذي ظهرت فيه مدرسة «الثقافة والشخصية» ظهرت مدرسة أخرى وهي مدرسة «الدراسات المقارنة للثقافات» (Cross-Cultural Survey)، كانت الفكرة وراء ظهور هذه المدرسة هي محاولة جمع مادة متشابهة باستعمال استماراة أو خطة مقتنة وموحدة لجمع معلومات إثنوغرافية حول المواضيع نفسها من حوالي 300 مجتمع من مناطق ثقافية مختلفة. كان الهدف من هذه الخطة أن يتمكن الباحثون من اكتشاف علاقات بين عناصر مختلفة من الثقافة عبر ثقافات العالم، بحيث تؤدي إلى اكتشاف أنماط وقوانين عالمية بين جزئيات معينة من الثقافة، مثل العلاقة بين أساليب تربية الأطفال ونوع «الشخصية الأساسية» للكبار.

فعلاً جرى جمع المعلومات وعملت العديد من الدراسات الهامة اعتماداً عليها، ولكن ظهر أيضاً العديد من الانتقادات لتلك الدراسات. كان من بين تلك الانتقادات أن كمية المعلومات المتوفرة حول جزئية ثقافية معينة من الثقافات المختلفة لم تكن متساوية بل كانت أحياناً كثيرة جداً من إحدى الثقافات وقليلة جداً من أخرى. كذلك انتقدت تلك الدراسات لأن خطة الجمع لم تأخذ بعين الاعتبار إمكانية الانتشار، ما يعني أن ما هو موجود في ثقافة معينة قد لا يكون مستقلاً عن ما هو موجود في ثقافة أخرى، وأن المعلومات كانت تؤخذ خارج إطارها الثقافي والاجتماعي.

العودة إلى نظريات التطور الثقافي

رأينا أن أتباع بواز طعنوا بالنظريات التطورية التي وضعها تايلور ومورغان، وشجعوا دراسة ثقافة واحدة في لحظة معينة. في أربعينيات القرن الماضي ظهرت ردة فعل لأفكار بواز وأتباعه من قبل مجموعة من علماء الأنثropolوجيا بقيادة لسلி وايت (Leslie White) وجولييان ستیوارد (Julian Steward). طالبت هذه المجموعة بالعودة إلى أفكار تايلور ومورغان، وكانت المجموعة تعرف باسم «التطوريين الجدد» (Neoevolutionists)، لأن الفكرة الجديدة التي أدخلتها هذه المجموعة هي تعريف التطور بكمية الطاقة التي يتحكم بها ويستهلكها أفراد المجتمع، أي أن التطور يحدث عندما تزداد كمية

الطاقة التي يتحكم بها ويستعملها أفراد المجتمع، وأن مرور التاريخ بحد ذاته لا يعني حدوث تطور، وأن التطور يظهر في المجتمع بشكل ازدياد التعقيد في التركيبة الاجتماعية للمجتمع، وفي التمايز بين فئات المجتمع المختلفة. كذلك أضافت هذه المدرسة فكرة «التطور متعدد الاتجاهات» (Multilinear Evolution). أي أن جميع الثقافات لا تمر بالمراحل نفسها، كما كان تايلور ومورغان يقولان، وإنما لكل ثقافة خط تطور واتجاهًا مختلفاً عن الثقافات الأخرى، حسب ظروفها الخاصة.

كلود ليفي شتراوس

يعتبر ليفي - شتراوس أحد أهم علماء الأنثropolوجيا الأوروبيين إن لم يكن أهمهم. كون ليفي - شتراوس مدرسة فكرية أنثropolوجية كان يدعوها هو «الأنثropolوجيا البنائية» (Structural Anthropology) ولكن عمله في الحقيقة لا يتعاطى مع البناء الاجتماعي وإنما أكثر ما كان يهتم به هو الناحية السيكولوجية لأفراد المجتمع. وهو يقول إن الإثنوغرافيا هي دراسة سيكولوجية. ولا يهتم ليفي - شتراوس بالناحية العاطفية من نفسية الناس، وإنما بالناحية الإدراكية فقط. ولذلك فإن الآخرين يعتبرون المدرسة التي يقودها ليفي - شتراوس الفرع الأوروبي من تيار الأنثropolوجيا الإدراكية (Cognitive Anthropology). ومثل باقي أعضاء هذا التيار فإن أكثر ما يهتم به في أبحاثه هو كيف يصنف الناس الأشياء، وكيف يدركون العالم ويفهمونه من حولهم. ومن النقاط التي كان يشدد عليها في كتاباته أن الغربيين يستهترون بقيمة عقل الإنسان «البدائي»، وبين كيف أن الشعوب التي لديها تكنولوجيا بسيطة يكون لديها عادة تصنيف معقد جداً للنباتات والحيوانات في بيئتهم، ما يتطلب معرفة دقيقة ومعقدة، وأن هذه المعرف لا تتعلق فقط بالأنواع التي يأكلونها أو يستفيدون منها بشكل من الأشكال، وإنما نتيجة لحب المعرفة وللرغبة في رؤية نظام ومنطق في العالم المحيط بهم. «البنائية» لا يقتصر وجودها على الأنثropolوجيا إذ إن هناك مدارس تسمى نفسها «بنائية» في الرياضيات، وفي علم النفس، وفي الفلسفة، ولكن المصدر الأساسي والرئيس لل الفكر البنائي هو علم اللغويات. وكان ليفي -



شتراوس دائماً يقارن فكره البنائي في الفكر البنائي في حقل اللغويات، والذي يشدد دائماً على البنية الذهنية اللاواعية التي تكمن وراء استعمال اللغة عند الانسان.

قدمنا في هذا الفصل صيغة مختصرة جداً لأهم المدارس التي ظهرت في حقل الأنثربولوجيا، مع العلم أن معظم علماء الأنثربولوجيا في الوقت الحاضر لا يلتزمون بطريقة تفكير، أي مدرسة واحدة محددة، أو بنظرياتها.



مفاهيم أساسية في الفصل

التطور المتوازي (Parallel Evolution): ظهور جزئيات أو أنماط ثقافية متشابهة في ثقافات مختلفة نتيجة التوافق مع ظروف بيئية متشابهة.

العالم القديم (Old World): يتكون العالم القديم من قارات أفريقيا وأوروبا وآسيا، وهي معاً العالم الذي كان معروفاً للأوروبيين قبل اكتشاف الأمريكتين.

العالم الجديد (New World): الاسم الذي أطلق على الأمريكتين، خصوصاً عند بداية اكتشافهما واستعمارهما.

زواج الجماعة (Group Marriage): ترتيب مشابه للزواج، بين أكثر من شخصين، عادة من 3-7 أشخاص من الكبار من الجنسين، يعيشون معاً، ويشترون بالأموال والأطفال وأعمال البيت.

التطورية وحيدة الاتجاه (Unilineal Evolutionism): نظرية اجتماعية من القرن التاسع عشر حول تطور المجتمعات والثقافات تقول بأن جميع المجتمعات والثقافات تسير في تطورها في الخط نفسه والاتجاه نفسه وأن مجتمعات غرب أوروبا وصلت أوج التطور الثقافي والاجتماعي.

التحكم الجغرافي (Geographic Determinism): نظرية تقول إن الظروف الجغرافية هي التي تحكم بتحديد طبائع الناس وصفات الثقافة عند مجتمع من المجتمعات.

الدراسة المقارنة للثقافات (Cross-Cultural Studies): نوع اختصاص في حقل الأنثropolجيا وبعض الحقول الاجتماعية والإنسانية يقصد منها تحديد أنواع سلوك بني الإنسان، وفحص فرضيات سلوك بني الإنسان ككل.

الشخصية الأساسية (Basic Personality): أحد المفاهيم الرئيسة في حقل الأنثروبولوجيا النفسية، يشير إلى نمط شخصية يضم عدداً من أنواع السلوك والتفكير وغيرها من صفات شخصية الإنسان، تكون مشتركة بين أفراد



المجتمع الواحد بفعل الثقافة المشتركة بينهم، وتميزهم عن أفراد الثقافات الأخرى.

جزر الأندامان (Andaman Isles): مجموعة جزر في خليج البنغال إلى الجنوب من بورما، سكانها من الجنس الأسود، يعيشون على الصيد والجمع. **تسلسل أمومي (Matrilineal Descent):** تحديد السلالة من خلال الإناث، أي من الأم إلى الابنة.

السكن الأمومي (Matrilineal Residence): سكن الرجل والمرأة بعد الزواج مع أو قرب الإناث من أقارب المرأة من جهة أمها. **التطورية الجديدة (Neo-Evolutionism):** مدرسة أثنولوجية تعترف بضعف نظريات تايلور ومورغان ولكنها تشدد على أهمية تطور ثقافة الإنسان.

السكن المستقل (Neolocal Residence): سكن الرجل والمرأة بعد الزواج في بيت مستقل عن عائلة الزوج وعائلة الزوجة. **الأنتربولوجيا الإدراكية (Cognitive Anthropology):** فرع من حقل الأنثربولوجيا، أو من حقل الأنثربولوجيا اللغوية، يهتم بكيف يُبَوِّب الناطقون بلغة معينة الظواهر في عالمهم، وكيف يفهمونها.

أسئلة للنقاش والمراجعة

1. كيف تتشابه المراحل التطورية التي وضعها مورغان، مع تلك التي وضعها تايلور، وكيف تختلف عنها؟
2. كثيراً ما تتشابه الثقافات على الرغم من بعد الجغرافي بينها، أعط نظريتين مختلفتين لذلك التشابه، ووضح الفرق بينهما.
3. وضح الفرق بين مفهوم «الوظيفية» عند مالينوفسكي، وعند رادكليف-براون.
4. قارن ووضح الفرق بين مفهوم البنائية عند ليفي - شتراوس وعند رادكليف - براون.
5. كيف تفهم البنائية في حقل اللغويات؟



الفصل الرابع

أساليب البحث في علم الإنسان

الحقول الفرعية لعلم الإنسان، مثل الإثنولوجيا، والاثنографيا، واللغويات، وعلم الآثار، والأنثروبولوجيا الطبيعية، تستعمل أساليب بحث مختلفة. نقدم فيما يلي موجزاً للأساليب المستعملة في كل فرع منها على حدة:

1- الإثنوغرافيا (علم الإنسان الوصفي)

الملاحظة بالمشاركة "Participant Observation" هو أسلوب بحث يستعمل في الدراسات الإثنوغرافية، وهو عبارة عن انغماض الباحث في المجتمع والمشاركة في النشاطات والأعمال اليومية لأفراد ذلك المجتمع، مثل الاحتفالات والأعراس والجنازات والأعمال الزراعية وغير ذلك. ويتعرف الباحث على السكان عن طريق التعامل معهم وتدوين الملاحظات أثناء ذلك. ويعرف الباحث على جغرافية الموقع وعلى علاقات سكان الموقع مع الناس في العالم خارج الموقع. وقد يقوم الباحث بمسح إحصائي لسكان الموقع. يستعين الباحث عادة بعدد من المبحوثين الرئيسيين ويقارن المعلومات التي يقدمونها له مع تلك التي يجمعها بالملاحظة، كما يقارن ما يقولون إنه من الواجب عمله مع ما يقومون بعمله في الواقع.

قد يجري جمع المعلومات وتسجيلها بطريقة غير رسمية وغير مخطط لها، ولكن أحياناً قد يتبع الباحث خطة مرسومة، أو تُستعمل استمارات أو مقابلات مقتنة، مثل مقابلات حول كيفية تربية الأطفال أو حول المعتقدات الدينية. يستعمل بعض الباحثين الكاميرا العادية أو أفلام الفيديو، وقد يكون هذا الأسلوب مفيداً جداً لتحليل المعلومات فيما بعد. وتكون الأفلام مفيدة جداً في تسجيل النشاطات التي يصعب وصفها بدقة عن طريق الكلام مثل الرقص أو الدبكة أو التمثيل الشعبي أو كيفية بناء البيوت أو جني بعض المحاصيل أو تحضير بعض أنواع الطعام. يستعمل الكثيرون أشرطة التسجيل الصوتي خصوصاً لتسجيل الموسيقى والغناء والحكايات والأساطير باللغة



المحلية، ثم يجري تفريغ المحتويات فيما بعد حين يسمح الوقت والأوضاع بذلك. بعض الباحثين المهتمين «بالأنثروبولوجيا النفسية» أو ما يعرف «بالتقافة والشخصية» (Personality and Culture) يستعملون أحياناً الاستمارات والفحوص المقننة المستعملة عالمياً.

2- اللغويات: يعتقد علماء «الأنثروبولوجيا الإدراكية» (Anthropology Cognitive) أن اللغة هي المفتاح للتفكير وللفرضيات الضمنية التي تكمن وراء أي ثقافة من الثقافات الإنسانية. يدرس الأنثروبولوجيون عادة اللغات التي لم تحر دراستها ووصفها ووضع قواعد مقتنة لها، ولم يجر وضع قواميس لمفرداتها. وقد توجد في مثل تلك اللغات أصوات لا توجد في لغة الدارس أو عالم اللغويات، ولا توجد لهذه اللغات عادة أحرف للكتابة خاصة بها. ولذلك فإن الباحث في مثل هذه الحالات يلجأ في دراستها وتدوينها إلى استعمال الرموز الصوتية الموحدة المعتمدة من قبل جمعية علماء الصوتيات العالمية (International Phonetic Association)، كذلك فإنهم يحللون ترتيب الكلمات وتركيب الجمل في تلك اللغة من أجل اكتشاف قواعدها، التي تختلف عادة عن قواعد لغة الباحث.

3- علم الآثار: يتكون عمل علماء الآثار من محاولات إعادة صياغة الثقافات الماضية عن طريق تحليل ما يجدونه من بقايا تلك الثقافات في الواقع التي يكتشفونها ويحفروها.

هناك العديد من أنواع الواقع الأثرية، منها موقع السكن، حيث كان الناس يعيشون، وموقع ذبح الحيوانات وتقطيعها، وموقع المعامل، أي الأماكن التي كانوا يصنعون فيها أدواتهم، وهناك موقع المحاجر والمناجم التي كانوا يستخرجون منها الصوان أو المعادن لصناعة الأدوات، وهناك موقع الدفن التي كانوا يدفون فيها موتاهم. ويمكن استنباط معلومات مختلفة من كلّ من هذه الواقع. فمن موقع السكن مثلاً، يمكن الاستدلال على عدد السكان الذين كانوا يسكنون الموقع، وذلك من حجم المساكن وعدها

وحجم الموقع ككل. موقع الدفن أو المقبرة أيضاً يمكن أن يشير إلى عدد سكان الموقع مع أن التقدير هنا لا يكون دقيقاً. كان الإنسان في بعض المراحل السابقة، مثل مرحلة الإنسان النياندرتالي، يعيش في الكهوف. من هذه الكهوف يمكن التعرف على نوع الغذاء المستعمل، وفيما إذا كانت النباتات والحيوانات التي استعملوها في غذائهم بريئة أم مدجنة، من خلال تحليل بقايا النباتات والحيوانات الموجودة في أرض الكهف، وخصوصاً البقايا المتفحمة في المأقد أو قرها. كذلك فإن الأماكن الشديدة الحفاف، وأيضاً المستنقعات الرائكة، جيدة لحفظ بقايا النباتات والحيوانات لمدة طويلة. بقايا المساكن في الموقع ككل، وترتيبها بالنسبة لبعضها، يمكن أن تعطينا فكرة عن التركيبة الاجتماعية لسكان الموقع. أماكن العبادة وما تحتويه من رموز يمكن أن تعطينا فكرة ولو بسيطة عن نوع العبودات، وعن أهمية الدين، والدور الذي كان يلعبه في ذلك المجتمع.

بالإضافة إلى الهياكل العظمية تحتوي القبور أحياناً على مواد أخرى مثل الملابس والخلي والأدوات والطعام، وكلّ هذه قد تدل على وجود طبقات وفروق اجتماعية، وقد تحتوي القبور على صور وكتابات منقوشة على الصخور. يبدأ العمل على موقع ما، بعد انتقاءه، برسم خطوط متقطعة على سطح الموقع بحيث ينتج عنها تقسيم سطح الموقع إلى مربعات ثم يجري ترقيم هذه المربعات، ويجري بعد ذلك حفر خندق صغير أو حفرة تحريرية أو استطلاعية للتأكد أولاً من أنّ الموقع مناسب لما هو مطلوب. إذا وُجد الموقع مناسباً يستمر الحفر وتؤخذ العديد من الصور من زوايا مختلفة على فترات متقطعة طيلة فترة العمل. وكلما اكتُشفت أداة، أو أية مادة تهمّ الباحث، يُسجل العميق والمربع الذي وجدت فيه ويجري ترقيمها وتسجيلها في ملف المشروع، وتحفظ الأداة في مغلّف أو كيس يحمل رقمها بحيث يسهل التعرف عليها بسرعة عند الحاجة.

تكون المواقع الأركيولوجية عادة مكونة من طبقات متمايزة، وتعتبر الأدوات



التي توجد في الطبقات الدنيا عادةً أقدم من تلك التي توجد قريبة من السطح. هذا طبعاً على اعتبار أنه لم يجر حفر أو قلب طبقات الموقع سابقاً. وقد يأتي قلب أو خلط طبقات الأرض من قبل الإنسان، أو بعض الحيوانات التي تحفر جحورها في الأرض، أو من قبل قوى الطبيعة المختلفة كالرياح أو الفيضانات. ويفترض عادةً أنَّ الأدوات التي توجد مع بعضها يكون لها العمر الزمني نفسه، إلا إذا كان قد جرى تخريب للترتيب الطبيعي لطبقات الأرض أو للأدوات نفسها كما جاء سابقاً.

الأدوات والأشياء التي يهتم بها الباحث الأركيولوجي قد تكون من صنع الإنسان أو أشياء ليست من صنع الإنسان، مثل عظام الحيوانات أو بذور النباتات أو الصدف أو الرماد. هذه المواد يمكن استعمالها لمعرفة تاريخ الموقع الذي وجدت فيه أو عمره، ولمعرفة حالة المناخ في ذلك الوقت. يمكن أيضاً تحليلها لمعرفة فيما إذا كان مصدرها محلياً أم جلبت من مكان آخر. ويمكن معرفة الأساليب المستعملة في صناعة الأدوات، سواء كانت معمولة من الحجر أو العظم أو الخشب أو غير ذلك.

يحاول علماء الآثار المحافظة بدقة على كل ما يعثرون عليه لغرض تحليلها بطرق جديدة ولأغراض جديدة في المستقبل، خصوصاً وأنهم يعرفون أن اكتشاف أي موقع يُدمر ذلك الموقع ولا يمكن حفره واكتشافه والاستفادة منه مرة أخرى.

بعد الانتهاء من حفر الموقع واستكشافه يبدأ تحليل الأدوات والمواد التي تم العثور عليها بطرق عديدة في المختبرات. ويبدأ التحليل بتصنيف الأدوات وتبويتها، والتعرف على كيفية استعمالها. كيفية الاستعمال بدورها قد تكشف لنا عن تقسيم العمل في المجتمع. الأدوات المستعملة أيضاً تشير إلى أنواع الطعام التي كانوا يأكلونها. أنواع الطعام يمكن التعرف عليها أيضاً من محتويات أمعاء الجثث التي توجد محفوظة كاملة كتلك التي تُكتشف في المستنقعات أو في المناطق التي تغطيها الثلوج على مدار السنة. بعد

تحليل بقايا الكائنات العضوية من حيوان ونبات يلجأ عالم الأركيولوجيا إلى خبراء في علم الحيوان Zoology وعلم النبات Botany الذين يمكنهم التعرف على النباتات من غبار اللّقاح، وعلى تمييز الحيوانات الداجنة والبرية من عظامها، وكذلك التمييز بين النباتات المدجنة والبرية، وعلى الزمن الذي عاشت فيه تلك الحيوانات والنباتات، وعلى أحوال المناخ في ذلك الوقت، خصوصاً الحيوانات الصغيرة التي تكون حساسة أكثر للأحوال المناخية وتقلباتها.

4- الأنثروبولوجيا الطبيعية: بما أن علماء الأنثروبولوجيا الطبيعية يدرسون الإنسان ككائن بيولوجي فإن عملهم يكون قريباً جداً من عمل علماء الحيوان والبيولوجيا. ويختصّ المهتمون بتطور الإنسان بدراسة العظام ومن ضمنها الأسنان (Osteology)، مع أنه كثيراً ما يطالها الخراب أثناء حياة الكائن، فإنها تبقى أكثر من أي جزء آخر في جسم الكائن بعد موته، وهي الجزء الأكثر توفرًا في مجموعات متحجرات الإنسان الموجودة في المتاحف والمختبرات، وهي الجزء الوحيد الباقي لدينا بالنسبة لبعض الرئيسيات القديمة. الأسنان تعطينا فكرة عن حجم الحيوان وربما عن نوع الغذاء الذي كان يعيش عليه. ويدرس علماء الأنثروبولوجيا الطبيعية الرئيسيات القديمة والرئيسيات الحديثة إذ إنّ كلاًّ منها يساعدنا في فهم الآخر.

إذا وجدت بعض عظام الكائن وجزء من عظام العمود الفقري يصبح التعرف على كيفية المشي عند الكائن ممكناً، بحيث نستطيع الحكم على ما إذا كان يمشي على أربع أم قائمًا على اثنين، أو إذا كان يتنقل في الأشجار بالتعلق بالأغصان بالذراعين. العضلات ترتبط في أطرافها بالعظام ولذلك ترك أثراً عليها، ومن ذلك نستطيع بواسطة العظام التعرف على حجم العضلات وتركيبها. كذلك فإن عظام الجمجمة تساعد كثيراً في التعرف على حجم الدماغ والعمود الفقري، وشكلهما. سعة الجمجمة تساعدنا في معرفة حجم الدماغ وتركيبه أو شكله، وهذا بدوره يساعد في معرفة الذكاء النسبي للكائن



(أي بالنسبة إلى الكائنات الأخرى). مثلاً بحد اليوم أنّ معدل سعة جمجمة القردة العليا الإفريقية (الشمبانزي والغوريلا) يبلغ حوالي 500 سم مكعب بينما هي عند الإنسان الحديث حوالي 1400 سم مكعب.

كان علماء الأنثروبوجيا الطبيعية في الماضي يهتمون، بشكل رئيس، بقياس أبعاد الجسم وتصنيف أنواع الإنسان، أمّا الآن فقد أصبحت اهتماماتهم واسعة جداً ومعقدة، بحيث يدرسون حقل الوراثة (الجينات) وكيمياء الدم وأساليب المخبرية المعقدة، حتى أصبح هذا الحقل أقرب إلى العلوم الحياتية منه إلى العلوم الاجتماعية، مع أنّ العلماء ما زالوا يشتغلون في النظر إلى الإنسان ككل كنتيجة للمسيرة الطويلة للتطور البيولوجي والثقافي.

يدرس علماء الأنثروبولوجيا الطبيعية تواافق الرئيسيات مع البيئة التي تعيش فيها. الإنسان من بين جميع الرئيسيات انتشر في جميع بقاع العالم وتأقلم مع بيئات مختلفة. تواافق الإنسان يأتي بالتوافق البيولوجي الموروث بالجينات والتواافق الثقافي المكتسب بالتعلم. في دراستهم لتواافق الإنسان مع البيئات المختلفة من المناطق القطبية إلى الصحراوية اهتم علماء الأنثروبولوجيا الطبيعية بالفارق في تركيب الجسم وشكله وبالصفات البيولوجية الأخرى، بينما اهتم علماء الأنثروبولوجيا الثقافية بأساليب التوافق الثقافية. ويهتم علماء الأنثروبولوجيا الطبيعية أيضاً بتأثير الثقافة على فسيولوجية الإنسان، مثل دور الثقافة في انتقال الأمراض أو في الأمراض الوراثية مثل زواج الأقارب، أو تأثير نوع الغذاء على أمراض السكري وغيرها من الأمراض.



مفاهيم أساسية في الفصل

إثنوغرافيا (Ethnography): دراسة وصفية لمجتمع أو ثقافة معينة، ناتجة عن عمل ميداني مباشر في تلك الثقافة أو ذلك المجتمع.

الملاحظة بالمشاركة (Participant Observation): أسلوب البحث المستعمل في الدراسات الإثنوغرافية الميدانية، وتكون بالعيش في مجتمع ما والتفاعل مع الناس فيه، والمشاركة في العديد من نشاطاتهم، وملاحظة وتدوين أكبر قدر ممكن من تلك النشاطات.

الأنثropolوجيا الإدراكية (Cognitive Anthropology): مقاربة نظرية وبحثية لدراسة أنماط المعتقدات والسلوك لثقافة أو مجتمع ما من وجهة نظر فهم وإدراك أفراد المجتمع أنفسهم لسلوكهم ومعتقداتهم مع التشديد على طرق إدراكيتهم وتصنيفهم للعالم من حولهم.

علم الآثار (Archaeology): علم يدرس ثقافات المجتمعات البائدة عن طريق الحفر والتنقيب عن بقايا الثقافة المادية للمجتمع.

أداة (Artifact): أي بقايا مادية لأي شيء من صنع الإنسان مثل الأدوات والأسلحة والفخار والأشياء المنحوتة أو المنقوشة ما يشير إلى سلوك من قبل الإنسان.

مخطط الموقع (Grid): مخطط لسطح موقع أثري قبل بداية الحفر، يساعد فيما بعد في ضبط الأماكن التي وجدت فيها البقايا الأثرية.



الأنثروبولوجيا الطبيعية (Physical Anthropology): فرع من فروع علم الإنسان يتعاطى مع بني الإنسان كنوع بيولوجي من حيث التطور البيولوجي، ومن حيث صفاتـه كمجموعة من الكائنات البيولوجية، أو من حيث تنوعـه البيولوجي.

توافق (Adaptation): العملية التي من خلالها يصبح الكائن أصلـح للبقاء في بيـئة معينة، وقد يكون التوافق بيـولوجيًّا عن طريق التغيـير في الصـفات الموروثة بيـولوجياً، أو ثقافـياً عن طريق التغيـير في الثقـافة المـتعلـمة أو المـورـوثـة اجتماعـياً.



أسئلة للنقاش والمراجعة

1. تخيل عالم آثار يأتي بعد ألفي سنة من الآن ليحفر بعض قبور الناس الذين ماتوا بين 1985-2015، في إحدى قرى رام الله بفلسطين. ماذا يستطيع أن يستنتج عن ثقافة الفلسطينيين في الوقت الحاضر، وكيف يفعل ذلك؟
2. تعتمد الإثنوغرافيا على أسلوب بحث يسمى «الللاحظة بالمشاركة» ما أهمية «المشاركة» في هذا النوع من الأبحاث؟
3. ما هو المنطق الذي يكمن وراء اهتمام علماء الأنثربولوجيا الإدارية باللغة عند دراسة مجتمع من المجتمعات؟
4. لماذا يهتم علماء الأنثربولوجيا الطبيعية بدراسة الإنسان بشكل خاص؟
5. لماذا تمكن الإنسان، دون غيره من أنواع الرئيسيات، من الانتشار في جميع بقاع العالم بغض النظر عن اختلاف البيئات الطبيعية فيها؟



الفصل الخامس

آليات التطور

يمكن تعريف التطور بأنه تحول كائنات بسيطة إلى كائنات أكثر تعقيداً. جميع ما نعرفه عن التطور في الوقت الحاضر حديث نسبياً ولا يزيد عمره عن قرن ونصف. وحتى بعد أن قبل الكثير من الناس فكرة حدوث التطور فإنهم استصعبوا تفهّم فكرة أن نوعاً من الكائنات يمكن أن يتغير مظهّره عبر الزمن، خصوصاً وأن الفكرة التي كانت سائدة قبل ظهور التفكير التطوري كانت فكرة "الخلق الكامل" التي تقول بأن جميع الكائنات خلقت كاملة تماماً وكما نجدها اليوم، وستبقى كذلك إلى الأبد. كان من أوائل النظريات التي حاولت تفسير كيفية حدوث التغيير في أنواع الكائنات النظرية التي طرحتها الفرنسي جين لامارك Jean Lamarck (1744-1829) والمعروفة بنظرية "الاستعمال والإهمال" والتي تقول بأن الأعضاء تقوى بالاستعمال وتضعف وتلاشى بالإهمال. كان لامارك مثلاً يفسّر طول عنق الزرافة وطول أطرافها الأمامية بأنها نابعة من كثرة محاولاًها للوصول إلى أعلى الأشجار، عبر فترات زمنية طويلة. وهناك أسماك عميات تعيش في المياه الجوفية في أمريكا وأوروبا، لامارك يفسّر ذلك بتلاشى العيون عند هذه الأسماك نتيجة عدم استعمال العيون في الظلام. المشكلة في مثل هذه النظريّة هي أنها تفترض توارث صفات يكون الكائن الفرد قد اكتسبها أثناء فترة حياته، وهي فكرة غير مقبولة عند معظم العلماء في الوقت الحاضر.

معظم ما نعرفه الآن مما هو مقبول من آليات التطور جاء نتيجة جهود عالمين اثنين هما: تشارلس داروين Charles Darwin 1809-1882 وغريغور مендل 1822-1884. داروين أعطانا مفهوم "الانتقاء الطبيعي" (Natural Selection) وجّمّع ونسق كميات هائلة من المعلومات ذات العلاقة بنظرية التطور، ومندل أسس علم الجينات.

الانتقاء الطبيعي: الانتقاء الطبيعي شبيه بالانتقاء الذي يقوم به الإنسان



بالنسبة إلى الحيوانات والنباتات التي قام بتدجينها عن طريق انتقاء الحيوانات التي تحمل صفات يرغب في استكثارها، وفصلها عن غيرها، ومزاوجتها بعضها ما يؤدي إلى تزايد سريع للحيوانات التي تحمل تلك الصفات المرغوبة. من الصفات التي زاد الإنسان بشكل واضح في نسبة وجودها عند بعض الحيوانات الداجنة مثلاً كثرة الحليب عند الماعز والبقر، والسرعة في العدو عند الخيل وكثرة البيض عند الدجاج وغير ذلك. انتقاء شبيه يحدث في الطبيعة نتيجة الانتقاء الطبيعي. جميع الكائنات في الطبيعة يوجد عندها تنازع على البقاء؛ أي تنازع على مصادر الغذاء وعلى الضروريات الأخرى للحياة. الكائنات الحية تتکاثر بنسب عالية جداً، بينما مصادر الغذاء المتوفرة في الطبيعة تبقى ثابتة، ولذلك فإن معظم الكائنات التي تولد لا تتمكن من البقاء بل تموت في مرحلة مبكرة قبل أن تتکاثر.

داروين صاغ فكرة الانتقاء الطبيعي، في كتاب "أصل الأنواع" (1859) كما يلي:

"نتيجة لهذا الصراع، فإن الفروق، مهما كانت بسيطة ومهما كان سبب وجودها، إذا كانت مفيدة لأية درجة لأفراد نوع ما، في علاقاتهم شديدة التعقيد مع كائنات حية أخرى ومع الظروف الطبيعية للحياة، فإنها تدعم بقاء تلك الكائنات، ويرثها نسلها بشكل عام."

وقد أشار داروين إلى حقيقة أن الكائنات، إذا لم تتدخل عوامل من خارجها بتکاثرها، فإنها تتکاثر بنسب هندسية. فالمعروف مثلاً أن الفيل هو أبطأ الكائنات المعروفة تکاثراً، ولكن حسب حسابات داروين فإن زوجاً من الفيلة إذا أنجب 6 أطفال أثناء فترة حياة طولها 100 سنة واستمر هذا النمط للأجيال التالية فسيكون هناك بعد مدة 740-750 سنة ما يقارب 19 مليون من الفيلة الأحياء. مع ذلك فإن عدد أفراد كل نوع من أنواع الكائنات يبقى إلى حد ما ثابتاً. ما يُ يعني عدد أفراد الأنواع المختلفة محدوداً هو صراع البقاء بين الكائنات، وأن مصادر الغذاء تبقى نسبياً ثابتة. وبما أن عدداً كبيراً من أفراد النوع تموت قبل أن تتکاثر فإن أية فروق مفيدة من أي نوع تزيد من امكانيات بقاء الكائن وتکاثره. وبناء على

ذلك يفسر داروين طول عنق الزرافة وطول قوائمها الأمامية؛ ليس على أساس محاولتها المستمرة للوصول إلى رؤوس الأشجار لعدة أجيال متتابعة، وإنما بطريقة مختلفة كلياً، إذ إن منطقه يقول إنه إذا ولد عدد من الأفراد مع أنفاس وقوائم أمامية أطول من غيرهم من باقي أفراد النوع، فإن ذلك يكون له فائدة انتقائية كبيرة تعطيه إمكانيات للبقاء والتكاثر أكبر منها عند أبناء جيلها أصحاب الأنفاس والقوائم الأمامية الأقصر نسبياً. ومع مرور الزمن فإن فئة أصحاب الأنفاس الطويلة ستزداد كثيراً على حساب أصحاب الأنفاس القصيرة وتصل نتيجة لهذا التطور إلى نوع الزراف كما نعرفه اليوم.

ومن الأمثلة التي يوردها داروين على الصفات التي تعطي الكائن أفضلية في الصراع على البقاء ما رأه في جزيرة "ميديرا" من أن جميع الخنافس فيها لا تستطيع الطيران إذ إن الرياح تدفع الخنافس الطيارة إلى البحر فتموت، وبذلك فإن عدم الطيران يعطي بعض الخنافس أفضلية في البقاء والتكاثر. لم يكن داروين في حينه يعرف كيف تحدث الفروق أو التنوع في الصفات عند أفراد نفس النوع، وهو ما وضّحه علماء الجينات فيما بعد تحت اسم "الطفرات" (Mutations)، ولكنه كان يرى أنه عندما تظهر صفة جديدة مثل تغير في لون الكائن ما أو حجمه فإن ذلك التغيير يكون حتماً إما مفيدةً أو ضاراً في مقدرة الكائن على التوافق مع البيئة الطبيعية. فإذا كان ضاراً فإنه يقلل من مقدرة الكائن على البقاء والتكاثر وبذلك فإن الصفة تأخذ بالاختفاء تدريجياً. أما إذا كانت الصفة مفيدة في زيادة إمكانية البقاء والتكاثر عند الكائن فإن حملاً تلك الصفة يتکاثرون ويزدادون على حساب الكائنات التي لا تحملها. بهذه الطريقة وعبر ملايين السنين تتغير صفات الكائنات وتركيبة أجسادها.

ولكن التغيير (أي الطفرة) يحدث عند كائن واحد، فكيف يمكن لتلك الصفة أن تستمر وتنتشر مع أن الفرد حامل الصفة يتزاوج مع أفراد لا يحملونها؟

حاول داروين تفسير تلك الظاهرة عن طريق طرح نظرية وراثة معقدة،

ولكن ظهر بعد فترة قصيرة أنها لم تكن صالحة. وربما كان بإمكان داروين أن يحل المشكلة لو أنه أطلع على أبحاث معاصره غريغور مندل. فمع أن مندل قد تقريراً عن أبحاثه لجمعية علمية سنة 1865 ونشرها سنة 1866. إلا أن أعمال مندل لم تصبح معروفة بين علماء عصره، والقلائل الذين اطلعوا عليها لم يفهموها ولم يدركوا أهميتها. استمر هذا الحال حتى سنة 1900، أي 16 سنة بعد موت مندل و 18 سنة بعد موت داروين عندما أعيد اكتشاف أعمال مندل من قبل ثلاثة علماء في ثلاث عواصم أوروبية مختلفة في الوقت نفسه.

كان مندل راهباً نسائياً أجرى سلسلة من التجارب على نبات البازيلاء لمدة ثمان سنوات في حديقة الدير الذي كان يعيش فيه. وكانت تجاربه تتلخص بإعادة تلقيح عدة سلالات من البازيلاء التي كانت تتميز عن بعضها بصفة واضحة، عبر عدة أجيال، واحتفظ بسجلات إحصائية دقيقة ومفصلة لكل جيل. توصل مندل من تجاربه إلى نتيجة مفادها أن ما يقرر طبيعة الوراثة هي وحدات مستقلة عن بعضها، تحافظ على صبغتها الأصلية جيلاً بعد جيل. هذه الوحدات هي التي نسميها اليوم "الجينات". وقد وجد مندل أنه عند إجراء تلقيح متبادل بين سلالتين كل منهما تحمل صفة تختلف بوضوح عن الأخرى، مثل كون لون الحبوب أخضر أو أصفر، فالنتيجة لم تكن خلطة من اللونين وإنما في كل مرة كانت إحدى الصفتين متسلطة على الأخرى. مع هذا فإن الصفة المخفية (المتنحية) لم تختف كلياً، بل عادت ظاهرة عندما لقح النباتات المهجنة بعضها. أي أن الحبوب كانت تحمل جينات لصفات غير ظاهرة على السطح.

الصفات الظاهرة للعيان تسمى (Phenotypes) وأما الصفات الموجودة في الجينات سواء ظهرت أم لم تظهر فتسمى (Genotypes).

لم يكن عند مندل مجهر ولم يتمكن من رؤية التركيبة الداخلية للخلية وإنما بني نتائجه على الملاحظات الخارجية وعلى العمليات الحسابية. اليوم مع وجود المحاجر القوية والفعالة أصبحنا نعرف أكثر بكثير عن التركيبة الداخلية للخلية مما كان معروفاً أيام مندل. توجد في نواة الخلية أجسام مستطيلة

يمكن رؤيتها بشكل أوضح إذا جرى صبغها ولذلك سميت "كروموسومات" (Chromosomes) اي "أجسام ملونة، صبغيات"، عدد الكروموسومات الموجودة داخل نواة خلية مختلف من نوع إلى نوع من الكائنات، إن عددها في الخلية يكون قليلاً ولكنها تحمل من الجينات آلاف المرات من أعدادها، والجينات صغيرة بحيث لا يمكن رؤيتها حتى بالمجهر. وتكون الجينات بشكل أزواج متقابلة في الموقع على جانبي الكروموسوم، ويكون الإثنان في كل زوج إما متشابهين أو مختلفين بالنسبة للصفة نفسها.

جميع الخلايا في جميع الكائنات تنقسم لتكوين خلايا جديدة. كل خلية جديدة تكون صورة كاملة للخلية الأم، فيها جميع الجينات الموجودة أصلاً في الخلية الأم. لكن ما يحدث في الخلايا الجنسية (البويضات والحيوانات المنوية) مختلف عن ذلك، إذ ينتج عن الانقسام خلايا تحمل نصف الجينات الموجودة في الخلية الأم ويكون فيها واحد من كل زوج متقابل من الجينات على جانبي الكروموسوم. وعندما تلتقي البويضة والحيوان المنوي في عملية التلقيح تُحضر كل منهما نصف عدد الكروموسومات والجينات الموجودة في الخلية العادية لذلك النوع من الكائنات، وما يقرر أي جينات من الأبوين تجتمع في الخلية الجديدة هو مجرد الصدفة، وتلك الصدفة تتحكم بالصفات الوراثية التي يحملها الجينين الناتج عن تلك الخلية.

الطفرات: (Mutations) الجينات ثابتة نسبياً وهي تصنع نسخاً من نفسها جيلاً بعد جيل ولكن يحدث أحياناً تغيير في التركيبة الكيميائية لجين من الجينات ويكون هذا التغير عشوائياً وقابلًا للوراثة للأجيال التالية ويحدث تغييراً في بعض صفات الكائن مثل اللون أو الحجم أو صفات أخرى، ترثها الأجيال اللاحقة. معظم الطفرات تكون عادة ضارة لذلك الكائن، وتقلل من توافقه مع العالم الذي يكون قد كونه ذلك النوع والذي مكّنه من البقاء إلى ذلك الوقت. الجينات الضارة تختفي عادة خلال فترة قصيرة لأن حمّلة تلك الجينات يموتون أو يفشلون في الإنجاب. أحياناً تحدث بعض الطفرات التي لا يظهر أثرها لعدة أجيال لأنها تكون متمنية وتظهر فقط عندما يحدث تزاوج بين اثنين من حمّلة تلك الطفرة. ومع أن معظم



الطفرات تكون ضارة، كما ذكرنا سابقاً، إلا أن بعض الطفرات، التي تزيد من توافق الكائن مع البيئة أو تحسن من إمكانيات تكاثره، تحدث أحياناً.

ظهور أنواع جديدة:

عاملان يساعدان في ظهور أنواع جديدة من الكائنات. هما العزل الجغرافي والعزل التكاثري أو الجيني. يمكن تعريف النوع بأنه مجموعة من الكائنات معزولة تكاثرياً عن مجموعات أخرى من الكائنات. ويُتَّسِّع النوع أجيالاً جديدة قادرة على التكاثر ضمن ذلك النوع. ومع أن أفراد نوع من الأنواع يمكن أن يتزاوجوا مع أفراد من أنواع أخرى ولكن إما أن التزاوج لا يؤدي إلى الإنجاب أو أن الأطفال الذين ينتجون عن ذلك التزاوج لا ينجذبون (كما هو الحال مع التزاوج بين الخيل والحمير).

عندما تنفصل مجموعتان من النوع نفسه عن بعضهما جغرافياً ولا يمكنهما التزاوج وتتبادل الجينات تبدأ كل منهما بالتوافق مع بيئه طبيعية مختلفة ولو قليلاً، وهذا يؤدي إلى ظهور صفات بيولوجية مختلفة، مثل الاختلاف في اللون أو الحجم أو غير ذلك، ولكن إذا سمح لهما بالتزاوج فقد يتمكنان من الإنجاب، وعندها نقول إن المجموعتين ما زالتا من نفس النوع رغم الفروق البيولوجية. ولكن إذا طالت فترة الفصل الجغرافي بينهما ولم يتمكن أيٌ من أفراد الفتى من التزاوج وتتبادل الجينات بين الفتى فإن الفروق البيولوجية تصبح كبيرة إلى درجة أنه إذا اجتمع أفراد من المجموعتين فإنه قد لا يتمكن الأفراد من الفتى من التزاوج، بسبب الفروق البيولوجية أو يمكنهما التزاوج ولكن لا يمكنهما الإنجاب، أو يمكنهما التزاوج والإنجاب ولكن الخلف يكون غير قادر على الإنجاب. في هذه الحالات من عدم التمكن من تبادل الجينات بين الطرفين نقول إن الفتى قد أصبحتا نوعين مختلفين ومستقلين عن بعضهما.

دراسة الجماعات:

عندما تتحدث عن التطور فنحن لا نتحدث عن أفراد وإنما عن مجموعات سكانية. الفرد يتغير أثناء فترة حياته ولكنه لا يتتطور. المجموعة السكانية تتتطور أي تغير نسبة وجود أو تكرار الجينات ضمن رصيد الجينات المتوفرة للمجموعة ككل. رصيد جينات المجموعة

ككل لا يتغير، بل تبقى نسبة الجينات المختلفة إلى بعضها ثابتة طالما بقي التزاوج بين أفراد المجموعة عشوائياً، وتختل النسب بين الجينات إذا كان هناك تفضيل أو تحيز في التزاوج لصفة من الصفات في إطار جماعة منقطعة نسبياً عن الجماعات الأخرى، مثل قبيلة أو قرية أو طبقة اجتماعية تفضل التزاوج داخلياً ولدى أفرادها تفضيل واضح لصفة من الصفات مثل لون معين للعينين أو للشعر أو للبشرة. أحياناً تلعب الصدفة دوراً هاماً في تغير نسب الجينات عند مجموعة معينة. من الأمثلة على ذلك مثلاً أن تهاجر عائلة فيها، بمفرد الصدفة، نسبة عالية من أصحاب العيون الزرقاء، وأن تذهب تلك العائلة للعيش على جزيرة بعيدة فيستمر أفراد العائلة بالتزواج داخلياً، مما سيؤدي إلى ظهور جماعة ذات جينات ذات لون العيون تختلف عن نسب الجينات عند المجموعة الأم. مثل هذا التغيير قد يحدث نتيجة لتناقض شديد وفجائي لأفراد مجموعة ما بسبب حرب طاحنة أو مجاعة شديدة أو انتشار وباء. انقطاع جيني مثل هذا قد يأتي أيضاً عن طريق آليات ثقافية - اجتماعية مثل وجود نظام زواج داخلي عند جماعة دينية أو طبقة أو قبيلة تفرض على أفرادها الزواج من داخل تلك الجماعة ما يسبب وجود نسبة جينات لصفات معينة أعلى بكثير منها في المجتمع ككل. وعكس العزل الجيني قد يحدث اتصال بمجموعة كانت معزولة سابقاً مع مجموعة أخرى وتزاوج وتتبادل الجينات معها ما يسبب تغيراً في نسبة الجينات فيها.



مفاهيم أساسية في الفصل

متحجرات (fossils): بقايا متحجرات لأنواع كائنات قديمة بقيت محفوظة في التراب أو في الصخور.

حجم الدماغ (Brain Size): يقصد به معدل حجم دماغ الكبار من ذلك النوع. والمهم بالنسبة للنوع ليس الحجم المطلق، وإنما نسبة حجم الدماغ إلى حجم الجسم ككل.

استعمال الأدوات (Tool Using): استعمال أدوات موجودة في الطبيعة دون إجراء أي تغيير عليها والاعتماد عليها من أجل البقاء، مثل استعمال الحجارة.

صنع الأدوات (Tool making): إجراء تغييرات على مواد موجودة في الطبيعة لجعلها أصلح لإنجاز مهام معينة، والاعتماد عليها من أجل البقاء.

اقتصاد الصيد والجمع (Hunting Gathering): استراتيجية توافق مع البيئة الطبيعية من أجل البقاء، وتعتمد بشكل رئيس على جمع مصادر الطعام المتوفرة في البيئة، مثل جمع النباتات البرية، وصيد الحيوانات البرية، وصيد الأسماك.

الإنسان العاقل (Homo Sapien): الإنسان الذي ظهر قبل حوالي 300 ألف سنة ويضم الإنسان النيندرتالي *Homo Neanderthalensis*. والإنسان الحديث *Homo Sapien Sapien*.

أسئلة للنقاش والمراجعة

1. ما هي نظرية لامارك في تفسير حدوث التغيير في أنواع الكائنات، وما هي المشكلة الرئيسية فيها؟
2. قارن بين تفسير لامارك وتفسير داروين لطول عنق الزرافة وطول قوائمها الأمامية.
3. قارن بين الانتقاء الطبيعي والانتقاء المقصود من قبل الإنسان على الحيوانات الداجنة، ما هي نقاط التشابه وما هي نقاط الاختلاف بينهما؟
4. لماذا لم يستفد داروين في بناء نظريته من نتائج دراسات مندل، مع اهتماماً عاشا في الفترة نفسها تقريباً؟
5. متى تصبح مجموعة من الكائنات نوعاً جديداً مستقلاً، وكيف يمكن أن يحدث ذلك؟



الفصل السادس

الأعراق

قبل ظهور علم الجينات في القرن العشرين كان مفهوم الأعراق (Races) يعتمد على المظاهر الخارجي للأفراد. حسب هذا المفهوم كان "العرق" أو "الجنس" يُعرف بأنه مجموعة من الناس تتميز عن غيرها من المجموعات الإنسانية عن طريق الصفات الظاهرة لأفرادها.

هناك عدد من المشاكل تتعلق بهذا التعريف. أولى تلك المشاكل تتعلق بالصفة التي يمكن أن تستعمل لفرز الأفراد الذين ينوبون ضمن عرق أو جنس معين. أكثر صفة كانت مقبولة للتمييز بين الأعراق قبل ظهور علم الجينات كانت لون بشرة الإنسان. والكتب التي كانت تعتبر في حينه «علمية» تقسم بني الإنسان إلى ثلاثة أعراق: أسود، وأبيض، وأصفر، وكانت الأعراق الثلاثة تُعطى في الكتب "العلمية" مصطلحات "علمية" هي: الأبيض Caucasoid، والأسود Negroid، والأصفر Mongoloid.

- هذا التقسيم يواجه رأساً مشكلة كيفية تبويب الكثير من سكان العالم. فأين نضع مثلاً البولونيين أو الهنود الحمر أو سكان شرق أفريقيا مثل أريتريا وأثيوبيا والصومال والسودان، وأين نضع سكان جنوب الجزيرة العربية أو سكان جنوب الهند. مشاكل شبيهة للتقسيم حسب اللون تواجه أي تبويب آخر يتبع صفة من الصفات الظاهرة مثل لون أو طبيعة الشعر، أو ملامح الوجه، أو طول القامة.

فكّر البعض بحل المشكلة عن طريق استعمال مجموعة من الصفات مع بعضها، مثل مركب من لون البشرة ولون الشعر ونسيج الشعر وطول القامة وشكل الجمجمة وغير ذلك. المشكلة هنا أن الصفات الظاهرة لا تنتقل كلها مع بعضها بل تتغير كل منها من مكان إلى آخر مستقلة عن بعضها البعض.

فنحن نجد مثلاً أن طول القامة عند السود في أفريقيا يتراوح من الأقزام



(Watusi) الذين هم أقصر مجموعة سكان في العالم، إلى الواتوسي (Pygmies) الذين هم أطول مجموعة سكان في العالم.

- هنالك أيضا مشكلة تحديد الأعراق؛ فمثلاً إذا تحدثنا عن عرق أسود (Negroid) فهناك تغير تدريجي في اللون من المناطق الاستوائية في أفريقيا شمالاً، عبر المناطق شبه الاستوائية إلى شمال أفريقيا وبلدان حوض البحر الأبيض المتوسط إلى جنوب أوروبا ثم إلى شمال أوروبا، دون أن نجد انقطاعاً أو تغييراً فجائياً في لون البشرة بحيث ينقطع اللون الأسود ويبدأ اللون الأبيض فأين نضع الحد بين الأجناس؟
- مشكلة أخرى تعترض تعريف الأجناس حسب الصفات الظاهرة (Phenotypes)، هي أن مثل هذه الصفات ليست ثابتة بل تتغير ببعض التغيرات البيئية حتى لو لم يكن هنالك أية تغيرات جينية. من الأمثلة على ذلك التغير في طول الجسم وحجمه من جيل إلى جيل مع ازدياد كمية البروتين في الغذاء كما حدث مثلاً مع الجالية اليابانية في الولايات المتحدة، إذ ازداد معدل طول الذكور الكبار عدة بوصات خلال المائة سنة الأخيرة.

المقاربة الجينية لتعريف الأعراق:

بعد مرحلة تعريف الأعراق عن طريق الصفات الظاهرة تحول العلماء نحو تعريف الأعراق عن طريق الصفات الجينية. يمكن تعريف العرق عن طريق الصفات الجينية كما يلي: العرق هو عبارة عن مجموعة من الناس فيها تكرار مميز لأحد الجينات أو لمجموعة من الجينات. ويمكن تمييز عرق عن آخر على أساس الفرق في تكرار تلك الجينات. هذا التعريف أقل اعتباطية من التعريف على أساس الصفات الظاهرة لأن تقييم عدد تكرار الجينات لا يتوقف على الانطباعات الذاتية مثل نوع الشعر أو لون البشرة، ولأن التبويب على أساس الجينات أسهل منه على أساس الصفات الظاهرة التي تؤثر فيها الجينات والبيئة في الوقت نفسه. مع ذلك هناك بعض المشاكل مع تبويب الأعراق حسب تكرار حدوث الجينات.

أولى هذه المشاكل أن الزواج الخارجي (Exogamy) يؤدي إلى تبادل الجينات بين المجموعات السكانية المجاورة، ولا يسمح بظهور فروق واضحة في تكرار الجينات بينها. هذه الفروق الصغيرة والتدرجية تجعل من الصعب أن نحكم أين ينتهي أحد الأعراق وأين يبدأ الآخر و يجعل الحكم بهذا الخصوص اعتباطياً.

مشكلة أخرى تتعلق بأي الجينات ننتقي لاعتماده في تبويب الأعراق، وإذا اعتمدنا مجموعة من الجينات فهناك مشكلة أن الجينات المختلفة في المجموعة تتغير مستقلة عن بعضها البعض، وأن الصفات الظاهرة الناتجة عنها تتجاوب مع عوامل الانتقاء في البيئة بطرق مختلفة، وبذلك فإن تكرار الجينات المكونة للمجموعة يختلف من وقت إلى آخر ومن مكان إلى آخر. بهذا يكون من الصعب تبويببني الإنسان إلى جماعات واضحة ومتمايزه سواء على أساس الصفات الظاهرة أو على أساس الجينات.

تفسير الفروق في الصفات الظاهرة (Phenotypes):

على الرغم مما ذكرناه من صعوبة تقسيم بني الإنسان إلى أعراق منفصلة ومتمازية حسب صفات ظاهرة أو جينية، إلا أنه لا يمكن إنكار وجود فروق بيولوجية بين المجموعات الإنسانية المختلفة. فبدلاً من تقسيم بني الإنسان إلى مجموعات اعتباطية تسمى "أعراقاً" لجأ بعض علماء الأنثروبولوجيا الطبيعية وعلماء الأحياء إلى محاولة تفسير أسباب وجود الفروق البيولوجية الموجودة فعلاً بين المجموعات الإنسانية. ولكن قبل الدخول في التفسيرات دعونا نذكر بعض المواضيع ذات العلاقة، ومنها أن تطور أجداد الإنسان، منذ انفصالهم عن أجداد الرئيسيات الأخرى، اعتمد كثيراً على التحول من التوافق البيولوجي مع البيئة الطبيعية إلى التوافق مع البيئات المحلية المحددة بطرق ثقافية - اجتماعية. هذا طبعاً لا يعني أن التوافق البيولوجي قد توقف كلياً بل إن أساليب التوافق التي تضم بينها الآن أساليب ثقافية - اجتماعية أصبحت مرنة جداً. بسبب هذه المرونة أصبح من الممكن للمجموعات الإنسانية العيش في بيئات لا

تناسب كثيراً مع صفاتهم الظاهرة، بحيث أصبحنا نرى مثلاً أن الزنوج الأفريقيين الذين كان أجدادهم حتى قبل حوالي خمسة مائة سنة محصورين في مناطق جنوب الصحراء الكبرى في أفريقيا أصبحوا يعيشون في كل بقاع العالم حتى أطراف المناطق القطبية. بسبب انتقال مجموعات إنسانية من مواطنها الأصلية، إلى بيئات بعيدة و مختلفة عن بيئتهم الأصلية اعتماداً على وسائل توافق ثقافية - اجتماعية، أصبحنا لا نرى الكثير من التماض بين الصفات الظاهرة للسكان ومتطلبات البيئة الطبيعية التي يعيشون فيها.

على الرغم من هذه المحاذير فقد حاول بعض علماء الأنثروبولوجيا وعلماء الأحياء تفسير بعض نواحي الاختلاف في الصفات الظاهرة بين المجموعات الإنسانية المختلفة. من الصفات التي أخذت اهتماماً خاصاً كانت صفة "لون البشرة".

لاحظ العلماء أن جميع السكان ذوي البشرة السوداء الغامقة كانوا، قبل عصر الاكتشافات الأوروبية، يعيشون في المناطق الاستوائية وأن أصحاب البشرة الأكثر سوداً لم يكونوا أولئك الذين عاشوا في مناطق الغابات الاستوائية الملائقة تماماً لخط الاستواء وإنما في المناطق السهلية المكشوفة التي تلي منطقة الغابات شمالاً وجنوباً. وكلما ابتعدنا شمالاً أو جنوباً عن المنطقة الاستوائية تصبح بشرة السكان أقل سوداً. فنحن إذا انتقلنا من المنطقة الاستوائية شمالاً عبر شمال أفريقيا والشرق الأوسط ثم بلدان جنوب أوروبا فوسطها فشماها، فإن لون بشرة السكان يتحوال تدريجياً من السوداد إلى اللون البني الغامق إلى البني الفاتح إلى البياض.

ويرى علماء الأنثروبولوجيا أن توزيع اللون بهذه الطريقة يمكن تفسيره عن طريق فهم متطلبات التوافق البيولوجي مع البيئة الطبيعية الذي يعتمد على الانتقاء الطبيعي والطفرات المختملة. والتفسير الذي يقدمونه هو أن شدة تعرض سطح الأرض لأشعة الشمس فوق البنفسجية تزداد ابتداءً من القطبين كلما اقتربنا نحو خط الاستواء، وأن الأشعة فوق البنفسجية يمكن أن تسبب سرطان الجلد عند الإنسان، وأن الميلانين، وهي مادة كيماوية موجودة في الطبقة الخارجية من جلد الإنسان ، تقي الجلد من السرطان.

وبذلك فإن الانتقاء الطبيعي يعمل لصالح وجود مادة الميلانين في جلد الإنسان، وأن تأثير الانتقاء يخف كلما ابتعدنا عن المنطقة الاستوائية بسبب تناقص الأشعة فوق البنفسجية فيتناقص وجود الميلانين في الجلد بتأثير تراكم الطفرات عبر الزمن.

هناك فائدة أخرى للميلانين تساعد على خلق فروق في لون البشرة حسب البعد عن المناطق الاستوائية. تلك الصفة هي أن جسم الإنسان يتطلب كميات كبيرة من فيتامين D الذي يحصل عليه الجسم من أشعة الشمس المباشرة. قلة فيتامين D يسبب الكساح ولكن كثرته، زيادة عن حاجة الجسم، تسبب أمراضاً مميتة، وهذا يعني أن الحصول على الكمية المناسبة منه يتطلب توافقاً يعتمد على كمية الميلانين في الجلد بالنسبة إلى قوة أشعة الشمس و مباشرتها في المناطق المختلفة حسب بُعدها عن المناطق الاستوائية.

صفة ظاهرة أخرى يمكن تفسيرها بطريقة تفسير لون البشرة نفسها، وتتبع التوزيع الجغرافي نفسه هي لون الشعر، إذ إن الشعر ينمو من الطبقة السطحية للجلد، إلا أنه يتطلب تراكم كميات ميلانين أقل مما يتطلبه سطح البشرة ليصبح لونه أسود ولذلك فإن اللون الأسود للشعر يمتد شمالاً من خط الاستواء إلى مناطق أبعد من امتداد لون البشرة الأسود.

هناك أيضاً توافقات بيولوجية مع البيئة الطبيعية تعتمد على حجم وبنية جسم الإنسان ، ولذلك تؤثر في توزيع حجم وبنية أجسام مجموعات الإنسان عبر المناطق الجغرافية في العالم. تسبّب فقدان حرارة الجسم تأتي عن طريق السطح الخارجي للجلد. من المتوقع، لذلك، أن نجد نسبة مساحة سطح الجلد إلى وزن الجسم ككل أكبر في المناطق الحارة، والعكس في المناطق الباردة. وإذا نظرنا إلى توزيعة سكان العالم في الوقت الحاضر يمكننا القول بشكل عام إن حجم أجسام الناس في المناطق الحارة أصغر منها في المناطق الباردة، لأن الأجسام الكبيرة تحافظ على الحرارة أكثر من الصغيرة. ولكن حجم الجسم ككل ليس الطريقة الوحيدة للتتوافق مع درجات الحرارة المختلفة بل إن شكل بنية الجسد تعكس أيضاً الانتقاء

ال الطبيعي بالنسبة لدرجات الحرارة. فنحن نجد أنه، عند الكائنات ككل، فإن الحجم النسبي لأجزاء الجسم البارزة مثل الأذنين، والذيل، والعرف، والأطراف، يزداد مع ارتفاع درجة الحرارة. عند بني الإنسان نجد أن الأجسام الطويلة النحيفة، ذات الأطراف الطويلة، تتوافق مع الحياة في الصحراء، لأنها تزيد مساحة سطح الجسم إلى وزنه ككل، وبذلك تساعد في إشعاع حرارة الجسم وتبریده. ونجد العكس عند الأسكمو حيث نجد الأجسام مملوءة ومستديرة والأطراف قصيرة.

التفسيرات التي ذكرناها حتى الآن تعني أنه إذا كان هناك مجموعتان من السكان في مكائن متباين جغرافياً تشتراكان في عدد من الصفات الظاهرة فإن ذلك لا يعني حتماً أن الصفات المشتركة تشير إلى وجود جذور مشتركة أو علاقات تزاوج مختلط بينهما، بل علينا أن نفكر في إمكانية أن تكون تلك الصفات الظاهرة المشتركة أنت نتيجة توافقات متشابهة ناتجة عن عوامل انتقاء طبيعي مستقلة ولكن متشابهة.

الأعراق والذكاء

منذ زمن بعيد، وبشكل خاص منذ خمسينيات القرن الماضي، حاول كثيرون أن يبرهنو على وجود علاقة بين المقدرة على التعلم من جهة، والأعراق، معرفة بالصفات الظاهرة، من جهة أخرى. وقد ساد هذا التفكير في حينه في الولايات المتحدة بشكل خاص، في محاولة لاثبات أن السود من أصل أفريقي، ومعهم الهنود الحمر وغيرهم من الأقليات، هم أقل ذكاء من البيض بشكل عام. وبالفعل كانت معدلات الذكاء عند أطفال تلك الأقليات، حسب امتحانات الذكاء الموجودة في حينه، أقل من معدلات أطفال الأكثريات البيضاء. علماء الأنثربولوجيا، خصوصاً منذ أوائل سبعينيات القرن الماضي، فسروا تلك الفروق على أنها كانت نابعة من الفروق في البيئة، الاقتصادية منها، والتعليمية، والاجتماعية، والغذائية. بين هؤلاء العلماء كيف أن امتحانات الذكاء تعكس التوجهات الثقافية والتجارب الحياتية لأولئك الذين وضعوا تلك الامتحانات والذين طبقوها. حتى عندما تُترجم

تلك الامتحانات إلى لغات أخرى، فإنها تحافظ على مفاهيم تناسب الثقافة الغربية وترتبط بها وتمثلها. جميع امتحانات الذكاء تكون مرتبطة بالثقافة والعلقليات التي أنتجتها، فهي تعكس القيم والمعارف والتوجهات لتلك الثقافة، وعندما تصبح الإمكانيات المتوفرة في بيئات المجموعات المختلفة، بما فيها الأكثريّة البيضاء، متساوية فإنها تتعكس في أداء أطفال المجموعات التي كانت في السابق محرومة ومكبوّة، وهذا يعني، في نظر علماء الأنثروبولوجيا، أن نتائج امتحانات الذكاء، على مستوى المجموعات الإنسانية، تعكس متغيرات بيئية اقتصادية - اجتماعية - ثقافية وغيرها من المتغيرات البيئية السائدة، ولا تدل على المقدرات العقلية الطبيعية لتلك المجموعات الإنسانية.

مفاهيم أساسية في الفصل

عرق (Race): فرع من فروع بني الإنسان يتمتاز بصفات بيولوجية موروثة بالجينات، وله تركيبة جينات تختلف عن تركيبة جينات الفروع الأخرى.

المورثات (Genes): أجسام كروية صغيرة جداً، موجودة في صفوف متقابلة على جانبي الكروموسومات، وهي تحمل الصفات البيولوجية الموروثة وتنتقل من جيل إلى جيل دون تغيير.

العرق الأبيض (Caucasoid): مجموعة عرقية تتركز حول البحر الأبيض المتوسط، يتميز هذا العرق بلون بشرة فاتح، وطويل نسبياً، وشعر كثير على الجسم، ولون العينين من الأزرق إلى البني.

العرق الأسود (Negroid): مجموعة عرقية تتركز حول أفريقيا، تمتاز بلون بشرة بني إلى أسود، شعر الجسم قليل، وشعر الرأس أسود مجعد، والعيون بنية إلى سوداء.

العرق الأصفر (Mongolid): مجموعة عرقية تتركز حول المحيط الباقي، من صفاتها قلة الشعر على الجسم، شعر الرأس مستقيم وخشن، ولون البشرة من الأصفر إلى البني الفاتح، والوجه عريض نسبياً.

صفات ظاهرة (Phenotypes): الصفات البيولوجية الظاهرة للكائن، وهي تعتمد على الجينات السائدة، وعلى التفاعل بينها وبين العوامل البيئية.

صفات منقولة في الجينات (Genotypes): مجموع الجينات التي يحملها الكائن في خلايا الجسم، السائدة منها والمتتحية، تمييزاً لها عن الصفات الظاهرة في الجسد.

تبادل الجينات (Gene Exchange): انتقال الجينات بين مجموعتين من السكان من خلال التزاوج.

التوافق البيولوجي (Biological Adaptation): العملية التي من خلالها يصبح الكائن أصلح للبقاء في بيئه معينة عن طريق التغيير في الجينات.

التوافق الثقافي (Cultural Adaptation): العملية التي من خلالها يصبح الكائن أصلح للبقاء في بيئه معينة عن طريق التغيير في الثقافة.

أشعة فوق البنفسجية (UltraViolet Rays): أشعة أقصر من الأشعة البنفسجية وأطول من الأشعة السينية (أشعة X)، لا يمكن رؤيتها، تسبب أنواعاً مختلفة من السرطان للجلد، وهي جزء من الطاقة التي تأتي من الشمس.



أسئلة للنقاش والمراجعة

1. ما هي المشاكل التي تواجه علماء الأنثروبولوجيا عند تبوييب سكان العالم إلى أعراق حسب الصفات الظاهرة؟
2. ما هي المشاكل التي تواجه علماء الأنثروبولوجيا عند تبوييب سكان العالم إلى أعراق حسب صفات جينية؟
3. لماذا لا نرى، في الوقت الحاضر، الكثير من التناقض بين صفات السكان ومتطلبات البيئة الطبيعية التي يعيشون فيها؟
4. كيف توضح العلاقة بين مقدار تعرض سطح الأرض لأشعة الشمس فوق البنفسجية من جهة ولون بشرة السكان من الجهة الأخرى؟
5. نقش المقوله التالية: "نتائج امتحانات الذكاء على مستوى المجموعة الإنسانية، تعكس المقدرات العقلية الطبيعية لتلك المجموعات".



الفصل السابع

التركيبة الداخلية لمجموعات الرئيسيات

1- حجم المجموعات:

جميع أنواع الرئيسيات تعيش في مجموعات أو مجتمعات على مدار السنة وتضم المجموعات الذكور والإناث من جميع الأجيال. يختلف حجم المجموعات من نوع إلى نوع، وتكون المجموعة أكبر مع ارتفاع النوع على سلم التطور؛ فالرئيسيات الدنيا تعيش في مجموعات صغيرة تصل حجم العائلة النووية، أي الأب والأم وأطفالهم. أما مجموعات القردة العليا فتكون عموماً أكبر وقد تصل إلى 30-50 فرداً، ويكون حجم المجموعات أكبر عند الأنواع التي تعيش على الأرض منها عند تلك التي تعيش على الشجر، وذلك لأنّ خطراً الحيوانات المفترسة يكون أكثر على الأرض منه على الشجر.

بين الأنواع التي تعيش على الأرض نجد عادة نسبة الإناث إلى الذكور تساوي 1:2، أي أنّ عدد الإناث يكون ضعيفي عدد الذكور، وذلك لأنّ الكثير من الذكور يُقتلون في الدفاع عن المجموعة، أو في الحرب بين المجموعات، أو في الصراع الداخلي على السلطة، كذلك كثيراً ما يُطرد بعض الذكور المراهقين من المجموعة، ويعيشون بعيدين عن المجموعة، وذلك بسبب تنافسهم على الإناث مع الذكور الكبار أصحاب السلطة في المجموعة.

مجموعات الشمبانزي لا تكون ثابتة بل تنقسم أثناء النهار لطلب الطعام وتعود فتجتمع في المساء. أحياناً كثيرة تبقى الإناث والأطفال في مساحات ضيقة بينما تذهب مجموعات من الذكور إلى مسافات بعيدة للتفتيش عن الطعام. وعند وجود كميات من الطعام يصدرون أصواتاً عالية فتجمع المجموعة كلّها للاستفادة من مصدر الطعام.

٢- التعلم:

دماغ جميع الرئيسيات كبير جداً بالنسبة لحجم جسمها بالمقارنة مع الكائنات الأخرى. ويمتاز الإنسان والقردة العليا (أي الشمبانزي والبونبو والغوريلا والجييون Gibbon) والأورانجutan (Orangutan) بـكبير حجم الدماغ أكثر من القردة السفلية.

كبير الدماغ بالنسبة للحجم الكلي للجسم يعني أنّ الرئيسيات عموماً ذكية وقدرة على التعلم من بعضها (أي تعلم اجتماعي) وعلى تغيير سلوكها حسب متطلبات البيئة.

الذكاء العالي عند الرئيسيات، بالإضافة إلى طول مدة الطفولة، أي طول مدة اعتماد الصغار على الكبار، يؤديان إلى كثير من التعلم الاجتماعي والسلوك الاجتماعي وهذا ما يكمن وراء وجود الثقافة عند بني الإنسان. وبحد أنّ مدة الطفولة عند الشمبانزي تكون طويلة جداً وتحمل الأم طفلها، أثناء التنقل والتغطيش عن الطعام، مدة السنوات الأربع الأولى من حياة الطفل.

ويحدث أحياناً أن يخترع أحد أفراد مجموعة من القردة سلوكاً جديداً، يكون مفيداً في إطار ظروف بيئية جديدة، وسرعان ما يتعلم باقي أفراد المجموعة ذلك السلوك. وهذه التجديدات أو الاختراعات تبدأ عادة عند أحد الأحداث أو المراهقين، وتنتقل إلى باقي الأحداث، ثم إلى الإناث الكبار، ثم إلى الذكور الكبار، الذين لا يختلطون كثيراً عادة مع الإناث والأحداث.

3- التسلّط والخنوع في مجموعات الرئيسيات:

معظم أنواع الرئيسيات يسود في مجتمعاتها أو مجتمعاتها المحلية نظام تسلط هرمي يشبه ذلك الموجود عند الكثير من أنواع الطيور ومن ضمنها الدجاج. ولذلك يدعى هذا النوع من النظام باللغة الإنجليزية Pecking Order أي «نظام النقر».

يكون على قمة النظام الأقوى والأكثر عنفاً، هؤلاء الأفراد يتمسّكون بالسلطة ما داموا قادرين على ذلك جسدياً ويحتكرون لأنفسهم الطعام والجنس.

ويجري الترتيب داخل المجموعة حسب فئات الجنس والعمر، فيكون على رأس الهرم فئة الذكور الكبار، يليهم الإناث الكبار والراهقات، ثم الذكور الشباب والراهقون، وأخيراً الأطفال من الجنسين، وداخل كل فئة يكون هناك نظام سلّط من الأقوى إلى الأضعف.

السلّط للذكور على الإناث يأتي من فارق حجم الجسم (Diamorphism Sexual)، إذ أنّ حجم الذكور عند الرئيسيات، بشكل عام، أكبر من حجم الإناث. ويكون هذا الفرق أبرز عند الرئيسيات التي تعيش على الأرض منه عند تلك التي تعيش على الشجر. وذلك لأنّ وظيفة الدفاع عن المجموعة تكون للذكور، والأخطار أكثر على الأرض منها على الشجر، حيث إنّ معظم أعداء الرئيسيات من الثدييات آكلة اللحوم تعيش على الأرض وليس على الشجر.

قد يظهر للوهلة الأولى أنّ هذا النظام يزيد من الصراع داخل المجموعة، ولكن العكس هو الصحيح، فالمسلطون الموجودون على قمة الهرم يمنعون الصراع داخل المجموعة ويحمون الضعاف والصغار من الأقوى والكبار.

عندما تتحرك مجموعات الرئيسيات في أماكن مكشوفة، مثل الانتقال من غابة إلى أخرى عبر السهول والوديان، فإنها تنظم نفسها بطريقة دفاعية، وهي أن تكون المجموعة ككل دائرة يكون في مركزها الإناث والأطفال، ويليهم الذكور الكبار، وت تكون الحلقة الخارجية من الشباب والراهقين الذكور. وعند ظهور عدو فإنّ هؤلاء الشباب هم الذين يتصدّون للعدو أولاً، فقط عندما يُقتلون أو يفشلون بصدّ العدو يبرز الذكور الكبار للقتال.



٤ العدوانية عند الرئيسيات:

عادة نفكّر بسلوك الحيوانات على أنه غريزي، لكن الرئيسيات كائنات ذكية وقدرة على تعلم الكثير، ولذلك فإن سلوكها يتغيّر بسرعة بما يتناسب مع متطلبات البيئة إذا تغيرت البيئة أو إذا انتقلوا من بيئه إلى أخرى مختلفة. وبحسب عادة أن القردة التي تعيش بين الناس وفي المختبرات وحدائق الحيوان تكون أشرس وأعنف من التي تعيش في بيئتها الطبيعية. وإذا أعطيت القردة، التي تعيش في المختبرات أو حدائق الحيوان، كميات غير كافية من الطعام، فإنها تطرد أطفالها وقد تقتلها، لكي تستولي على الطعام. والقردة التي تربى من قبل الإنسان معزلة عن باقي أفراد نوعها لا تستطيع التعامل مع أبناء نوعها إذا بقىت معزلة طيلة السنة والنصف الأولى من حياتها، أو ما يزيد على ذلك، وفي هذه الحالات لا تستطيع ممارسة الجنس مع أفراد نوعها، وإذا جرى تلقيح الإناث منها اصطناعياً فإنها لا تستطيع تربية أطفالها والاهتمام. وهذا يُظهر أهمية التعلم الاجتماعي للصغار من أفراد المجتمع، خصوصاً من الأم ومن مجموعات السن Age Group أثناء اللعب. ولكي ينمو الطفل ويكون طبيعياً، وتكون له لبقة اجتماعية عاديّة، فإنه يكفي أن يلعب مع أبناء جيله حوالي 20 دقيقة يومياً، حتى وإن لم يعرف أمه بالمرة. والإنسان هو أكثر أنواع الرئيسيات عدوانية وعنفاً، خصوصاً نحو أبناء نوعه، وهناك العديد من النظريات حول ذلك ولكن لا نستطيع التطرق إليها لأنها خارجة عن الموضوع.

مفاهيم أساسية في الفصل

سلم التطور (Evolution Scale): الدرجة التي يكون قد بلغها نوع من الأنواع من حيث مدى التعقيد والتنوع.

الرئيسيات العليا (Higher Primates): تضم الإنسان والقردة العليا والسفلى.

الرئيسيات الدنيا (Lower Primates): تضم تارزير ولمير.

عائلة نوية (Nuclear Family): عائلة مكونة من جيلين فقط؛ أب وأم وأطفالهما.

مرحلة المراهقة (Adolescence): الفترة ما بين البلوغ والنضوج.

الحجم النسبي للدماغ (Relative Brain Size): مقياس يعتمد على نسبة حجم الدماغ إلى الحجم الكلي للجسم، ويستعمل لتقدير نسبة الذكاء بين الأنواع المختلفة (وليس بين الأفراد من النوع نفسه).

غوريلا (Gorilla): من الرئيسيات العليا، وأكبرها حجماً ويصل وزنه إلى 190 كغم بالنسبة للذكور و100 كغم معدل وزن الإناث، يسير عادة على أربعة قوائم، ويعيش في أفريقيا.

أورانجوتان (Orangutan): من الرئيسيات العليا، يعيش على الشجر في بورنيو وسومطرة، وجهه مسطح كثيراً.

تعلم اجتماعي (Social learning): التعلم من خلال التفاعل مع أبناء المجتمع والحياة معهم، وليس عن طريق تعليم مؤسسات رسمية.

جيبيون (Gibbon): أصغر الرئسيات العليا حجماً، له ذراعان طويلان، ما يمكنه من التنقل على الشجر بمهارة كبيرة عن طريق التعلق بالأغصان باليدين.

فارق الحجم حسب الجنس (Sexual Dimorphism): صفة تتصف بها الرئسيات بشكل عام وتشير إلى وجود فرق كبير نسبياً في حجم الجسم بين الذكور والإإناث

أسئلة للنقاش والمراجعة

1. ما هي الأبعاد التي تقرّ حجم المجموعة عند أنواع الرئيسيات المختلفة؟
2. اذكر العوامل التي تحدد نسبة عدد الذكور إلى الإناث في مجموعات الرئيسيات المختلفة؟
3. ما هي العوامل التي تكمن وراء وجود الثقافة عند الإنسان؟
4. تحت أي ظروف يكون الفرق في الحجم بين الذكور والإناث عند الرئيسيات كبيراً، ولماذا؟
5. هل وجود نظام التسلط عند مجموعات الرئيسيات المختلفة يكون ضاراً للمجموعة أم مفيداً؟ علل إجابتكم.

الفصل الثامن

الحياة الاجتماعية للرئيسيات

نقدم فيما يلي معلومات حول بعض نواحي الحياة الاجتماعية المشتركة بين جميع أنواع الرئيسيات ومن ضمنها الإنسان، كذلك نقدم بعض المعلومات حول نواحٍ من السلوك الاجتماعي التي تخصّ بعض الرئيسيات بالذات.

دراسة الحياة الاجتماعية عند الرئيسيات لا تخوّلنا فهم جميع نواحي سلوك الإنسان في الوقت الحاضر ولكنها قد تساعدنا في فهم أو تصور سلوك أجداد الإنسان في مراحل مبكرة من تطورهم مثل مرحلة «إنسان الجنوب» Australo Pithecus الذي عاش قبل حوالي خمسة ملايين سنة، أو مرحلة «الإنسان المنتصب» Homo Erectus الذي عاش قبل مليوني سنة. بشكل خاص، فإنّ تواافقات الرئيسيات القرية تطوريًا من الإنسان مثل الشمبانزي والبونobo Bonobo قد تفيدنا كثيراً في فهم تطور الحياة الاجتماعية عند الإنسان.

جميع أنواع الرئيسيات (ما عدا أنواعاً قليلة من الرئيسيات السفلية) تعيش في مجموعات أو مجتمعات على مدار السنة، وهذا يعني أنّ أطفال جميع الرئيسيات يتربّون في بيئة اجتماعية.

هذا طبعاً لا ينطبق على كل الكائنات، فالزواحف مثلاً تضع البيوض وتنصرف وهي لا تعرف أطفالها، والأطفال لا يعيشون في جو عائلي أبداً. أمّا الطيور فإنها تربى أطفالها لمدة قصيرة ثم تفترق، فالطفل يعيش نوعاً من الحياة الاجتماعية في إطار عائلة لمدة من الزمن.

العلاقة بين الأم والطفل:

الرئيسيات من الثدييات أي أنها ترضع أطفالها من الثدي، وهذا يعني اعتماد الطفل على الأم في الحصول على الغذاء، منذ الولادة ولمدة طويلة حتى

يصبح مستقلاً. أي أنّ هذا الترتيب يتطلب استمرار العلاقة بين الأم والطفل ملدة طويلة. وتكون هذه العلاقة أطول عند الرئسيات منها عند الثدييات الأخرى مثل الماعز أو الكلاب أو غيرها. وهي أيضاً أطول عند الإنسان منها عند باقي الرئسيات. وبهذا تكون العلاقة بين الأم وطفلها، من بني الإنسان، أطول منها عند أيّ كائن آخر.

والسبب في ذلك هو أنّ الجهاز العصبي عند الرئسيات، وعند الإنسان بشكل خاص، معقد ويحتاج إلى مدة طويلة لكي ينمو وينضج. ومع أنّ فترة الحمل طويلة عند الرئسيات فإنّ أطفال الرئسيات، وخصوصاً الإنسان، تولد ضعيفة جداً وغير ناضجة بالنسبة إلى أطفال باقي أنواع الثدييات. وهذا يُطيل مدة اعتمادها على الكبار. خصوصاً الأم وعلى المجتمع ككل. ويظهر ذلك واضحاً إذا قارناً أطفال الإنسان مع أطفال ثدييات أخرى. مثل الماعز أو الغزلان، التي تستطيع الوقوف والسير مثلاً بعد دقائق من ولادتها، وهي تبدأ الاعتماد على نفسها وتصبح مستقلة في وقت أقصر بكثير مما يحتاجه أطفال الإنسان. وعند الكثير من الرئسيات نرى أنّ الأطفال تمسك بفروة الأم وتتعلق بها ملدة طويلة.

العلاقة بين الذكور والإإناث:

الذكور عند الرئسيات تبقى مع الإناث والأطفال على مدار السنة. فسّر بعض العلماء هذه الظاهرة بأنّ الإناث عند معظم الرئسيات لا يوجد لها مواسم تزاوج أو تلقيح مثل باقي الثدييات، ولذلك تستمر العلاقة الجنسية على مدار السنة، وتصبح ممارسة الجنس من أجل ذاتها وليس لغرض التلقيح فقط. لذلك فسّر هؤلاء العلماء أنّ بقاء الذكور والإإناث معاً على مدار السنة جاء بسبب استمرار ممارسة الجنس.

ولكن هناك العديد من أنواع الرئسيات التي لا يتم التلقيح فيها إلا في مواسم قصيرة ومحددة من الدورة السنوية، ومع ذلك فإنّها تبقى معاً على مدار السنة.

التفسير المقبول أكثر في الوقت الحاضر هو أنّ بقاء المجموعة معاً على مدار السنة جاء لأغراض الدفاع عن المجموعة وخصوصاً الأطفال، أي اللجوء إلى القوة عن طريق الكثرة. وتأتي هذه الحاجة لسبعين:

1- طول فترة ضعف الأطفال واعتمادهم على الكبار وعدم مقدرتهم على الدفاع عن أنفسهم.

2- أنّ الرئيسيات عامة ليس لها وسائل دفاع بيولوجية جيّدة.

علاقة الذكور الكبار مع الأطفال:

إذا راقبنا سلوك الذكور الكبار عند معظم الرئيسيات يكون الانطباع الأول أنّ الذكور لا يهتمون بالأطفال، وبشكل عام يتتجاهلون وجودهم، ولكن إذا تعرض أحد الصغار إلى أيّ خطر نعرف أنّ هذا الانطباع خاطئ، لأنّ الذكور الكبار يهبون للدفاع عن الأطفال وحمايتهم من أيّ خطر خارجي أو أيّ اعتداء عليهم من قبل أيّ فرد من أفراد المجموعة، مثل اعتداء مراهق على طفل صغير، وإذا أصبح اللعب شرساً أكثر من اللازم بين الأطفال أنفسهم أو حدث خلاف بينهم فإنّ الذكور الكبار يهبون رأساً لدفع الخطر ومنع الصراع.

وكذلك فإنّ الذكور الكبار يتواهلو مع الأطفال ويتحملون منهم أنواع سلوك لا يتحملونها من الكبار.

علاقات داخل مجتمعات السنّ بين الصغار:

يكون صغار الرئيسيات عادة مجموعات عمرية للعب من الأفراد المتقاربين بالسنّ. ولا يُسمح عادة للأطفال أكبر سنّاً بالمشاركة في اللعب مع من هم أصغر سنّاً خوفاً من أن يؤذوهم. وتظهر الفروق بين مجموعات السنّ بوضوح أكثر عند أنواع الرئيسيات التي يوجد لها مواسم تلقيح معينة لأنّ الأطفال يولدون في أوقات معينة من السنة ويكونون جيلاً واحداً متقارباً كثيراً في السنّ.



الأطفال الصغار يقونن قريبين من الأمهات ويأتي الابتعاد عن الأم بشكل تدريجي ولفترات تصعب أطول تدريجياً. ويزيد ابتعاد الطفل عن الأم بشكل ملموس بعد ولادة طفل جديد (أي أخي أو اخت). وبشكل عام فإن الأطفال الذكور يشاركون في اللعب أكثر من الإناث ويبتعدون عن الأم مسافات أطول ولمدد أطول. بينما تبقى الإناث من الأطفال وقتاً أطول برفقة الأمهات.

اللعب ضروري جداً للأطفال وله عدة وظائف:

- 1- يدرّب الجسد وينميه.
- 2- يحضر الأطفال لأنواع النشاطات عند الكبار في المجتمع.
- 3- يدرّب الفرد على المهارات الاجتماعية والتفاعل الاجتماعي.
- 4- يدرّب الأطفال على نظام التسلّط داخل المجموعة Order Pecking وهو ما ستحدث عنه فيما بعد.

مفاهيم أساسية في الفصل

الشمبانزي (Chimpanzees): أحد فروع الرئيسيات، وربما كان أقربها إلى الإنسان، ويُعتقد أن الانفصال بين أجداده وأجداد الإنسان جرى قبل حوالي 8 مليون سنة.

البونobo (Bonobo): نوع من الرئيسيات العليا، شبيه جدا بالغوريلا إلا أنه أصغر حجما.

بيئة اجتماعية (Social Environment): مجموع التأثيرات التي تقع على الفرد من قبل أفراد المجتمع الذي يعيش فيه ومؤسساته، وليس من البيئة الطبيعية.

ثدييات (Mammals): مستوى من تصنيف الكائنات، يضم ذوات الدم الحار من الفقريات التي تلد وترضع أطفالها من الثدي.

موسم تلقيح (Mating Season): المراحل التي تكون فيها الإناث لنوع من الكائنات جاهزة للتلقيح وتقبل العلاقات الجنسية مع الذكور.

وسائل دفاع بيولوجية (Biological Defense Mechanisms): صفات بيولوجية موروثة بالجينات، موجودة عند جميع أفراد النوع، تعمل لحمايتهم من أعداء النوع، مثل تغيير اللون حسب البيئة عند الحرباء.

اللعب (Play): نشاط جسدي يقوم به الكائن من أجل النشاط نفسه، وليس لإنجاز هدف محدد، ويوجد بشكل رئيس بين ذوات الدم الحار من الفقريات.

نظام سلط (Pecking Order): نظام موجود كثيراً عند الطيور، لكنه

موجود أيضاً عند كائنات أخرى، ومنها الرئيسيات، ويجري حسبه ترتيب أفراد المجموعة من أكثرها سلطاناً إلى أكثرها خنوعاً، ويفيد في حفظ النظام ومنع الصراع.

أسئلة للنقاش والمراجعة

1. ما أهمية الرضاعة عند الثدييات ككل وعنده الإنسان بشكل خاص؟
2. أطفال الرئيسيات تولد ضعيفة. ما أهمية ذلك؟
3. ما السبب في بقاء الذكور والإإناث عند الرئيسيات، معاً على مدار السنة؟
4. هل يهتم الذكور الكبار عند الرئيسيات عموماً بالصغار؟ وضح الجواب.
5. ما الفرق بين صغار الذكور وصغار الإناث عند الرئيسيات في علاقتهم مع الأم؟

الفصل التاسع

كيفية تصنيف الإنسان

نوضح في هذا الفصل المراحل الرئيسية في تطور الكائنات على الكوكب الأرضية منذ ظهور الخلية الحية الأولى حتى ظهور الإنسان كنوع مستقل، ونكون بذلك قد بينا موقع الإنسان تطوريًا وعلاقته بيولوجيًّا مع باقي الكائنات . الإنسان فرع من الرئسيات (Primates) التي ظهرت قبل حوالي 70 مليون سنة.

الرئسيات فرع من الثدييات (Mammals) التي ظهرت أولاً قبل حوالي 160 مليون سنة.

الثدييات فرع من الفقرىات (Vertebrates) التي ظهرت أولاً قبل حوالي 480 مليون سنة.

دعونا نوضح هذه الحلقات في تطور الإنسان العاقل "Homo Sapien Sapien" أي الإنسان الحديث كما نعرفه اليوم.

1. الفقرىات:

ظهرت الحياة أولاً في مياه الكوكب الأرضية قبل حوالي 4 آلاف مليون سنة، وخرجت النباتات أولاً إلى اليابسة ثم تبعتها الحيوانات. فقريًّاً كانت أنواع الحيوانات الأولى التي ظهرت في المياه بدون عمود فقري (لافقرىات Invertebrates) ثم ظهرت الفقرىات في الماء قبل حوالي 480 مليون سنة وتضم الفقرىات ما يلي:

الأسماء،

والبرمائيات،

والزواحف،

والطيور،

والثدييات.



أمّا اللافقيات فتضمّ:
الديدان،
والصدفيات أو المحارات،
والهلاميات،
والأخطبوط،
والحشرات.

تشترك جميع الفقرىات بصفات تمتاز بها عن اللافقيات، من هذه الصفات أنّ لها عموداً فقرياً مقسّماً إلى فقرات، ويمتد داخل هذا العمود النخاع الشوكي الذي يتصل طرفة بالدماغ من خلال فتحة موجودة في أسفل الجمجمة أو في مؤخرتها. وتحتوي الجمجمة على الدماغ. عن طريق العمود الفقري والجمجمة يكون النخاع الشوكي والدماغ محميّين جيداً. كون العمود الفقري مكوّناً من حلقات عظمية يجعله مرنّاً. يحتوي رأس الحيوانات على الأعضاء التي تحمل الحواس مثل العينين والأذنين والأنف والفم. والفقريات كائنات قادرة على توليد كميات من الطاقة بسرعة. هذه الصفة الأخيرة بالإضافة إلى مرونة العمود الفقري تعني أن لدى الفقرىات المقدرة على التحرك بسرعة، وهذا يعطيها أفضلية على اللافقيات.

ظهرت الحياة في الماء وانتقلت النباتات إلى اليابسة أولاً ثم بدأت الحيوانات بالخروج إلى اليابسة قبل حوالي 300 مليون سنة.

1- البرمائيات: كانت أول الحيوانات التي خرجت إلى اليابسة هي البرمائيات (Amphibians). وساعدتها في ذلك أنها طورت رئتين، بحيث أصبحت تتنفس الهواء مباشرة. كما طورت أربع قوائم تمكنها من نقل جسمها على اليابسة. ما زالت قوائم الإنسان تحافظ على نفس تركيبة قوائم البرمائيات الأصلية، أما قوائم العديد من أنواع الثدييات مثل الخيل والبقر فقد ابتعدت كثيراً عن تلك التركيبة. إنّ تركيبة يد الإنسان الحالية تشبه إلى حد كبير تركيبة القوائم الأمامية للضفدع والسلحفاة والتمساح. وسنأتي فيما بعد على شرح سبب محافظة الرئيسيات على تركيبة قوائم

البرمائيات على العكس من الثدييات الأخرى.

حافظت البرمائيات على طريقة التكاثر الموجودة لدى العديد من أنواع الأسماك التي تلقي البيوض غير الملقة في الماء ثم يلقي الذكر الحيوانات الذكرية عليها لتلقيحها. طريقة التكاثر هذه أجبرت البرمائيات على البقاء قريبة من الماء وعلى عدم التحرّر من العودة إلى الماء للتكاثر.

الزواحف: المرحلة التالية في خروج الحيوانات إلى اليابسة هي مرحلة الزواحف (Reptiles) والتي جاءت قبل حوالي 260 مليون سنة. وقد تحسنت مقدرة هذه الكائنات على التوافق مع الحياة على اليابسة بظهور قوائم أقوى من قوائم البرمائيات بحيث يمكن الكائن من رفع جسمه عن الأرض وبالتالي التنقل على اليابسة بسهولة أكثر. كذلك أصبح عند هذه الكائنات طريقة تكاثر جديدة وهي تلقيح البيوض داخل جسم الأم ثم توضع هذه البيوض، في قشرة قاسية، على الأرض. القشرة القاسية هذه تحفظ البيوض من التعفن والفساد نتيجة تعرضها لعوامل الجو على اليابسة. وهذا حرر الزواحف من ضرورة العودة إلى الماء للتكاثر.

من الزواحف إلى الثدييات 2. الثدييات: (Mammals)

ظهرت الثدييات أولاً قبل حوالي 160 مليون سنة. من أهم مميزات الثدييات أنها من ذوات الدم الحار، أي أنها تستطيع المحافظة على حرارة الجسم، بحيث تبقى ثابتة عن طريق توليد الحرارة داخل الجسم، وبذلك لا تكون تحت رحمة الطقس المحيط بها، كما هو الحال عند البرمائيات والزواحف، التي هي من ذوات الدم البارد، وبذلك تتمكن الثدييات من الحياة في أماكن ذات طقس مختلف، من المناطق الاستوائية وحتى القطب.

الثدييات، فيما عدا نوعين هما «أكل النمل» (Ant Eater)، و«منقار البطة» (Platypus)، تلد ولادة ولا تضع بيوضاً. الإنسان من الثدييات التي لها مشيمة (Placenta) وهي شبه كيس يكون الجنين داخله ويتغذى



من الأم من خلاله، وينتقل الطفل بعد الولادة إلى الثدي، مما يقي الطفل معتمداً على الأم في غذائه بعد الولادة. وهذا يخلق علاقة قوية وطويلة بين الأم والطفل عند الثديات، خصوصاً عند الرئيسيات العليا، وبشكل أخصّ عند أحدها وهو الإنسان، إذ أنّ طفل الإنسان يكون ضعيفاً جداً عند الولادة، ويقى كذلك لعدة طويلة بعد الولادة.

توجد عند الثديات عموماً دورة دموية جيدة مدفوعة بقلب هو عبارة عن مضخة قوية وفعالة. يغطي جسم الثديات جلد يكسوه الشعر وفيه مسامات، وهذا كله يساعد في تنظيم حرارة الجسم والحفاظ عليها ثابتة نسبياً، أي أنها تتغير في إطار درجات قليلة فقط، وللثديات حجاب حاجز يفصل ما بين الصدر والمعدة ويساعد في سحب الهواء إلى الرئتين وإخراجه منها في عملية التنفس. يتكون الفك السفلي عند الثديات من قطعتين فقط، واحدة من كل جانب، ترتبط في آخرها مع الجمجمة، بينما يتربّك الفك السفلي عند الزواحف من عدة قطع. جميع أسنان الزواحف متشابهة، لا فروق بينها، مثل أسنان المنشار. أمّا عند الثديات فالأسنان تختلف في شكلها ووظائفها، إذ بحد قواطع وأنياباً وطواحين، لكل منها وظيفة مختصة. تمر أسنان الثديات في مراحلتين، مرحلة مؤقتة (أسنان حليب) ومرحلة دائمة. ويعتقد أنّ أجداد الثديات الأوائل كان لها 44 سنّاً ولكن تدريجياً تقلّص عددها فأصبحت عند الإنسان 32 وهي أقل من ذلك عند باقي الثدييات.

3. الرئيسيات:

ظهرت الرئيسيات أولاً قبل حوالي 70 مليون سنة. وقد انبثقت الرئيسيات من الثديات، وبالذات من الثديات المشيمية، أي التي يكون لها مشيمة وتلد ولادة. التي هي فرع من الفقريات. من أهم صفات الرئيسيات وجود القوائم القابضة (Prehensile) ذات الأصابع الخمسة في كلّ منها. معظم الرئيسيات يكون الإبهام في أيديها وأرجلها مقابلاً للأصابع الأربع الأخرى، بحيث يستطيع الإبهام ملامسة الأصابع الأخرى من الأمام، وبذلك تتمكن

من القبض على الأشياء بين الإبهام والأصابع الأخرى. لقد فقد الإنسان تلك المقدرة في رجليه لأنّ رجلي الإنسان اختصت بالمشي وفقدت مقدرتها على القبض، وأصبح الإبهام في خط مستقيم مع باقي أصابع الرجل، أمّا باقي الرئيسيات فيمكنها القبض بالأرجل كما يمكنها ذلك بالأيدي. ومن صفات أصابع معظم الرئيسيات أنّ لها أظافر مبسطة. وهذا أيضًا يساعدها في القبض على الأشياء.

قوائم الرئيسيات محافظة، أي كما ذكرنا سابقاً، ما زالت محافظة على تركيبة قوائم البرمائيات، مع بعض التمايز بين القوائم الخلفية والأمامية خصوصاً عند الرئيسيات العليا، وبشكل أخصّ عند الإنسان. السبب في ذلك هو أنّ الرئيسيات منذ بدايتها عاشت على الأشجار، وما زال القسم الأكبر منها كذلك. ويُعتقد أنّ سبب محافظة قوائم الرئيسيات على المقدرة على القبض يعود أيضاً إلى الحياة على الشجر، حيث احتاج الأطفال إلى التمسّك بجسم الأم أثناء التنقل على الشجر، وأصبح هذا رد فعل لا إرادياً ضرورياً لبقاء النوع عند الرئيسيات، وما زال موجوداً عند جميع القردة، وبدرجة أقل عند الإنسان.

وهناك عدد من الصفات التي ما زالت الرئيسيات تمتاز بها عن غيرها من الثدييات، وتعود إلى توافقها مع الحياة على الأشجار، ومنها:

- مرونة المفاصل في القوائم خصوصاً مفاصل الكتفين.
- وجود عظمة في أعلى الصدر تصل بين الكتفين.
- عدم تخصص الأسنان.
- عدم تخصص القوائم.
- وجود العينين في مقدمة الرأس وليس على الجانبيين.
- ضعف حاسة الشم.
- صغر حجم الجسم نسبياً.
- كبر حجم الدماغ بالنسبة إلى باقي الجسم.

4. الإنسان:

الإنسان نوع من أنواع الرئيسيات. ولا نعرف تماماً متى انفصل أجداد الإنسان الأوائل عن أجداد الأنواع الأخرى من الرئيسيات. ولكن المرجح أن يكون ذلك قد حدث قبل 7-10 ملايين سنة. هناك عدد كبير من المواصفات يمتاز بها الإنسان عن باقي أنواع الرئيسيات، عدد كبير من هذه الصفات يرتبط بالوقوف والمشي على قائمتين بدلاً من أربع قوائم، منها:

-أخذ العمود الفقري شكل حرف S منفرجة.

-كبير عضلات الفخذين من الخلف.

-عدم وجود ذيل خارجي.

-الساخ أطول من الذراع وعضلاتها أقوى (عكس القردة العليا).

-اختصاص الرجلين بالمشي.

وهناك عدد كبير من الصفات الموجودة في رأس الإنسان، وتميّزه عن باقي الرئيسيات، منها:

-الجمجمة مستديرة أو كروية وليس لها مفلطحة.

-تراجع عظام الحاجبين واستواء الجبهة.

-نتوء عظم الأنف فوق مستوى الوجه.

-وجود فتحة صغيرة في الشفة العليا تحت الأنف.

-قصر الفكين وتراجع العظم بحيث يسقى مع باقي الوجه.

-الشفاه مقلوبة إلى الخارج.

-عظمبة الذقن بارزة ومدفوعة إلى الأمام.

-الأنياب قصيرة وغير متداخلة.

-فتحة التقاء الدماغ مع النخاع الشوكي موجودة في أسفل الججمة وليس في الخلف.

-عضلات الرقبة صغيرة وضعيفة.

وهنالك عدد من الصفات الأخرى التي تميز الإنسان عن باقي الرئيسيات منها:

- قلة الشعر في جسم الإنسان.
- كبر حجم الدماغ.
- فترة طفولة طويلة.
- اعتماد الطفل على الكبار لمدة طويلة.
- المقدرة على اكتساب الثقافة.

مفاهيم أساسية في الفصل

الفقاريات (Vertebrates): كائنات لها عمود فقري مقسم إلى فقرات، وتضم الأسماك والبرمائيات والزواحف والطيور والثدييات.

اللافقاريات (Invertebrates): الكائنات التي ليس لها عمود فقري وتضم الحشرات والهلاميات والديدان.

الإنسان الحديث (Homo Sapien Sapiens): هو الإنسان الموجود في الوقت الحاضر، وقد ظهر قبل حوالي 40-50 ألف سنة، ويتميز بـكبير حجم دماغه الذي يصل معدله إلى حوالي 1450 سم مكعب.

برمائيات (Amphibian): كانت البرمائيات أول الكائنات التي خرجت من الماء إلى اليابسة وهي من الفقاريات ذات الدم البارد، وهي ما بين الأسماك والزواحف على سلم التطور، وهي تضع بيوضها في الماء، منها مثلاً الضفادع.

الزواحف (Reptiles): فقاريات ذات دم بارد، تضع بيضًا، منها تطورت الطيور والرئيسيات.

يد قابضة (Prehensile Hand): يد تكون فيها الأصابع متحركة، والإبهام يقابل باقي الأصابع أو إصبعاً واحداً، ولها أظافر وليس مخالب.

ذوات الدم الحار (Warm Blooded): كائنات قادرة على الحفاظ على حرارة جسم ثابتة مثل الطيور والرئيسيات.

ذوات الدم البارد (Cold Blooded): كائنات تتغير درجة حرارة أجسامها مع تغير درجات حرارة البيئة المحيطة كما هو عند البرمائيات والزواحف.

أسئلة للنقاش والمراجعة

1. توجد عند الفقريات أفضلية على اللافقريات من حيث سرعة الحركة، ما الذي يعطي الفقريات تلك الأفضلية؟
2. ما الذي ساعد البرمائيات على الخروج قبل غيرها من الماء إلى اليابسة؟
3. ما سبب التشابه في تركيبة قوائم الرئيسيات والبرمائيات؟
4. ما سبب التمايز بين القوائم الأمامية والخلفية عند الرئيسيات؟
5. أعط ستةً من الصفات الموجودة في رأس الإنسان، والتي تميزه عن باقي الرئيسيات.

الفصل العاشر

مراحل التطور البيولوجي لأجداد الإنسان الحديث

نتابع في هذا الفصل مراحل التطور البيولوجي لأجداد الإنسان منذ انفصالهم عن أجداد الرئيسيات حتى ظهور الإنسان العاقل، ونوضح المميزات البيولوجية لكل من تلك المراحل.

1. انفصال أجداد الإنسان:

ظهرت الرئيسيات، كما ذكرنا سابقاً، قبل حوالي 70 مليون سنة. وتفرّعت الرئيسيات من الثدييات. وانقسمت الرئيسيات إلى رئيسيات دُنيا ورئيسيات عليا. وانقسمت الرئيسيات العليا إلى قردة سفلی وقردة عليا. وقد تفرّع أجداد الإنسان الأوائل من السلسلة التي أدّت إلى ظهور القردة العليا بفروعها الخمسة الموجودة في الوقت الحاضر وهي الشمبانزي والغوريلا والبونobo والجيبيون والأورابخوان. وهذا لا يعني أنّ أجداد الإنسان كانوا قروداً وإنما تفرّعوا من جد مشترك. ذلك الجد المشترك يبعد أو يختلف عن القردة بقدر ما يختلف عن الإنسان.

جاء الانفصال النهائي بين أجداد الإنسان وأجداد الرئيسيات الأخرى قبل حوالي 7-8 ملايين سنة. ولكن يصعب التمييز بين أجداد الفرعين إلاّ بعد 2-3 ملايين سنة من الانفصال. أي أنها بحد الآن هيأكل متحجرة (Fossils) لأجداد الإنسان تختلف عن أجداد الرئيسيات الأخرى بوضوح لا يقبل الشك، فقط قبل 4-5 ملايين سنة. هذه المرحلة من أجداد الإنسان تسمى مرحلة *Australopithecus* أو "قرد الجنوب". وسوف نتحدث عن أجداد الإنسان بدءاً بهذه المرحلة فقط ولا نعود إلى ما سبقها من مراحل.

2. مرحلة قرد الجنوب (أوسترالوبি�ثكس):

أول اكتشاف لفرد من أفراد هذه المرحلة جاء سنة 1924 من جنوب إفريقيا،

ولذلك سُمي Australopithecus ومعناها "قرد الجنوب". والمكتشف عالم اسمه Raymond Dart. وقد اكتشف جمجمة كاملة مُتحجرة لطفل يبلغ حوالي 5 سنوات عند موته. وهذه الجمجمة ما زالت تحفظ ببعض أسنان الحليب بالإضافة إلى بعض الأسنان الدائمة. بعد ذلك جاء اكتشاف عينات كثيرة من أفراد هذه المرحلة. هذا الكائن كان له وجه مبسط وأنابيب صغيرة وججمة كبيرة. وقد وجدت هذه الجمجمة على مسافة حوالي ألفي ميل جنوب خط الاستواء، خارج منطقة الغابات الاستوائية.

تشير مواصفات جمجمة هذا الكائن إلى أنه كان يمشي متصباً، أي على قائمتين فقط. اعتمد هذا الكائن في غذائه على الحشرات والزواحف الصغيرة والقوارض وبيوض الطيور وصغارها. وكان حجم دماغ الكبار حوالي 500 سم مكعب ، أي حوالي $\frac{1}{3}$ حجم دماغ الإنسان الحديث، ومساوياً لحجم دماغ الشمبانزي في الوقت الحاضر. وكان طوله حوالي 140 سم وزنه لا يزيد عن 50 كغم. كان يعيش في المغاور ويُستدل على ذلك من وجود عظام حيوانات صغيرة، والعديد من الأدوات الحجرية البدائية جداً، والتي تدل على أنه استعمل الأدوات الحجرية، ولكن لا نستطيع أن نجزم بأنه كان يصنعها أو يحسنها أو يغير في شكلها الطبيعي. وتظهر الأدوات في إفريقيا كلها قبل ظهورها في أيّ قارة أخرى. وقد استعمل أدوات ذات أشكال مختلفة لأغراض مختلفة مثل القطع والكسر. وتمتد هذه المرحلة من حواليخمسة ملايين إلى مليوني سنة.

3. مرحلة "الإنسان المنتصب" (هومو اركتس):

تبدأ هذه المرحلة قبل حوالي مليوني سنة وتستمر إلى ما قبل 300 ألف سنة.

تأتي بقايا الإنسان المنتصب (Homo Erectus) من أماكن مختلفة تنتشر من إفريقيا إلى الصين. أجداد الإنسان في هذه المرحلة أصبحوا مختلفون كثيراً عن المرحلة السابقة؛ فقد أصبحت أطواهم في هذه المرحلة تصل إلى حوالي 170 سم، وحجم الدماغ للذكور منهم ما بين 900-1000 سم³.

وقد عرفوا استعمال النار، وهذا ساعدهم على الانتشار في مناطق باردة وترك إفريقيا والوصول إلى الصين.

أول عينة من هذا النوع اكتشفها دوبوا Dubois سنة 1891. وفي العشرينات من القرن العشرين اكتشفت عينات كثيرة منه.

جسمه كان قريراً جداً من جسم الإنسان الحديث، إلا أنّ عظامه عموماً كانت أثخن وذراعيه أطول، والفكين أكبر، وحجم الجمجمة أصغر قليلاً، وسعتها تبلغ حوالي ثلثي سعة جمجمة الإنسان الحديث. صنع أدوات من الحجر والعظام، وصنع منها أنواعاً كثيرة بطرق مختلفة. كما نجد آثار موقدونار منذ حوالي $\frac{1}{2}$ مليون سنة، وقد استعمل طبخ المواد على النار. وكان يستعمل عصاً ذات أطراف مدببة لصيد الحيوانات الكبيرة، ويصنعها عن طريق حرق أطراف العصي الخضراء بالنار ثم فركها بالحجارة، واصطاد بها الغزلان والغنم والجاموس والجمال والنعام والخنازير.

يعتقد أنّ صيد هذه الحيوانات تطلب تعاوناً وتنسيقاً وتقسيماً في الوظائف، كما يعتقد أنّ هذا تطلب وجود لغة، كما يعتقد أنّ الإناث كانت تقوم بجمع البذور والجذور والفواكه.

وصل أجداد الإنسان في هذه المرحلة إلى أوروبا قبل حوالي 750 ألف سنة. قبل حوالي 300-250 ألف سنة دخل أجداد الإنسان مرحلة جديدة هي مرحلة الإنسان النيندرثالي.

4. مرحلة الإنسان النيندرثالي (Neanderthal Man):

تمتد هذه المرحلة من قبل حوالي 250 ألف سنة إلى حوالي قبل 35 ألف سنة. وُجدت بقايا هذا الكائن من شمال إفريقيا وأوروبا والشرق الأوسط ومناطق أخرى من آسيا. وقد جرى تبويبه في البداية على أنه نوع مستقل، ولكنه الآن يُعتبر فرعاً من النوع نفسه مثل الإنسان الحديث Homo Sapiens والتي تعني "الإنسان العاقل"، فيُعرف بـ"الإنسان العاقل النيندرثالي". بينما يُعرف الإنسان الحالي بـ"الإنسان العاقل العاقل".

كان جسم الإنسان النيندرثالي شبيهاً جداً بالإنسان المنتصب (هومو أركتيس) ولكنه كان أقصر، إذ كان طوله حوالي 150 سم ولكن حجم

جمجمته أكبر بكثير بحيث تفوق بالمعدل حجم جمجمة الإنسان "العقل العاقل" أي الحديث، ولا يوجد أي تفسير مقبول على جميع العلماء لهذه الظاهرة حتى الآن. وكانت ججمته كبيرة مع امتداد بارز إلى الخلف. كان الإنسان النيندراطي حاذقاً في صنع الكثير من الأدوات من الحجر والخشب والعظم والعاج، وكان يصنع ما يزيد على 60 نوعاً من الأدوات، بعضها مكون من مادتين مختلفتين، مثل رؤوس الحراب الحجرية المركبة على عصي خشبية. في أواخر هذه المرحلة، أي قبل 50-30 ألف سنة، نجد ظهور الحفر على العظم والعاج وعمل تماثيل صغيرة من العاج. ويظهر أنهم كانوا يدفنون موتاهم ويضعون معهم بعض الأدوات، والعديد من جماجم الدببة، مما يوحي بأنهم ربما كان لديهم بداية ديانة، وأنهم كانوا يعبدون الدببة.

مفاهيم أساسية في الفصل

متحجرات (fossils): بقايا متحجرات لأنواع كائنات قديمة بقيت محفوظة في التراب أو في الصخور.

حجم الدماغ (Brain Size): يقصد به معدل حجم دماغ الكبار من ذلك النوع. والمهم بالنسبة للنوع ليس الحجم المطلق، وإنما نسبة حجم الدماغ إلى حجم الجسم ككل.

استعمال الأدوات (Tool Using): استعمال أدوات موجودة في الطبيعة دون إجراء أي تغيير عليها والاعتماد عليها من أجل البقاء، مثل استعمال الحجارة.

صنع الأدوات (Tool making): إجراء تغييرات على مواد موجودة في الطبيعة لجعلها أصلح لإنجاز مهام معينة، والاعتماد عليها من أجل البقاء.

اقتصاد الصيد والجمع (Hunting Gathering): استراتيجية تتوافق مع البيئة الطبيعية من أجل البقاء، وتعتمد بشكل رئيس على جمع مصادر الطعام المتوفرة في البيئة، مثل جمع النباتات البرية، وصيد الحيوانات البرية، وصيد الأسماك.

الإنسان العاقل (Homo Sapien): الإنسان الذي ظهر قبل حوالي 300 ألف سنة ويضم الإنسان النيandertالي *Homo Neanderthalensis* والإنسان الحديث *Homo Sapien Sapien*.

أسئلة للنقاش والمراجعة

1. هل تعتقد أن أصل الإنسان " قرد"؟ وضح الجواب.
2. مع أن أجداد الإنسان انفصلوا عن أجداد الرئيسيات الأخرى قبل حوالي 7-8 ملايين سنة، إلا أننا لا نجد متحجرات لأجداد الإنسان تختلف بوضوح، لا يقبل الشك، عن متحجرات أجداد الرئيسيات الأخرى، إلا قبل 4-5 ملايين سنة. كيف تفسر ذلك؟
3. هل كان قرد الجنوب قادرًا على عمل أدوات حجرية؟
4. قارن بين الإنسان النيandريالي والإنسان المتتصب من حيث البنية الجسدية.
5. قارن بين الإنسان النيandريالي والإنسان المتتصب (هومو اركتس) من حيث مقدراته الثقافية.



الفصل الحادي عشر

مراحل التطور الثقافي لأجداد الإنسان

ناتج في هذا الفصل مراحل التطور الثقافي لأجداد الإنسان، منذ ظهور الإنسان العاقل العاقل، حتى ظهور الزراعة، ونوضح المميزات الثقافية لكل منها، ونتوسع بشكل خاص في مرحلة ظهور الزراعة.

1. علم الآثار:

ظهر الإنسان الحديث (*Homo Sapien Sapien*) قبل حوالي 40-50 ألف سنة. منذ ذلك التاريخ لم يتغير الإنسان بيولوجيًا بشكل ملحوظ، ولم يتغير حجم دماغه، ولكن ظهرت تغييرات كثيرة وسريعة في أسلوب حياته، أي في ثقافته.

في المراحل السابقة تحدثنا بشكل رئيس عن تغيرات بيولوجية، أي تغيرات في شكل جسم أجداد الإنسان الحديث وفي تركيبة أجسامهم. الحقل الذي يعالج ذلك النوع من المعطيات هو حقل الأنثروبولوجيا الطبيعية (Physical Anthropology). ننتقل الآن إلى مراحل تطور ثقافة الإنسان، أي بمجموع أساليب حياة الإنسان المتعلمة، أو غير الموروثة بالجينات. ونتعرف على ثقافات الإنسان في الماضي من خلال الآثار المادية التي تركها، أي التكنولوجيا أو الأدوات، ومنها نحاول فهم النواحي غير المادية، أي سلوك وطرق تفكير الناس الذين صنعوا واستعملوا تلك الأدوات. الحقل الذي يقوم بهذا النوع من الدراسات هو حقل الأركيولوجيا أو علم الآثار (Archeology). فنحن في هذه الوحدة نتحول من أحد فروع علم الإنسان إلى فرع آخر - إلى علم الآثار ومن مراحل تطور بيولوجية إلى مراحل تطور ثقافية، ويجدر بنا أن نذكر هنا أن علم الآثار، مع أنه غالباً ما يتعامل مع أدوات وأشياء مادية ملموسة، إلا أن الغرض النهائي من ذلك هو التعرف على السلوك والثقافة لمجتمعات لم تعد موجودة. ولذلك

فإنّ هذا الحقل هو فرع من فروع الأنثروبولوجيا الاجتماعية – الثقافية.

1-العصر الحجري القديم:

ظهر الإنسان الحديث، كما ذكرنا، قبل حوالي 50 ألف سنة. تزامن ظهور الإنسان الحديث مع بداية تراجع الجليد، أي مع بداية انتهاء العصر الجليدي الأخير. تراجع الجليد إلى الشمال نحو القطب حالقاً مناطق سهلية عشبية واسعة في النصف الشمالي من آسيا وأوروبا. أدى ذلك إلى انتعاش وتكاثر أعداد الثدييات الكبيرة التي كان يعيش الإنسان على اصطيادها منذ أيام الإنسان المتتصب (هومو اركتس)، وهذا أدى إلى انتعاش وتكاثر أعداد الإنسان الذي تبع هذه الحيوانات الكبيرة إلى السهول الشمالية. وتقدّمت ثقافته بسرعة كبيرة جداً خصوصاً أدوات صيد الحيوانات الكبيرة. وكان من الأدوات الحديثة التي استحدثها الإنسان في تلك المرحلة مثلاً رامي الحراب وهي أداة ساعدت الإنسان على رمي الحراب ذات الرؤوس الحجرية الحادة بقوة كبيرة إلى مسافات بعيدة. وفيما بعد اخترع الإنسان القوس والنشاب، وحراباً مربوطة بخيوط طويلة لصيد السمك، ثم عمل صنانيير من عظم لصيد السمك، وعمل قوارب بتفریغ جذوع الشجر الكبيرة. وعمل أدوات دقيقة من العظم منها الإبر، وظهرت قلائد من الصدف وأسنان الحيوانات وفقرات الأسماك للزينة. فيما بعد، أي حوالي قبل 35 ألف سنة، تظهر الرسوم على جدران الكهوف في جنوب أوروبا، والرسوم على الأدوات. وتشير هذه الرسومات إلى وجود طقوس دينية وسحرية. كما نجد تماثيل الخصوبة بشكل جسم امرأة مصنوعة من الفخار المحفف في الشمس، ودفنت أدوات الزينة وأدوات الصيد مع الموتى في القبور. ازدادت أعداد الإنسان الحديث بسرعة كبيرة وانتشر في معظم نواحي العالم بسرعة، إذ وصل إلى اليابان وأستراليا قبل حوالي 30 ألف سنة. كما وصل إلى سيبيريا ومنها إلى أمريكا قبل 20-30 ألف سنة.

يقسم العلماء مراحل تطور ثقافة الإنسان بالنسبة لأنواع الأدوات الحجرية التي استعملت في المراحل المختلفة، فتسمى المرحلة منذ بداية استعمال

الأدوات الحجرية حتى قبل 15 ألف سنة بالعصر الحجري القديم، والمرحلة من 15 ألف إلى 10 آلاف بالعصر الحجري المتوسط، ومن 10 آلاف سنة حتى انتهاء استعمال الأدوات الحجرية بالعصر الحجري الجديد، وتدعى هذه المراحل بالترتيب باللغة الانجليزية:

Paleolithic -

Mesolithic -

Neolithic -

2- العصر الحجري الوسيط:

هذا العصر هو عصر انتقالي بين الحجري القديم والجديد، ويمتد حوالي 5 آلاف سنة فقط وليس له مميزات خاصة به لأنه عبارة عن مرحلة انتقالية. في هذه المرحلة كان تراجع الجليد قد توقف، أي وصل العصر الجليدي الأخير نهايته، واستقر طقس الكرة الأرضية وتوزيع النباتات والحيوانات بالشكل الذي هي عليه في الوقت الحاضر. كان الإنسان ما زال يعتمد على الصيد والجمع كما كان الحال منذ عصر الإنسان المنتصب (هومو أركتس)، ولكن كان قد أصبح لدى الإنسان أدوات فعالة جداً لصيد الحيوان والسمك، بحيث أصبحت المجموعات الإنسانية لا تحتاج إلى التحول في مساحات واسعة للحصول على الغذاء؛ أي أنّ مساحات وأوقات الصيد والجمع تقلّصت كثيراً، لكن لم يكن الإنسان قد استقر تماماً ولم يكن قد عرف كيف يدّجن الحيوانات أو النباتات. والكائن الوحيد الذي جرى تدجينه في هذه المرحلة هو الكلب. وقد جاء ذلك عفويّاً نتيجة تقارب تدريجي ومستمر منذ عدة آلاف من السنين. وذلك نتيجة اعتماد النوعين على متابعة قطعان الغزلان في سيبيريا واصطيادها. وأخيراً فإنّ المصلحة المشتركة جعلت النوعين يشتراكان في صيد هذه الحيوانات والعيش على لحومها.

3- العصر الحجري الحديث

بدأ العصر الحجري الحديث قبل حوالي عشرة آلاف سنة وهو العصر الذي بدأ فيه نوع الحياة المستقرة في قرى تعتمد على الزراعة، أي تدجين الحيوانات والنباتات، وأقدم ظهور للزراعة والقرى المستقرة جاء من الهلال الخصيب، واستمر استعمال الأدوات الحجرية في هذه المنطقة حتى حوالي قبل 5500 سنة وهذا هو تاريخ انتهاء العصر الحجري الحديث في الشرق الأوسط أما في باقي أجزاء العالم فهو يمتد حتى الانتهاء من استعمال الأدوات الحجرية في ذلك الجزء من العالم وهذا يعني أن هناك بعض القبائل التي ما زالت حتى الآن أو حتى قبل فترة قصيرة في العصر الحجري الحديث.

أهم مظاهر هذا العصر هي تدجين الحيوانات أي استعمال الرعي بدلاً من الصيد، ثم استعمال الزراعة بدلاً من الجمع، والاستقرار في قرى ثابتة بدلاً من التنقل المستمر.

تدجين الحيوانات والنباتات جعلها تعتمد على الإنسان لبقائهما، لأن الإنسان أصبح بالنسبة للنباتات والحيوانات الداجنة هو الذي يقوم بالانتقاء بينها ويقرر الصفات المرغوبة فيها بدلاً من الانتقاء الطبيعي، أي أن الإنسان في هذه الحالات أدى إلى تعطيل الانتقاء الطبيعي، وبذلك ظهرت عند هذه الحيوانات والنباتات صفات تجعلها لا تستطيع الحياة في الظروف الطبيعية تحت تأثير الانتقاء الطبيعي أي أصبحت لا تستطيع البقاء بدون الاعتماد على الإنسان.

المراكز الأولى لظهور الزراعة:

كانت المجموعات الإنسانية تتعلم الزراعة وتربية الحيوانات من بعضها البعض، ولكن يعتقد أن هناك ثلاثة مراكز في العالم نشأت فيها الزراعة بشكل مستقل عن بعضها البعض ولم يعرف كل منها عن الآخر أو يتعلم منه، هذه المراكز هي:

المركز الأول: الهلال الخصيب:

بدأت الزراعة في الهلال الخصيب قبل حوالي 10 آلاف سنة في الوديان الخصبة في جبال "زغروس" في شمال العراق عند نقطة التقاء العراق وإيران وتركيا في الوقت الحاضر.

أول النباتات التي جرت زراعتها هناك هي القمح والشعير، الأجداد أو الأصول البرية لهذه النباتات ما زالت موجودة في الوديان وسفوح الجبال على ارتفاعات تتراوح بين 750-1000 متر، وبدأت الزراعة عن طريق البستنة (Horticulture) أي حفر الأرض باليد بواسطة عصي مدببة.

أول حيوانات جرى تدجينها في شمال العراق كانت الماعز والغنم قبل حوالي 9500 سنة وتلتها بعد ذلك بحوالي 500 سنة البقر والخنازير. وما زالت الأجداد البرية لهذه الحيوانات تعيش في المناطق نفسها التي يعيش فيها القمح والشعير البري أي أن التدجين جرى أولاً في الواقع ذاتها التي عاشت فيها هذه النباتات والحيوانات في الطبيعة.

بعد ذلك بحوالي 3000 سنة دُجِنَ الحصان في أوكرانيا، وحوالي قبل 5000 سنة من الوقت الحاضر دُجِنَ الحمار في مصر. ويظهر أن تدجين الحيوانات جاء لغرض استعمال لحومها وجلودها أمّا الاستفادة من حليبها فقد جاء في مرحلة لاحقة.

المركز الثاني: جنوب شرق آسيا:

جاءت الزراعة في جنوب شرق آسيا تقربياً في الوقت نفسه الذي ظهرت فيه في الهلال الخصيب أو بعده بقليل، وكانت النباتات التي دُجِنت في جنوب شرق آسيا هي الفاصوليا، والقطن، والبطاطا الحلوة، والقرع الرقابي (البيقطين)، والخيار، ولم تبدأ زراعة الأرز إلاً قبل حوالي 3500 سنة.

المركز الثالث: أمريكا الوسطى:

جاءت الزراعة والتดجين في أمريكا الوسطى بعد مدة لا تزيد عن 500-1000 سنة من الهلال الخصيب وجنوب شرق آسيا وكانت النباتات

التي زرعت هي الفاصلوليا، والقرع، واليقطين، والذرة البيضاء، والبطاطا، والفليفلة، والتبغ، وزرع اليقطين في مرحلة متأخرة أي قبل حوالي 4 آلاف سنة.

أما الحيوانات التي دجنت في أمريكا الوسطى فهي البطة والحبش واللاما والإلبياكا والنحل.

الأدوات الحجرية في العصر الحجري الحديث:

أصبحت الأدوات الحجرية تُصنع بالفرك أو النحت بدلاً من الطرق، وصنعوا أدوات تشبه البلطة والقدوم وترتبط على عصا أو يكون الحجر مثقوباً وتدخل فيه العصا. كما صنعوا أجراناً ومدقّات حجرية لطحن الحبوب، وعملوا مناجل من شظايا صوان موضوعة في فك سفلي لحيوان مثل البقر والماعز، كما صنعوا أوعية على شكل صحن أو طاسة حجرية.

النسيج:

بدأ النسيج في العصر الحجري الحديث بعمل السلال والمحسر، وجعلوا يغزلون خيطاناً من ألياف النبات أو من الصوف، ثم ينسجون هذه الخيوط لعمل قماش أصبح يستعمل بدلاً من الجلد في الملابس، وفي هذا العصر صنعوا النول للنسيج. أما القطن فقد عُرف في الهند قبل حوالي 5 آلاف سنة، وزرع في أمريكا الوسطى بعد ذلك بحوالي ألف سنة.

صناعة الفخار:

وُجد الفخار في المجتمعات المستقرة ولذلك ارتبط عادة بالزراعة، ولكن الشيء الضروري هو الاستقرار وليس الزراعة ولذلك فإنّ أول صناعات للفخار -ما عدا تماثيل الخشب التي ذكرت سابقاً- عُرفت في اليابان وتعود إلى ما قبل حوالي 12600 سنة مع أنه لم تكن الزراعة معروفة هناك، ولكن يظهر أنه كانت هناك حياة مستقرة في قرى دائمة قامت على صيد السمك والكائنات البحرية. وفي المقابل الخصيب ظهرت صناعة الفخار في بداية العصر الحجري الحديث مع بداية الزراعة والاستقرار، أما في



الأمريكيتين فلم يظهر الفخار إلا قبل حوالي 5 آلاف سنة، ومع أن الفخار لا يتناسب مع حياة التنقل إلا أن بعض الجماعات غير المستقرة التي ما زالت تعتمد على الصيد والجمع مثل الأسكيمو والبوشين وجد الفخار عندها.

عند بداية صناعة الفخار في الهلال الخصيب في أوائل العصر الحجري الحديث لم يكن الدوّلاب أو عجلة الفخار معروفة بل كان الفخار يُصنع بإضافة أدوار جديدة فوق بعضها ثم يترك كل دور ليجف ثم يضاف دور آخر، كذلك لم يكن الفخار في البداية مزخرفاً حتى قبل حوالي 7500 سنة.

مفاهيم أساسية في الفصل

علم الآثار(Archaeology): فرع من فروع علم الإنسان يختص بدراسة الثقافات البائدة عن طريق الحفريات واستعادة البقايا المادية.

الأنتربولوجيا الطبيعية(Physical Anthropology): فرع من فروع علم الإنسان، يتعاطى مع بني الإنسان كنوع بيولوجي، من حيث التطور البيولوجي، ومن حيث صفاته كمجموعة من الكائنات البيولوجية، ومن حيث تنوعاته البيولوجية.

العصر الحجري القديم(Paleolithic): يمتد منذ بداية استعمال الإنسان الأدوات حتى قبل حوالي 15 ألف سنة قبل الميلاد (في منطقة الهلال الخصيب).

العصر الحجري الوسيط(Mesolithic): الفترة الانتقالية بين العصر الحجري القديم والحديث، وتمتد من حوالي 10-15 ألف سنة قبل الميلاد (في منطقة الهلال الخصيب).

العصر الحجري الحديث(Neolithic): وهي المرحلة التي جرى فيها تدجين الحيوانات والنباتات في العالم القديم، وتمتد من قبل حوالي 4-10 آلاف سنة قبل الميلاد.

عصر جليدي(Ice Age): فترة طويلة يتقدم فيها الثلج من القطبين نحو خط الاستواء، وتنخفض فيها درجة حرارة الجو وسطح الأرض كثيراً، وتأتي بعدها فترة دافئة نسبياً. ويُعتقد أن الأرض مرت بخمسة عصور جليدية، انتهت آخرها قبل حوالي 20-15 ألف سنة، أي في بداية العصر الحجري الوسيط.

رامي الحراب (Spear Thrower): لوح صغير من الخشب، محفور فيه خطوط، يستعمل لرمي الحراب بقوة إلى مسافات بعيدة، جرى اختراعه في العصر الحجري القديم الأعلى في العالم القديم، وساعد الإنسان كثيراً في صيد الحيوانات الكبيرة.

القوس والنشاب (Bow and Arrow): أداة صيد مكونة من قوس خشبي مرن، مربوط بخيط من طرفيه، وسهم مدبب. يرمي القوس الأسهم بقوة إلى مسافات بعيدة. جرى اختراعه أثناء فترة الانتقال من العصر الحجري القديم إلى الوسيط، أي قبل حوالي 15-20 ألف سنة. استعمل في الصيد والحروب، حتى ظهرت استعمال مسحوق البارود.

رسومات الكهوف (Cave Paintings): رسومات موجودة على جدران بعض الكهوف وسقوفها، ويعود بعضها إلى عصور ما قبل التاريخ، ويصل تاريخ بعضها إلى حوالي 40 ألف سنة في آسيا وأوروبا، ولا نعرف الهدف الحقيقي لاستعمالها، ولكن يعتقد أنها ربما استعملت في طقوس دينية أو سحرية.

تدجين الحيوانات (Domestication): ضبط سلوك الحيوانات من قبل الإنسان، وإطعامها وضبط تحركها وتزاوجها وتتكاثرها، بحيث يزيد من وجود الصفات المرغوبة فيها، ويجعلها غير قادرة على البقاء في البيئة الطبيعية وحدها. وقد تزامنت فترة تدجين الحيوانات مع مرحلة اكتشاف الزراعة، قبل حوالي 10 آلاف سنة.

تدجين النباتات (Cultivation): التحكم بزمان نمو النباتات ومكانتها وبتكاثرها، بحيث تزداد فيها الصفات المطلوبة من قبل الإنسان، وجعلها معتمدة على خدمات الإنسان، بحيث يصبح من الصعب بقاوها في البيئة الطبيعية.

الزراعة (Agriculture): طريقة إنتاج الطعام النباتي باستعمال المحراث والطاقة الحيوانية، وأحياناً باستعمال الرّى والتسميد. وقد ظهرت الزراعة

أولاً في الهلال الخصيب قبل حوالي خمسة آلاف سنة. وذلك بعد استعمال البستنة منذ حوالي 10 آلاف سنة.

البستنة (Horticulture): هي أولى الطرق التي استعملها الإنسان لتدجين النباتات وإنتاج الطعام النباتي قبل حوالي 10 آلاف سنة. وذلك باستعمال عصا مدببة والاعتماد على طاقة الإنسان.

المنجل (Sickle): أداة ذات مقبض وشفرة مقوسة تستعمل في الزراعة لقص النباتات أو حصدتها، وكانت تصنع أصلاً بوضع قطع صُوّان صغيرة مسننة في الفجوات مكان الاسنان في عظام الفك السفلي للحيوانات.

الفخار (Pottery): أوانٌ تصنع من نوع تربة معينة (حثّان) باليد أو باستعمال دولاب وتحفف بالشمس أو في أفران. جاءت مع بداية الزراعة والاستقرار. وقطع الفخار من أهم بقايا الثقافة المادية التي يستعملها علماء الآثار.

أسئلة للنقاش والمراجعة

1. علم الآثار غالباً ما يتعامل مع الأدوات وغيرها من البقايا المادّية، ومع ذلك فإنه يعتبر فرعاً من فروع الأنثربولوجيا الثقافية. كيف تفسر ذلك؟
2. كيف تربط بين تراجع الجليد، أي نهاية العصر الجليدي الأخير، وانتشار الإنسان الحديث في النصف الشمالي من آسيا وأوروبا؟
3. يقال إن "المصلحة المشتركة" أدّت إلى تدجين الكلب أثناء مرحلة العصر الحجري المتوسط Mesolithic. ما معنى ذلك؟
4. متى انتهى العصر الحجري الحديث؟
5. هل تستطيع الحيوانات الداجنة الموجودة عند الإنسان اليوم الحياة في الطبيعة كما عاش أجدادها قبل التدجين؟ برهن جوابك.

الفصل الثاني عشر

ظهور الحضارات

ظهرت الحضارات قديماً أولاً على ضفاف الأنهار في العراق ومصر والهند وأمريكا الوسطى. ولكن متى يصل شعب من الشعوب إلى المستوى الذي نسميه "حضارة"؟ وكيف نعرف ما نسميه "حضارة"؟ وما هي المعايير التي ت Howellنا إطلاق اسم "حضارة" على ثقافة من الثقافات؟

هناك عدد كبير من المعايير التي استعملت لتمييز "الحضارات" عن تلك الثقافات التي لم تصل بعد إلى مستوى "حضارة"، ولكن لم يتفق الدارسون والمحترفون على معيار واحد منها يميز "الحضارات" عن غير الحضارات. من المعايير التي طرحت مثلاً وجود المدن. لكن هذا المعيار يصطدم بمشكلتين: المشكلة الأولى هي أنه من الصعب معرفة متى تصبح قرية من القرى أو بلدة من البلدان "مدينة". والمشكلة الثانية أن هناك عدداً من الثقافات يتّفق الجميع على وصفها بالحضارات مع أنه لم يكن فيها مدن. من هذه الحضارات مثلاً حضارة مصر القديمة والتي لم تكن فيها مدن إلا بعد السلالة الثامنة عشرة. كذلك لم تكن هناك مدن في حضارة "كريت" القديمة، مع أنه لا يختلف اثنان على تسمية أي من هاتين الثقافتين بالحضارة.

كذلك استُعمل وجود الكتابة كمعيار للحضارة. هنا نجد أن كلاً من حضارة مصر القديمة وحضارة كريت لم يكن فيها مدن ولكن كان لدى كل منهما نظام كتابة، بينما كان عند كل من حضارة السومريين وحضارة الهند القديمة مدن وكتابة، ولكن حضارة "إنكا" في "بيرو" كان فيها مدن ولم يكن لديها نظام كتابة.

لقد اعتُبر أيضاً استعمال "البرونز" معياراً للحضارة لأن صناعة البرونز كانت موجودة في جميع "حضارات" العالم القديم أثناء ما يسمى بالعصر البرونزي ما بين 3500-1500 سنة قبل الميلاد، ولكننا نجد أن حضارة "الأزتك" في

المكسيك لم تكن تعرف استعمال البرونز مع أنها كانت تستعمل معدنيّ النحاس والذهب.

وقد طرحت معايير أخرى بالإضافة إلى وجود المدن والكتابة واستعمال البرونز، منها مثلاً: وجود حكومة مركزية، أو جود أبنية عامة ضخمة باستعمال الجماهير، ووجود تقسيم طبقي واضح، ووجود تقسيم عمل وظهور الاختصاص في الوظائف والمهن، وظهور التجارة والإدارة، ظهور الحروب والجيوش المنظمة، ووجود معرفة متقدمة في حقول مثل الفلك والرياضيات، وظهور حساب الرزنامات، وظهور زراعة منتجة ووجود فائض من المنتوج الزراعي.

من الواضح أن وجود أي من هذه المعايير وحده لا يكفي لخلق "حضارة". كذلك فإن غياب أي منها لا يمنع من ظهور "حضارة". ولكن لا يمكن إطلاق صفة حضارة على ثقافة من الثقافات دون أن يتوفّر فيها عدد كبير من هذه المعايير.

دعونا نوضح بعض هذه المعايير بشيء من التفصيل:

1. وجود زراعة منتجة:

إذا نظرنا إلى جميع الحضارات القديمة، سواء في العالم القديم أو في الأمريكتين، فإننا نجد أن هناك عاملاً مشتركاً بينها جميعاً هو وجود الزراعة المنتجة والقادرة على توفير فائض من الغذاء. إن توفر هذا المعيار لا يضمن حتماً ظهور حضارة، ولكن توفره كان شرطاً أو متطلباً ضرورياً لظهور الحضارات. وهذا لا ينطبق على أي معيار آخر من المعايير التي ذكرناها أعلاه. الزراعة المنتجة توفر فائضاً من الغذاء، وهذا يحرر عدداً كبيراً من السكان من العمل الزراعي وإنتاج الغذاء الضروري لحياتهم. وهذا بدوره يسمح بظهور التفرغ والاختصاص في مهن وحرف أخرى غير الزراعة وإنتاج الغذاء، ما يسمح بتجمّع أعداد كبيرة من السكان في مدينة واحدة أو منطقة جغرافية صغيرة، وينخلق الاعتماد المتبادل بين فئات المجتمع ذات الاختصاصات المختلفة.

ظهور الزراعة المنتجة ذات الفائض الغذائي يتطلب ظهور عدد من التطورات التي تجعلها ممكنة. من هذه التطورات الضرورية لظهور الزراعة عالية الإنتاج، والتي ظهرت أثناء العصر البرونزي، أي ما بين 3500-1500 قبل الميلاد ما يأتى:

أ. محركات تجربة الشيران: وقد ظهر ما بين النهرين ومصر والهند في الوقت نفسه تقريباً وذلك حوالي 3آلاف سنة قبل الميلاد، أي قبل حوالي 5آلاف سنة من الوقت الحاضر، ويعتقد أنه اخترع أولاً في بلاد ما بين النهرين (Mesopotamia) ثم انتقلت الفكرة إلى الهند ومصر. هذا الاختراع سمح باستعمال طاقة الحيوان بدلاً من طاقة الإنسان في حراثة الأرض، وهذا هو الفارق بين ما يسمى بالبسنة (Horticulture)، التي تستعمل الجهد الإنساني، والزراعة (Agriculture) التي تستعمل جهد الحيوان. هذا يعني أن "الزراعة" خولت الإنسان أن يستغل مساحات من الأرض أوسع بكثير وينتج كميات أكبر من الغذاء، بجهد ووقت أقل بكثير مما كان يبذله في "البسنة".

ب. عربات تجرها الشيران: وكانت لهذه العربات عجلات خشبية واستعملت لنقل المحاصيل وأيضاً لدرس محاصيل الحبوب.

ج. مناجل معدنية: وتشير الآثار إلى أن المناجل المعدنية كانت مستعملة لحصد الحبوب منذ حوالي 3آلاف سنة قبل الميلاد. وقد ظهر في الوقت نفسه تقريباً أداة مهمة وهي الفأس المعدنية، كما استعمل السومريون بوقاً أو محقناً معدنياً مركباً على المحركات تُسقط الحبوب من خلاله في بطن تلم المحركات.

د. مخازن ضخمة للحبوب: وقد وُجدت هذه في حضارات العالم القديم (ما بين النهرين ومصر والهند) ويدل وجودها على وجود فائض ضخم من الحبوب، أي أن المزارعين في هذه الحضارات القديمة كانوا يُنتجون أكثر بكثير مما كانوا يحتاجون أو يستهلكون.



هـ. قنوات الري: ويلاحظ أن مراكز الحضارة القديمة الثلاثة ما بين النهرين ومصر والهند، كانت جميعها مناطق جافة تمر فيها أنهار كبيرة، واستعملت فيها أنظمة رى تحلب مياه الأنهار إلى هذه المناطق الجافة. وكان أقدم نظام رى قد ظهر في بلاد ما بين النهرين. وسمح نظام الرى بإقامة قرى زراعية دائمة على مسافات أبعد فأبعد عن الأنهار، وتمكن المزارعون في هذه الحضارات القديمة عن طريق أنظمة الرى من إنتاج محصولين سنويًا من هذه الأراضي الجافة، ولم يعودوا يعتمدون في زراعتهم على مياه الأمطار. أما في حضارات أمريكا الوسطى القديمة فقد جاء استعمال أنظمة الرى متأخرًا عنه في حضارات العالم القديم، إذ ظهرت قنوات الرى قبل حوالي 2000 سنة. وتمكن الهنود الحمر في هذه الحضارات القديمة من إنتاج محصولين أو ثلاثة محاصيل سنويًا بفضل أنظمة الرى هذه. كان التعاون لحفر قنوات الرى الكبيرة والحفاظ المستمر عليها، والإشراف على حل النزاعات الناجمة عن توزيع مياه الرى وعن استغلال الأراضي القرية من مصادر المياه بحاجة إلى نوع من السلطة المركزية. وربما كانت هذه الحاجة وراء نشوء تنظيم أول جهاز سياسي – إداري مركزي في المدن السومرية القديمة التي كونت كل مدينة منها شبه دولة صغيرة مستقلة.

2. وجود المعالم العمرانية الضخمة: وجدت في جميع مراكز الحضارة القديمة أبنية ضخمة، وإدارة أعداد كبيرة من العمال والحرفيين. ففي مصر بحد الأهرامات، وفي بلاد ما بين النهرين بحد أراجاً ضخمة تصعد بشكل لولبي وتسمى "زغورات" Ziggurat، وفي حضارة الهند القديمة بنوا تللاً ضخمة من التراب استعملت كقلاء، كذلك أقيمت أهرامات ضخمة في حضارات أمريكا الوسطى القديمة.

3. التقسيم الطبقي: تشير الآثار المتبقية من الحضارات القديمة للعالم القديم، إلى وجود تقسيم طبقي واضح. وأكثر ما يظهر ذلك من أنواع البيوت التي كانوا يعيشون فيها. ففي حضارة السومريين ما بين النهرين،

وفي حضارة مصر القديمة يظهر أنه كان هناك أربع طبقات: طبقة الحكام والنبلاء، والطبقة المتوسطة، وطبقة الفقراء وأخيراً طبقة العبيد. وكان العبيد غالباً من أسرى الحروب، وكانوا يعملون عادة في المحاجر والمناجم. وكان هناك تقسيم طبقي رباعي واضح بين سكان حضارات أمريكا الوسطى القديمة، ويلاحظ أن نظام العبودية كان معروفاً ومشروعاً لدى جميع الحضارات القديمة في العالمين القديم والجديد.

4. التقسيم الوظيفي: أثناء العصر الحجري الحديث (Neolithic)، الذي سبق ظهور الحضارات الأولى، لم يكن هناك الكثير من الاختصاص في العمل، سوى تقاسم الأعمال بين الجنسين، إذ قام الرجال بالصيد وزراعة الحقول، بينما قامت النساء بنسج القماش وصناعة الفخار، ولم يكن هناك الكثير من المهن أو الحرف الأخرى.

5. الاختصاص في العمل: عندما أصبحت الزراعة ذات إنتاج عال أثناء العصر البرونزي، أصبح هناك فائض من المواد الغذائية، ولم يعد كل القادرين على العمل مضطرين للعمل في إنتاج الغذاء. هذا، بالإضافة إلى الاختراعات التكنولوجية العديدة التي ظهرت في هذه المرحلة، ما أدى إلى وجود اختصاصات كثيرة في العمل وأصبح هناك طبقة من الناس المتفرغين للحكم والإدارة، وأصبحت هذه الحكومات أو الورادات المركزية تجمع فائض المنتوج الزراعي خصوصاً الحبوب، وتخزنها في مخازن كبيرة، وتستعملها حسب الحاجة، خصوصاً في حالات القحط والجفاف (قصة يوسف).

من أهم الاختصاصات التي ظهرت في هذه المرحلة ما يأتي:

1. صناعة الأدوات المعدنية: تتطلب صناعة الأدوات المعدنية الكثير من المعرفة الفنية التي لم يكن يمتلكها إلا عدد قليل من المختصين. فصناعة المعادن تحتاج، إلى معرفة في استخراج المعادن، وتنقيتها، وصهرها على

درجات حرارة عالية، وصناعة القوالب المناسبة، وسكب المعادن. ويظهر أن صناعة المعادن بدأت باستعمال النحاس، ولكن النحاس في حالته الطبيعية معدن طري ولا يصلاح لصنع أدوات مثل الفؤوس والمناجل. ثم اكتشف الإنسان، قبل حوالي خمسة آلاف سنة، صناعة البرونز الذي هو مركب من النحاس والقصدير، وهو أصلب بكثير من أي من المعدنين منفرداً، وحلَّ بذلك مشكلة صناعة الأدوات من المعادن.

ظهرت صناعة البرونز لأول مرة في التاريخ في شمال شرق تايلاند حوالي 3600 قبل الميلاد، وبعدها بمنتهى قصيرة في بلاد ما بين النهرين، ثم في الصين بعد ذلك بحوالي 1000 سنة. أما في حضارات أمريكا الوسطى فقد بدأ استعمال المعادن حوالي 3000 سنة قبل الميلاد، ولكنهم لم يعرفوا صهر المعادن وسكبها إلا حوالي 700 سنة قبل الميلاد. وقد استعملت الحضارات القديمة في العالمين القديم والجديد أسلوباً معقداً في صناعة الأدوات عن طريق استعمال قوالب الشمع المغلفة بالفخار.

2. صناعة الفخار: من الاختصاصات الهاامة في العصر البرونزي كانت صناعة الأدوات الفخارية. كانت صناعة الفخار موجودة منذ بداية العصر الحجري الحديث في مناطق شمال العراق أي قبل حوالي عشرة آلاف سنة، وقبل ذلك بحوالي 3 آلاف سنة في جنوب شرق آسيا. أثناء فترة ما قبل العصر البرونزي لم تكن صناعة الفخار خاصة بجماعات معينة بل كانت النساء في كل عائلة يصنعن ما يحتاجنه من الأواني الفخارية بأنفسهن، وعن طريق بناء الآنية المطلوبة على أدوار متتابعة فوق بعضها حتى تكتمل. في بداية العصر البرونزي أي في القرن الرابع قبل الميلاد ظهر في بلاد ما بين النهرين اختراع تكنولوجي جديد هو "الدولاب" الذي يدار باليد أو بالرجل. أصبحت صناعة الفخار بواسطة الدولاب عملية سريعة ومنتجة، ولكنها بحاجة إلى تدريب طويل لاكتساب المهارة المطلوبة. ولكن بعد اكتساب المهارة المطلوبة يستطيع صانع الفخار المهني أن ينتج أدوات أفضل وأجمل بكميات أكبر بكثير من الأسلوب اليدوي القديم. وبذلك أصبح

صانع الفخار مهنياً مختصاً يُنتج الأدوات، ليس لاستعمالها في بيته، بل لمقاييسها والحصول على ما يحتاجه من البضائع والأدوات والخدمات التي ينتجهما الآخرون.

3. الكهانة: جميع الحضارات القديمة في العالمين القديم والجديد طورت أثناء العصر البرونزي، دور عبادة يتولى إدارتها وتقديم الخدمات فيها كهنة (وأحياناً كاهنات) مختصون، ويتبع لهم عدد من أصحاب الاختصاصات الأخرى، مثل المغنيين والموسيقيين والمنجمين ومفسري الأحلام.

كانت مؤسسات العبادة، ورجال الدين الذين يخدمون فيها، في غاية الأهمية لناس حضارات العصر البرونزي، إذ كانت الدولة تدعم المؤسسات الدينية ورجالها، وربما كان الكاهن الأكبر أخاً أو قريباً للإمبراطور أو الملك. كان الكهنة في حضارات العصر البرونزي هم المثقفين وأهل العلم وأصحاب المعارف المختصة المتعلقة بالدين والدنيا. فرجال الدين لم يكونوا خبراء في أمور العبادة فقط، وفي الطقوس والممارسات الدينية، بل كانوا هم العارفين بالقراءة والكتابة والرياضيات والطب والتنحيم وحساب الرزنامات ومواعيد الزراعة، وهم طبعاً الذين يعرفون كيفية استرضاء الآلهة واقناعها بإرسال المطر، وإنجاح الحاصيل، ونصر الجيوش في الحروب. هذه المعارف والخدمات كانت مهمة جداً ولا يمكن الاستغناء عنها، لذلك أعطت الكهنة ورجال الدين موقعاً مركزاً هاماً في المجتمعات الحضارات القديمة.

4. الفلاحة: قبل ظهور حضارات العصر البرونزي، أي في العصر الحجري الحديث، كان الجميع يزرعون الأرض للحصول على الغذاء. بعد ظهور الحضارات الأولى أصبح الفلاحون فيها يكّونون طبقة مختصة تعيش في الريف وتتبع إدارياً إلى مراكز الحكم في المدن والبلدات الكبيرة التي تسكنها الطبقات العليا الحاكمة. وكان هؤلاء الفلاحون يختصون في إنتاج المواد الغذائية واستبدال جزء منها مع الطبقات الأخرى، التي لا تنتج الغذاء، في المدن ومراكز الحكم والإدارة، للحصول على البضائع التي لا يستطيع

ال فلاحون إنتاجها، وهم بذلك يجعلون حياة أهل المدينة والطبقات المختصة فيها، من حكام وإداريين ورجال دين ومثقفين وصناع وحرفيين، ممكناً.

5. اختصاصات أخرى: تشير الوثائق المكتوبة التي وصلت إلينا من الحضارة السوميرية والحضارة المصرية القديمة أنه كان في هاتين الحضارتين عدد كبير من الاختصاصات الأخرى، نكتفي هنا بذكرها، ومنها: الكتبة والصياغ وصانعو الخلّي والحجّارون والحدّادون والغزالون والناساجون والخلاقون. وكان العديد من هذه الاختصاصات تُكتسب بالوراثة، ولكل اختصاص منزلته الاجتماعية المميزة. وكان من أعلى الاختصاصات اجتماعياً في الحضارة المصرية الكتبة، ومن أدناها الزباليون والخلاقون. هذه الفروق الاجتماعية للاختصاصات المختلفة أدت إلى ظهور تقسيمات طبقية واضحة في مجتمعات المراكز الحضارية الأولى.



مفاهيم أساسية في الفصل

مدينة (City): تشير إلى تجمع سكاني كبير على مساحة صغيرة نسبياً تكون المساكن فيها دائمة نسبياً ومتقاربة ومصطفة على جوانب شوراع واضحة، ويطلب البعض أن يزيد عدد سكانها على 5 آلاف نسمة.

تقسيم وظيفي (Division of Labor): تنظيم السكان في المجتمع بالنسبة للعمل، أي من من الأفراد أو المجموعات يعمل ماذا؟ يمكن أن يكون التقسيم حسب صفات بيولوجية مثل الجنس أو السن، أو حسب صفات مكتسبة مثل المهارات، أو حسب خلطة من النوعين.

رزنامة (Calender): طريقة لحساب تتابع الأيام وتطابقها مع مناسبات أو ممارسات معينة، والرزنامة تربط بين عدد الأيام وظهور القمر أثناء السنة.

بلاد ما بين النهرين (Mesopotamia): منطقة نهري دجلة والفرات وتمتد من جبال زغروس في جنوب آسيا الصغرى إلى الخليج الفارسي.

محراث (Plow): أداة زراعية مصنوعة من خشب تستعمل طاقة الحيوان، ظهرت منذ حوالي 3 آلاف سنة قبل الميلاد في بلاد ما بين النهرين ومصر، وانتشرت من هناك إلى باقي العالم.

برونز (Bronze): مركب من معدني النحاس والتّنك، وهو أصلب وأفضل من أي منهما لعمل الأدوات. استعمل البرونز في بلاد ما بين النهرين منذ حوالي 3500 سنة قبل الميلاد، وفي أوروبا منذ حوالي 2000 سنة قبل الميلاد.

الاختصاص في العمل (Specialization of Labor): تنظيم العمل بحيث

يكون لكل فرد أو مجموعة اختصاص محدد، أي انهم يمارسون عملاً واحداً فقط في كل ساعات عملهم وينتجون نوعاً واحداً من المنتوج أو الخدمات، ويتبادل المختصون البضائع أو الخدمات فيما بينهم.

الكهانة (Priesthood): الكاهن شخص يختص بالممارسات والخدمات والطقوس الدينية ويكرس لها كل وقته وجهوده، ولا يقوم بأي عمل آخر، وهو يقود أتباعه، ويكون له موقع في تنظيم رجال الدين، ويحصل على تدريب خاص بمهامه وتكون له سلطات يقررها ذلك النظام.



أسئلة للنقاش والمراجعة

1. عامل واحد كان شرطاً أو متطلباً ضرورياً لظهور الحضارات، ما هو؟ وكيف تفسر ضرورة وجوده؟
2. ما هو الفرق بين "البستنة" و"الزراعة"؟
3. ما هو «البرونز» وما هي أفضليته على النحاس؟
4. هنالك علاقة قوية بين وجود الزراعة وصناعة الفخار، ومع أن الزراعة ظهرت أولاً في الملال الخصيب إلا أن صناعة الفخار ظهرت أولاً في جنوب شرق آسيا. كيف تفسر ذلك؟
5. لماذا أعطت الحضارات القديمة، في العصر البرونزي، الكهنة ورجال الدين مواقع مركبة هامة؟

الفصل الثالث عشر

الزواج والعائلة

التنظيم الاجتماعي:

ذكرنا عند الحديث عن (الحياة الاجتماعية للرئيسيات) أن طفل الإنسان، كما هو الحال مع أطفال جميع أنواع الرئيسيات، يولد ويعيش حياته كلها في إطار اجتماعي؛ أي في إطار جماعة لها تركيبة اجتماعية تحدد الوظائف والعلاقات داخلها، ويبقى جميع أفرادها من الذكور والإإناث والأطفال معاً على مدار السنة، ويكون لكل فرد فيها "موقع اجتماعي" (Status) و"دور اجتماعي" (Role). "الموقع الاجتماعي" هو موقع الفرد في إطار الجماعة بالنسبة إلى باقي أفراد الجماعة. ويكون للفرد الواحد عدد من المنازل أو المواقع الاجتماعية؛ فالرجل مثلاً يمكن أن يكون ابنًا بالنسبة لوالديه، وأباً بالنسبة إلى أطفاله، وزوجاً بالنسبة إلى زوجته، ومعلماً بالنسبة لطلابه، وجاراً بالنسبة لجيرانه، وهكذا. والمركب الناتج عن جميع هذه المواقع يكون الموقع الاجتماعي العام لذلك الشخص بالنسبة للمجتمع ككل. ويكون الموقع الاجتماعي إما موروثاً أو مكتسباً. الموقع الاجتماعي الموروث يأتي عن طريق بعض الصفات البيولوجية مثل الجنس، فيكون الإنسان ذكراً أو أنثى بالوراثة البيولوجية. أو يأتي الموقع الاجتماعي بالوراثة الاجتماعية، لأن يولد الإنسان في عائلة عريقة أو غنية أو فقيرة. ويأتي مع كل موقع سلوك معين يتطلبه ذلك الموقع، ويحافظ الشخص على ذلك الموقع بأداء ذلك السلوك أو يفقده بعدم تنفيذ السلوك المطلوب. هذا السلوك المرافق لموقع من الواقع هو "الدور" الذي يلعبه أو يؤديه الشخص في ذلك الموقع؛ فعلى الأب أن يسلك تجاه أطفاله بطريقة تتناسب مع كونه أباً، وإن المجتمع سيتدخل ليقصيه عن ذلك الموقع، وهذا المنطق ينطبق على جميع الواقع والأدوار الاجتماعية.

تعريف العائلة:

قلنا إن الإنسان يعيش في جماعات، ويكون للجماعات بناء اجتماعي، وت تكون الجماعة أو المجتمع من وحدات، ويكون لها ترتيب هرمي، أي أن الوحدات على المستويات العليا تضم عدداً من وحدات أصغر على المستويات الدنيا. أصغر الوحدات الاجتماعية في المجتمعات الإنسانية هي العائلة.

ويمكن تعريف "العائلة" بأنها وحدة اجتماعية، يعيش أفرادها معاً، ويكون بينهم تعاون اقتصادي، وتحتوي على فردان أو أكثر من الكبار، واحد منهم على الأقل من كل من الجنسين، ويكون هؤلاء الكبار مسؤولين عن تربية وتنمية الأطفال الذين يولدون لإناث من أفراد هذه الوحدة أو يكون قد تم تبنيهم في هذه الوحدة، ويكون بين فردان على الأقل من أفراد الوحدة علاقات جنسية مشروعة أو مقبولة اجتماعياً.

وظائف العائلة:

العديد من المجتمعات في العالم تسمح بعض العلاقات الجنسية قبل الزواج أو خارج إطار الزواج، ولذلك لا يمكننا القول بأن إشباع الحاجة الجنسية هو السبب الوحيد لوجود مؤسسة العائلة والمحافظة على بقائها. ولكن هذا أيضاً لا يمنع من القول إن تشريع العلاقات الجنسية وتقنينها هو إحدى الوظائف المهمة للعائلة.

للعائلة أيضاً وظيفة اقتصادية؛ إذ يتعاون جميع أفراد العائلة في توفير ضروريات الحياة لجميع أفرادها، وتزيد أهمية الدور الاقتصادي بشكل خاص في المجتمعات التي يكون فيها تقسيم وظيفي واضح بين الجنسين، إذ تتكامل داخل العائلة أدوار الذكور والإثاث التي لا يمكن الاستغناء عنها. ويكسب الزواج الفرد منزلة اجتماعية أفضل؛ ففي معظم مجتمعات العالم يكون للمتزوج موقع اجتماعي أفضل من الأعزب. وقد تتحقق الكثير من المجتمعات الشخص الذي يبقى عازباً بعد سن معينة. وربما اعتبر الأعزب ناقصاً في العقل أو في الدين أو في الأخلاق. كذلك فإن الزواج الذي لا يؤدي إلى إنجاب الأطفال لا يعتبر كاملاً، وولادة الأطفال ترفع من القيمة

الاجتماعية للزوجين، ولذلك تعتبر ولادة طفل مناسبة للاحتفال وتقديم التهاني والتبريكات.

توفر العائلة لأفرادها عادة الأمان والدفء، وفي إطارها يحصل الطفل على الثقافة والمعارف والمهارات الاجتماعية الأولى.

يكون بذلك للعائلة ست وظائف رئيسة: الجنس، والانجذاب، والوظيفة الاقتصادية، وإكساب أفرادها المنزلة الاجتماعية، والوظيفة العاطفية، والوظيفة التثقيفية.

في كل مجتمع يمكن لبعض المؤسسات أن تؤدي واحدة أو أكثر من الوظائف التي تقوم بها العائلة ولكن العائلة عادة هي المؤسسة الوحيدة في المجتمع التي تؤدي الوظائف الست مجتمعة.

وعلى الرغم من أن الحياة في إطار العائلة قد تسبب لبعض أفرادها الكبت والإحباط، وربما الشعور بالتوتر والغضب والعدوانية، إلا أن العائلة ما زالت مؤسسة اجتماعية ناجحة ومستمرة في الوجود في جميع مجتمعات العالم في الوقت الحاضر.

وقد يكون من أهم أسباب نجاح العائلة واستمرارها كمؤسسة اجتماعية أن الأطفال يحتاجون إلى الكثير من الاهتمام والعناية والمراقبة والرعاية، والعائلة حتى الآن هي أفضل بكثير من مؤسسات أخرى مثل المعاهد والميمات وغيرها من المؤسسات الكبيرة التي لا يلقى الطفل فيها العناية الفردية والشخصية التي يحتاجها. ففي العائلة تكون نسبة الكبار إلى الأطفال عالية مما يوفر للطفل عناية أفضل. والأهم من ذلك أن الوالدين يهتمما أمر الطفل فيكرسان نفسيهما للعناية والاهتمام بالطفل أكثر بكثير من المرضية أو الحاضنة التي تعنى بالطفل مقابل أجر مدفوع. ونتحدث هنا طبعاً بشكل عام، إذ إن بعض الآباء والأمهات قد يكونون مرضى عاطفياً أو عقلياً، وقد يسيئون تربية أطفالهم، وقد يلجأون إلى العنف الجسدي أو الجنسي تجاه أطفالهم. وفي مثل هذه الحالات يفضل إرسال الأطفال إلى إحدى المؤسسات خارج العائلة. في الوقت نفسه لا تكون جميع المؤسسات متساوية في جودتها ونوع العناية التي تقدمها. ولكن على وجه العموم

فإن الأطفال الذين يربون في الميام يعانون من نسبة أعلى من الوفيات ومن التخلف الجسدي والعاطفي والعقلي والاجتماعي من أولئك الذين يربون مع عائلاتهم الطبيعية. على ضوء ما جاء هنا من عالمية العائلة ومن نجاحها النسبي في وظائفها فإنه من المتوقع أن تستمر مؤسسة العائلة بالوجود في المستقبل المنظور.

الزواج الخارجي والمحرمات الجنسية:

أبسط نوع من العائلة المكتملة، أي التي تستوفي جميع مواصفات العائلة، هو ما يسمى بالعائلة النووية (Nuclear Family) والتي تتكون من زوج وزوجة وأطفالهما، أي تكون من جيلين فقط. هنالك نوع من العائلة أبسط من النووية، وهي المكونة من أم وأطفالها، وتنتشر كثيراً في دول أمريكا اللاتينية، إلا أنها تعتبر عادة كجزء ناتج عن تحطم عائلة وليس كعائلة حقيقة.

يتحدث علماء الأنثropolجيا عادة عن نوعين من العائلة يمر بهما كل فرد، وهما: عائلة التنشئة (Family of Orientation) التي ينشأ أو يتربى فيها الفرد، والنوع الثاني، عائلة الإنجاب (Family of Procreation) التي يكوّنها الشخص بالزواج ويقضي باقي حياته فيها.

عادة لا يسمح للشخص الزواج من أحد أفراد عائلة التنشئة التي ينشأ فيها (يستثنى من ذلك العائلة العربية الممتدة حيث يمكن زواج أبناء وبنات العم في العائلة التي ينشأون فيها) وبذلك فإن الزواج عادة يربط بين عائلتين مختلفتين. ولا يوجد أي مجتمع في العالم يترك علاقات الزواج والجنس بدون تنظيم أو تقنين. وتوجد في كل مجتمع عادة قوانين وأعراف تحدد الوحدة الاجتماعية التي لا يسمح الزواج داخلها ، والأفراد الذين تحرّم العلاقة الجنسية معهم، وتكون أي علاقة داخل تلك الوحدة، أو مع أي من أولئك الأفراد من المحرمات (Incest Taboos).

الزواج من خارج الوحدة التي يتميّز إليها الفرد يسمى "بالزواج الخارجي" (Exogamy)، وحجم هذه الوحدات أو طبيعتها تختلف من مجتمع إلى

آخر، وتتراوح من العائلة النووية، كما هو الحال في العالم العربي، إلى القرية كلها أو مجموعة من القرى قد تصل إلى العشرين قرية، كما هو الحال في بعض نواحي الهند. وهنا يجب التمييز بين قوانين الزواج الخارجي وقوانين تحريم العلاقات الجنسية مع بعض الأقارب (المحرمات)؛ فالأولى هي قوانين للزواج وليس للعلاقات الجنسية، أما القوانين من النوع الثاني فإنها لا تحرم الزواج فقط بل إن أي علاقة جنسية مع هؤلاء الأقارب فإنها تعتبر خطيئة مميتة وذنبًا لا يغتفر. وتوجد قوانين «المحرمات» في جميع المجتمعات العالم، ولكن قد تختلف هوية من يشملهم التحريم من مجتمع إلى آخر، ولكنها دائمًا وفي جميع المجتمعات تشمل على الأقل العلاقات التالية: الأم - والابن، والأب - والبنت، والأخ - والأخت. أما بالنسبة للعلاقات الجنسية مع أفراد من خارج "المحرمات" ولكن لا يسمح زواجهم، فإنها لا تعتبر خطيئة مميتة، ولكن المجتمع لا يرضى عنها.

نظريات حول قوانين المحرمات:

تساءل الكثير من علماء الأنثروبولوجيا عن سبب الاهتمام الشديد الذي أولته جميع المجتمعات الإنسانية للعلاقات الجنسية بين بعض الأقارب لدرجة وضع قوانين صارمة لضبطها، واعتبار كسر هذه القوانين من أعظم الجرائم التي يمكن أن يرتكبها الإنسان. وقد قدّموا عدداً من النظريات لتفسير تلك الظاهرة.

اثنان من هذه النظريات ظهرتا مبكراً ولكنهما عادةً تعتبران غير كافيتين لتفسير تلك الظاهرة:

النظرية الأولى: تقول إن الإنسان البدائي اكتشف بطريقة من الطرق أن الزواج بين الأقارب الذين يحملون الكثير من نفس الصفات الوراثية تكون له نتائج بيولوجية ضارة. الرد العادي على هذه النظرية يقول إن زواج الأقارب لا يكون ضاراً إلا إذا كانوا يحملون جينات متنحية ضارة، بل بالحقيقة يمكن أن يكون زواج الأقارب مفيداً في تحسين الخلف، وهذا عادةً ما يتونحه ويطبقه مربو الحيوانات. من جهة أخرى وجد أن نسبة

الطفرات الضارة إلى الطفرات المفيدة عالية جداً وتصل إلى حوالي 1:350 هذه المعلومة رجحت صحة هذه النظرية، إلا أن أكثرية العلماء يشكون في إمكانية أن يكون الإنسان البدائي قد اكتشف هذه العلاقة وفهم أسبابها فمنع الزواج بين الأقارب.

النظرية الثانية: التي لم تلاق قبولاً كبيراً، تفسر القوانين التي تحرم زواج الأقارب عن طريق القول بأن الأشخاص الذين يربون معاً منذ الطفولة لا تكون لديهم الرغبة الجنسية تجاه بعضهم البعض. ويعترض الكثير على هذه النظرية بقولهم بأن هناك العديد من حالات العلاقات الجنسية بين الأخ والأخت على الرغم من قوانين المحرمات، وأن زواج الأخ والأخت كان هو الدارج بين أفراد العائلات المالكة في مصر القديمة، وعند سكان جزر الماواي الأصليين، وعند الهنود الحمر في بيرو. يضاف إلى ذلك زواج أبناء العم في مجتمعنا من بنات العم الذين كثيراً ما يكونون قد تربوا في العائلة الممتدة نفسها وفي البيت ذاته. وهناك أيضاً العادة المتبعه في الكثير من المجتمعات الفلاحية، حيث تكون الحاجة ماسة إلى الأيدي العاملة، كما يجري في المجتمعات الفلاحية العربية وفي الصين، حسب هذه العادة تنتقل الفتاة وهي صغيرة السن وتتربي في نفس البيت والعائلة مع زوج المستقبل ولا تكون هناك علاقة جنسية بينهما إلا بعد سن البلوغ، بترتيب من قبل الكبار في العائلة.

ولكن الجدل المقنع ضد هذه الفرضية يأتي من السؤال: إذا كانت لا توجد رغبة جنسية بين الأفراد الذين تسري عليهم قوانين تحريم العلاقات الجنسية فلماذا تحد جميع المجتمعات العالم من الضروري أن تضع مثل تلك القوانين الصارمة؟

النظرية الثالثة: أكثر منطقية، وهي نظرية فرويد، والتي تقترح عكس ما قالته النظرية السابقة؛ أي أن هناك تجاذباً جنسياً قوياً جداً بين أفراد العائلة نفسها الذين يشملهم التحريم، خصوصاً بين الابن والأم (عقدة أوديب) وبين الأب والبنت (عقدة إلكترا) مصحوبة ببغض وتنافس بين الابن

والأب وبين البنت والأم، وهذا ما يتطلب وجود تلك القوانين الصارمة ضد العلاقات الجنسية لتقف أمام تلك الرغبات الشديدة. مقدرة هذه النظرية على تفسير سبب وجود قوانين التحرير هي نقطة هامة لصالح هذه النظرية. ولكن هنالك قضية تناقض هذه النظرية وهي الملاحظة بعدم وجود علاقات جنسية بين الأم والابن لدى أنواع من الرئيسيات الأخرى من غير بني الإنسان.

النظرية الرابعة: هي عبارة عن تبريرات وظيفية لا تفسر سبب ظهور قوانين المحرمات وإنما تفسر فائدة تلك القوانين عند وجودها. من الفوائد التي تُذكر عادةً:

1. أن هذه القوانين تمنع وجود التنافس والصراع على الجنس داخل العائلة، والذي قد يؤدي إلى تفككها وتحطيمها.
2. أن هذه القوانين تمنع التناقض في أدوار الأبوين بين العلاقة الجنسية مع الأطفال ودور الأبوين في تربية الأطفال.
3. أن هذه القوانين تمنع كثرة الزواج داخل العائلة مما قد يؤدي إلى تقعّع العائلة على نفسها وانقطاعها عن باقي المجتمع اجتماعياً وثقافياً.

أنواع الزواج والعائلة

تختلف العائلات في العالم من مجتمع إلى آخر ومن ثقافة إلى أخرى بحجمها وتركيبتها. إحدى الطرق المتبعة كثيراً في الأنثربولوجيا لتصنيف العائلات هي التصنيف حسب عدد الأزواج (من الجنسين) المشتركين في تكوين العائلة. هذا التصنيف يقسم أنواع العائلات في العالم إلى أربعة أنواع:

1. الزواج الأحادي (Monogamy): زواج بين رجل واحد وامرأة واحدة.
2. تعدد الزوجات (Polygyny): زواج رجل واحد بعده نساء في الوقت نفسه.
3. تعدد الأزواج (Polyandry): زواج امرأة واحدة بعده رجال في الوقت نفسه.
4. زواج الجماعة (Group Marriage): زواج أكثر من رجل واحد مع

أكثر من امرأة واحدة في الوقت نفسه.
ويجب أن نتذكرة هنا أن كل أنواع الزواج هذه هي زواجات مشروعة ومقبولة
في المجتمعات التي تحدث فيها.

"الزواج الأحادي وزواج" تعدد الزوجات" هما الأكثر انتشاراً في العالم،
وينتشر كل منهما في عدد كبير من المجتمعات في العالم. ولكن حتى في
المجتمعات التي تسمح بتنوع الأزواج أو الزوجات فإن معظم الزوجات
تكون من نوع الزواج الأحادي. والسبب في ذلك أن النسبة المتقابلة بين
الذكور والإإناث لا تسمح لجميع الذكور أو الإناث في أي مجتمع بالزواج
بعدة أفراد من الجنس الآخر.

نأخذ الآن كل نوع من أنواع الزواج وننظر إليه ببعض التفصيل:

1. الزواج الأحادي (Monogamy):

هذا الزواج كما بینا سابقاً يكون الأكثرية الساحقة في العالم، إذ إنه يتواجد
بكثرة حتى في المجتمعات التي تسمح بوحد أو أكثر من أنواع الزواج
الأخرى. ولا يوجد أي مجتمع يمنع الزواج الأحادي أو يحرّمه، بينما هناك
عدد من المجتمعات يحرّم أو يمنع جميع أنواع الزواج الأخرى غير الزواج
الأحادي. وأكثر هذه المجتمعات موجودة في العالم الغربي ولكنها في ازدياد
مستمر نتيجة لقوة الغرب ونفوذه وانتشار ثقافته في جميع نواحي العالم،
نتيجة ما يعرف بالعولمة. من أهم أسباب تعدد الزوجات عادة الرغبة في
تكثير الخلف. وتكون الرغبة في تكثير عدد أفراد العائلة نابعة من اعتبارين؛
الأول هو الأمان والقوة والسلطة. والاعتبار الثاني هو زيادة الأيدي العاملة
لزيادة الإنتاج وزيادة الدخل. ولذلك ينتشر الزواج الأحادي في المجتمعات
التي لا يكون فيها فائدة كبيرة للعائلة الكبيرة، وهذا يكون في المجتمعات التي
تكون فيها سلطة أو حكومة مركبة قوية توفر الحماية والأمن للجميع، فلا
تكون هناك حاجة إلى "عزوة" كبيرة، والتي تكون فيها مقدرة الجنسين على
الإنتاج وجلب الدخل متساوية أو متقاربة، وأيضاً عندما تكون تكلفة تربية
الأطفال وإعالتهم أكبر من الدخل الذي يمكن أن يجلبه الأطفال للعائلة.

2. تعدد الزوجات (Polygyny):

أي أن يكون للرجل عدة زوجات، ويكون هذا النوع مقبولاً في المجتمع وتعرف كل زوجة عن وجود الآخريات، وقد تعيش معهن في البيت نفسه، وهذا لا يضم أي علاقات سرية قد تكون للرجل خارج الزواج أو أي عدد من المملوکات أو المحظيات اللواتي لا يعتبرن زوجات. وكان هذا النوع يعتبر هو الزواج المفضل في معظم المجتمعات العالم، خصوصاً المجتمعات أفريقياً وآسياً والسكان الأصليين في الأمريكتين. كما ذكرنا سابقاً، فإن تعدد الزوجات يتشر في المجتمعات التي يكون الإنتاج فيها يتطلب الكثير من الأيدي العاملة مثل الزراعة والاعتماد على جمع الجذور والبذور والفواكه، وتكثر أيضاً في المجتمعات التي يكون فيها طبقة من الأرستقراطية التي تنتقل بالوراثة وتكون هذه الأرستقراطية منفصلة ومعزولة عن باقي المجتمع.

بما أن نسبة الذكور والإإناث في المجتمع تكون عادة متقاربة جداً فإن تعدد الزوجات يكون ممكناً لسبعين؛ الأول هو أن الأغنياء فقط يتزوجون أكثر من زوجة، والثاني أن الرجال يتزوجون في سن متأخرة بينما تتزوج الفتيات في سن مبكرة، وبذلك بحد كبار السن من الرجال الأغنياء متزوجين من عدة زوجات، أما صغار السن والفقراء فإنهم يكتفون بزوجة واحدة.

في حالات تعدد الزوجات كثيراً ما تحافظ الزوجة الأولى على موقعها كزوجة رقم 1 وتحظى بأكبر قدر من الاحترام والتقدير والسلطة على باقي الزوجات. وفي إدارة البيت والعائلة ككل. وعادة تكون الزوجة الأولى قد اختيرت لخدمتها وشخصيتها وموقع عائلتها الاجتماعي أما الآخريات في يكن أصغر منها سنًا وأقل جمالاً وكثيراً ما يكن من الأرامل والمطلقات، وقد تحظى إحدى الزوجات الأصغر سنًا بحب الزوج، بينما تعوض الزوجة الأولى عن ذلك بأنها تحظى بالاحترام. وكثيراً ما تأخذ الزوجة الأولى دور الأم تجاه باقي الزوجات وأطفالهن وربما تجاه الزوج أيضاً. وقد تعيش الزوجات كل في بيت مستقل، أو يعشن جميعاً في البيت نفسه، ويكون هناك ترتيب خاص ومحفوظ للجميع لتنقل الزوج بين بيوت الزوجات أو لموقع نوم الزوجات بالنسبة لمكان نوم الزوج. عادة يكون هناك الكثير من الصراع والغيرة

والتنافس بين الزوجات، وإذا لم يحسن الزوج إدارة العائلة والاستفادة من الغيرة والتنافس بين الزوجات واستعمال الصراع لصالحه، فإن الزوجات قد يتّحدن ضد الزوج ويختضعن لإرادتهن أو على الأقل يجعلنه تعيساً. بالإضافة إلى توحيد مواقفهن ضد الرجل قد تكون هناك فائدة أخرى للمرأة في تعدد الزوجات وهي أنه كلما زاد عدد الزوجات قلت كمية العمل المطلوبة من كل منها. هنالك طبعاً فوائد للرجل من تعدد الزوجات، فبالإضافة إلى الفوائد الجنسية هنالك فوائد اجتماعية وسياسية واقتصادية. ففي المجتمعات التي تسمح بهذا النوع من الزواج ترتفع منزلة الرجل الاجتماعية بازدياد عدد الزوجات. كذلك فإنَّ كثرة "عزوة" الرجل تزيد من سلطته ونفوذه الاجتماعي السياسي. كما أنَّ تعدد الزوجات يزيد من التحالفات السياسية مع عائلات أو حمائل أو قبائل أخرى. أما من الجهة الاقتصادية فكثرة الزوجات وكثرة الأطفال يزيدان من الأيدي العاملة وقد يجلبن المدّاها والمساعدات الاقتصادية من عائلات الزوجات وأقاربهن.

هنالك حالة خاصة من تعدد الزوجات كثيرة الانتشار في العالم، وهي أن يتزوج الرجل بعده نساء يكنّ أخوات. في هذه الحالة قد تكون هناك إمكانية أعلى أن تعيش الزوجات في بيت واحد مشتركة، وهناك أيضاً إمكانية أكبر لأن تتحد الزوجات في جبهة واحدة ضد الرجل.

نظام تعدد الزوجات يصلح بشكل خاص للمجتمعات التي تقاسي من نقص الرجال بالنسبة إلى النساء كما كانت الحال لدى القبائل العربية قبل الإسلام، حيث كانت تعيش في حالة غزو وحرب مستمرة يُقتل فيها الكثير من الرجال، فيلجأ المجتمع إلى وسائلين لاسترداد التوازن وهما وأد البنات وتعدد الزوجات. وتنطبق هذه الحالة أيضاً على المجتمعات الحديثة عند خروجها من حرب طاحنة كما كان الحال بعد الحربين العالميتين الأولى والثانية. كما تتطبق أيضاً على عدد من المجتمعات العالم الثالث التي يهاجر الكثير من شبابها طلباً للرزق، كما كان الحال في بعض القرى الفلسطينية قبل حرب الخليج الأولى، وإلى حد ما، كما هو حتى الآن. كذلك يصلح هذا النظام (تعدد الزوجات) لأي بلد يريد، لسبب من الأسباب، زيادة

عدد سكانه إذ أن هذا النظام يضمن زواج جميع الفتيات وفي سن مبكرة بحيث ينجبن لأطول مدة ممكنة من مرحلة خصوبتهن. هذا النوع من الزواج هو الآن في طريقه إلى الاختفاء نتيجة تأثير الغرب الذي يمنع هذا الزواج، ونتيجة تأثير الحركات النسوية التي تعاديه.

3. عدد الأزواج:

في هذا النوع من الزواج تكون المرأة متزوجة من عدة رجال في الوقت نفسه، ويعيشون في بيت واحد، ويكون الزواج مشروعًا ومحبلاً على المجتمع. هذا النوع من الزواج كان دائمًا قليل الانتشار مع أنه وجد في أكثر من عشرين مجتمعاً في العالم، وقد كان، وما زال، أكثر انتشار له في التبت (Tibet) والمجتمعات المجاورة لها والمتأثرة بثقافتها. والمجتمعات التي تسمح بهذا النوع من الزواج قد يكون موجوداً فيها أيضاً واحد أو أكثر من أنواع الزواج الثلاثة الأخرى.

وهناك شكلان لهذا الزواج وهما: إما أن يكون الأزواج مجموعة من الإخوة أو يكونوا من عائلات مختلفة وليسوا إخوة. الحالة الأولى تكون صورة معكوسة لزواج الرجل من عدة أخوات كما ذكرنا أعلاه. ينتشر زواج المرأة من عدة رجال إخوة في "التبت" أكثر من أي مجتمع آخر. ويفسر هذا النوع من الزواج عادة بأن الإخوة الذين يشتركون في ملكية أرض مشتركة وفي زوجة واحدة وأطفال مشتركين لا يكون هناك حاجة إلى تقسيم الأرض إلى قطع أصغر فأصغر في كل جيل، كما يحدث في المجتمع الفلسطيني مثلاً. كذلك فإن هذا الزواج يكون مناسباً في المجتمع الذي يزيد عدد الرجال فيه عن عدد النساء لسبب من الأسباب، إذ إن النساء في هذه الحالة يتزوجن في سن متأخرة فينجبن عدداً أقل من الأطفال، ويبقى عدد منها بدون زواج، وطبعاً تنجذب المرأة العدد نفسه من الأطفال بغض النظر عن عدد الأزواج، كما يكون هذا النوع من الزواج مناسباً للمجتمعات التي ترغب في تقليل عدد الناس فيها.

عندما تتزوج المرأة عدة إخوة يكون الأخ الأكبر هو الزوج الرسمي، وهو الذي تسرى عليه رسمياً طقوس الزواج، وبزواج الأخ الأكبر رسمياً يصبح

باقي الإخوة أو توماتيكياً "أزواجاً مشاركين". ويكون للأخ الأكبر أولوية العلاقة الجنسية مع الزوجة، ولا يصح للإخوة الآخرين النوم مع الزوجة طالما كان الأخ الأكبر موجوداً في البيت. ويعتبر جميع الإخوة آباء للأطفال. وفي بعض العائلات من هذا النوع يقسم الأطفال بين الآباء بحيث يكون لكل طفل أبٌ واحد اجتماعياً أو رسمياً، بغض النظر عن الأب البيولوجي الحقيقي.

4. زواج الجماعة : (Group Marriage)

هذا النوع من الزواج نادر الحدوث وقد يتطور أحياناً من زواج متعدد الأزواج، كأن يتزوج عدد من الإخوة امرأة يظهر فيما بعد أنها لا تحمل، وعندها يتزوجون إمرأة أخرى كي تنجب لهم أطفالاً، وتكون الزوجة الثانية أيضاً مشتركة بين الإخوة. أيضاً قد يحب أحد الإخوة فتاة فيسمح له أخوه بإحضارها كزوجة جديدة مشتركة. وقد ذكرنا سابقاً أن تعدد الأزواج ينبع عن قلة الإناث بالنسبة إلى الذكور والذي قد يحدث بدوره نتيجة قتل الإناث حال ولادهن نتيجة الفقر كما كان العرب يفعلون أيام الجاهلية، فإذا تغيرت الظروف ومنع قتل الإناث تزداد نسبة الإناث إلى الذكور وهذا قد يؤدي إلى تحول زواج "تعدد الزوجات" إلى زواج جماعة.



مفاهيم أساسية في الفصل

المنزلة الاجتماعية (Status): موقع الشخص في المجتمع بالنسبة إلى باقي أفراد المجتمع، ويرتبط بالمنزلة مجموعة من الحقوق والواجبات، وقد تأتي المنزلة بالوراثة، أو عن طريق القدرات والمهارات والإنجازات.

الدور الاجتماعي (Role): هو السلوك النابع من، أو المرتبط بالمنزلة الاجتماعية التي يشغلها الشخص، وهو عبارة عن تفعيل الحقوق والواجبات المرتبطة بالمنزلة التي يشغلها الشخص.

العائلة (Family): وحدة اجتماعية محلية مبنية على علاقة القرابة بالدم أو بالزواج، تسكن معاً وتعاون اقتصادياً ويكون فيها فرد واحد ناضجاً على الأقل من كل من الجنسين، ويكون هؤلاء مسؤولين عن تربية الأطفال وتشييفهم سواء الذين يولدون للعائلة أو تبنائهم العائلة.

زواج خارجي (Exogamy): حتمية زواج الفرد من خارج مجموعة معينة ومحددة ينتمي إليها.

زواج داخلي (Endogamy): حتمية زواج الفرد من داخل مجموعة معينة ومحددة ينتمي إليها.

المحرمات الجنسية (Sexual Taboos): علاقات جنسية ممنوعة تحت حديد عقوبات من قبل قوى إلهية أو خارقة.

عائلة نووية (Nuclear Family): عائلة مكونة من جيلين فقط؛ أبوين وأطفالهما.

عائلة التنشئة (Family of Orientation): العائلة التي يولد ويتربى الشخص فيها، أو يتربى فيها فقط.

علاقة مع المحرمات (Incest): علاقـة جنسـية مع أفراد مـحدـدين من الأقارب يـعتقد أنها تـعـاقـبـ من قـبـلـ الآلهـةـ أوـ القـوىـ الـخـارـقةـ.

زواج أحـادي (Monogamy): زواجـ بـيـنـ رـجـلـ وـاـحـدـ وـامـرـأـةـ وـاحـدـةـ.

تعدد الزوجـات (Polygyny): زواجـ بـيـنـ رـجـلـ وـاـحـدـ وـعـدـةـ نـسـاءـ.

تعدد الأزـواج (Polyandry): زواجـ بـيـنـ اـمـرـأـةـ وـاحـدـةـ وـعـدـةـ رـجـالـ.

زواج الجـمـاعـة (Group marriage): زواجـ بـيـنـ عـدـةـ رـجـالـ مـعـ عـدـةـ نـسـاءـ.



أسئلة للنقاش والمراجعة

1. ما الفرق بين الموقع الاجتماعي الموروث والموقع الاجتماعي المكتسب؟
قدم أمثلة.
2. ما الفرق بين "الموقع الاجتماعي" و "الدور الاجتماعي" للفرد، وما
العلاقة بينهما؟
3. للعائلة ست وظائف، ويمكن لبعض المؤسسات أن تؤدي واحدة أو
أكثر من وظائف العائلة. اذكر مؤسسة تعرفها وبين وظائف العائلة التي
تؤديها تلك المؤسسة، مع الأمثلة.
4. هنالك عدة نظريات تحاول كل منها تفسير وجود قوانين المحرمات بين
بعض الأقارب. أي منها تفضل، وكيف تفسر تفضيلك؟
5. قارن بين ظروف وصفات المجتمعات التي تصلح لتعدد الزوجات،
وتلك التي تصلح لتعدد الأزواج؟



الفصل الرابع عشر

اللغة

نوضح في هذا الفصل طبيعة اللغة، والفرق بين الاتصال اللغوي وغير اللغوي، ثم نتطرق بشكل مختصر إلى المقول المتعلقة باللغة والتي يتعاطى معها علم الإنسان.

جميع أنواع الحيوانات، بدون استثناء، يوجد اتصال أو تبادل "رسائل" بين أفرادها في المواقف "الاجتماعية"، أي عندما يجري تفاعل بين اثنين أو أكثر منها، مثل أوقات الزواج، والصراع، والتفاعل بين الآباء والأطفال، وعندما تتحرك المجموعات من مكان إلى مكان، وغير ذلك من المواقف. القردة العليا توجد لديها أجهزة نطق شبيهة بتلك الموجودة عند الإنسان، وهي تنتج أصواتاً باستعمال تلك الأجهزة، وتتبادل "رسائل" بينها من خلال تلك الأصوات.

تلك الأصوات لا تكون لغة، مع أنهم يتصلون مع بعضهم البعض. الاتصال أو إرسال الرسائل بين الأفراد متشابه، سواء أكان الاتصال لغوياً أو غير لغوياً. يكون هناك دائماً شخص "مُرسِل" يصوغ أو يرمّز الرسالة باستعمال إشارات أو رموز متعارف عليها، ويرسلها من خلال قناة معينة إلى المخاطب أو «المستقبل». ويقوم المستقبل بحل الرموز واسترجاع محتويات الرسالة وفهمها. الرسالة، أثناء انتقالها في قنوات الاتصال من المرسل إلى المستلم قد تتعرض لمؤثرات تؤدي إلى تشويهها. هذه المؤثرات الدخيلة على الرسالة تسمى "ضجّة" (Noise)، ويحتاج المستلم، إلى التمييز بين الرسالة الأصلية والضجّة الطارئة عليها، كي يتمكن من فهم الرسالة.

أجرى العلماء الكثير من الدراسات على أساليب الاتصال بين الحيوانات وتمكنوا من حل بعضها. الإشارات المستعملة في الاتصال عند النحل من أسهلها للفهم؛ فالنحل يوصل معلومات عن وجود الغذاء، وكمياته، وبعده عن الخلية، واتجاه الموقع بالنسبة للخلية، عن طريق الرقص الدائري.

يضاف إلى ذلك توصيل بعض المعلومات عن طريق الرائحة الموجودة على الأجنحة والأصوات التي تصدرها أثناء الرقص. ويظهر أن لدى النحل ما يشبه اللهجات عند الإنسان ؛ بحيث لا تستطيع بعض أنواع النحل فهم الرسائل الصادرة عن أنواع أخرى غريبة أو مختلفة عنها. وقد يحدث سوء فهم نتيجة تفسير الرسالة من قبل أفراد من نوع مختلف.

الرئيسيات لها طرق اتصال متطرفة ومعقدة أكثر من باقي أنواع الحيوانات، إذ أنها تعيش حياة اجتماعية على مدار السنة، ويوجد بين أفرادها تفاعل اجتماعي أكثر من غيرها. توجد عند الرئيسيات قنوات اتصال متعددة، منها الأصوات واللمس وتعابير الوجه. ويصدر الشمبانزي أكبر عدد من الأصوات المختلفة تصل إلى 15 إشارة مختلفة يمكن التمييز بينها.

اكتساب اللغة عند الأطفال:

يعتقد أن المقدرة على اكتساب اللغة عند بني الإنسان تكون موروثة بالجينات، وهي صفة خاصة، بالنوع أي بالإنسان العاقل العاقل (*Homo Sapien Sapiens*). يكتسب الطفل اللغة بسرعة وبطريقة منتظمة، أي أنها تتبع مراحل محددة يمر فيها جميع الأطفال. يبدأ تعلم اللغة عند الطفل بعد الشهر السادس من عمره، وبعد 3 سنوات من ذلك يكون الطفل قادراً على استعمال حوالي 1500 مفردة، وعلى فهم ما يزيد على ضعف ذلك. ولا يتعلم الطفل المفردات ومعانيها، فقط، بل أيضاً كيفية ترتيبها لتعطي معاني مفيدة، أما باقي أجزاء الكلام مثل الأحرف والأدوات فإنها تأتي متأخرة أكثر. الكبار عادة لا يُعلّمون الأطفال القواعد بشكل واع ومقصود، ولكن الأطفال يكتشفون قواعد اللغة وحدهم ويستدخلونها على المستوى اللاواعي، ويعتمدونها على المفردات والمواقف اللغوية الجديدة. وكثير من الأخطاء اللغوية عند الأطفال، التي يضحك عليها الكبار، عادة تأتي من هذه المقدرة على اكتشاف قواعد اللغة وعميمها بشكل مطلق. فقد يسمع الطفل كلمة "زملة" فيجمعها "زملاً" ، وهو ما يحدث كثيراً

عند غير الناطقين بالعربية من الكبار عندما يتعلمون قواعد اللغة بشكل واع ويطبقونها بشكل مطلق. وتكون هذه الصفة الخلفية لكثير من النكت والطرائف عن الأجانب.

ت تكون كل لغة من ثلاثة أنظمة: نظام معانٍ، ونظام أصوات، ونظام قواعد. أكثر هذه الأنظمة غموضاً حتى الآن هو نظام المعاني، إذ أنها ما زلنا لا نعرف كيف يرتبط معنى معين بكلمة معينة. صحيح أن هناك بعض الكلمات التي ترتبط بشكل منطقي وطبيعي بمعناها، مثل مواء القط، وعواء الكلب، وزرقة الطيور، ولكن الأكثريّة الساحقة من المفردات في أي لغة تكون علاقتها بمعناها اعتباطية وتقلدية؛ أي أن كلمة "شبّاك" في العربية لا تشبه أي صوت يصدر عن الشبّاك الحقيقي، وليس هناك أي شيء مشترك بين الكلمة وما تشير إليه تلك الكلمة. العلم الذي يعالج نظام المعاني في اللغة يسمى "علم المعاني" (Semantics)، أما نظام الأصوات (Phonological System)، والقواعد (Syntactic System)، فيعالجهما علم "اللغويات الوصفية" (Descriptive Linguistics). وهناك فروع أخرى من "علم اللغويات" أو "الألسنية" (Linguistics) مثل اللغويات التاريخية (Historical Linguistics)، واللغويات المقارنة (Comparative Linguistics)، واللغويات والإدراك (Language and Cognition)، واللغويات والثقافة (Language and Culture)، واللغويات الاجتماعية (Sociolinguistics). وستنطرق في هذه الوحدة إلى بعض هذه الفروع فقط.

1. اللغويات الوصفية (Descriptive Linguistics)

وتسمى أيضاً اللغويات البنائية (Structural Linguistics)، وهي فرع رئيس من فروع علم اللغويات، وتستعمل لتحليل اللغة إلى مكوناتها، وتعامل مع اللغة على أنها نظام متراّبط ومتزامن في لحظة زمنية معينة، دون النظر إلى البعد الزمني أو التاريخي أو التطوري لها. وتهتم اللغويات الوصفية بنظامي الأصوات والقواعد في اللغة، بينما تهتم اللغويات التاريخية بالتغيرات التي

طُرِأَتْ عَلَى الْلُّغَةِ عَبْرَ الزَّمْنِ. عِنْدَ تَحْلِيلِهِمْ لِلْلُّغَةِ يَقْسِمُهَا الْعُلَمَاءُ إِلَى مَكَوْنَاتِهَا الْأَسَاسِيَّةِ، وَهِيَ الْفُوْنِيَّاتِ وَالْمُورْفِيَّاتِ.

أ- الوحدات الصوتية (الفونيمات): الفونيمة مأخذة من Phone ومعناها صوت. والфонيمه هي أصغر وحدة صوت تميز بين كلمتين أو مقطعين بالنسبة للناطقين بلغة معينة. فالفرق بين "الضاد" و"الدال" مهم بالنسبة للأذن العربية، ولذلك فنحن نميز بين كلمتين مثل "ضم" و"دم"، ولكن ليس لأصحاب اللغة الإنجليزية. ولذلك فإن "الضاد" و"الدال" هي فونيمات مختلفة في اللغة العربية، وهي نفس الفونيم في اللغة الإنجليزية. وعكس ذلك هو الفرق بين "B" و"P" في الإنكليزية، والذي لا تسمعه الأذن العربية، ولا يميز بين أي كلمتين في اللغة العربية. لذلك فإن عدد الفونيمات في العربية يختلف عنه في الإنجليزية. هذا ينطبق على جميع اللغات المختلفة في العالم، إذ توجد فروق كبيرة في النظام الفونيمي بينها.

ب- وحدات المعنى (**المورفيمات**): اذا كانت الفونيمة هي أصغر وحدة صوت، فالمورفيمة هي أصغر وحدة معنى، وقد تكون مكونة من مقطع واحد أو مورفيمة واحدة أو كلمة من عدة مقاطع. فاذا أخذنا جملة مثل: "هاجم الكلب العابرين"، تكون الكلمة هاجم فونيمية واحدة لأنها لا يمكن تقسيمها إلى مقاطع أو وحدات أصغر منها ذات معنى، وكلمة الكلب من اثنتين «ال» و «كلب»، وكلمة العابرين تتكون من ثلاثة مورفيمات «ال» و «عاشر» «ين» لأن «ال» أضافت معنى التعريف، و «ين» أضافت معنى الجمع. فالمورفيمة قد تكون حرة أو مستقلة مثل هاجم، وقد تكون مرتبطة مع مورفيمة واحدة أخرى أو أكثر مثل «ال»، «عاشر»، «ين». وتختلف اللغات من حيث عدد الفونيمات التي يمكن أن تترابط مع بعضها في الكلمة نفسها بشكل "بادئة" Prefix، أو "لاحقة" Suffix، ففي اللغة الصينية يقال إن معظم الكلمات مكونة من مورفيمة واحدة، بينما بحد الكثير من الكلمات العربية مكونة من عدة مورفيمات، مثل كلمة "اعطيتمنيها" المكونة من أربع مورفيمات. ويقال إن لغة الاسكيمو قد تصل الكلمة فيها إلى عشر مورفيمات أو أكثر. ويقال إن هناك كلمة

واحدة في لغتهم تعني "عندما أمره أن يذهب إلى الموقع الذي كان من المفروض أن يبني فيه البيت الكبير نوعاً ما"!

جــ بناء الجمل Syntax

تختتم اللغويات الوصفية أيضاً بفهم اللغة، من حيث كيفية ترتيب المورفيمات والكلمات بالنسبة لبعضها بحيث ينتج عن ترتيبها جمل مفيدة وصحيحة. فجملة "ذهب الرجل إلى الحقل" تختلف عن جملة "ذهب الحقل إلى الرجل". ولكن مدى أهمية ترتيب موقع الكلمات في الجملة مختلف من لغة إلى أخرى. فاللغات التي يوجد فيها "تصريف"، أي تحريك أواخر الكلمات حسب وظيفتها في الجملة وعلاقتها بالكلمات الأخرى فيها، قد لا يتغير المعنى كثيراً بتغيير موقع الكلمات. اللغة العربية مثلاً من اللغات التي تستعمل التصريف، ولذلك ففي الجملتين "عضو الكلب الرجل" و"عضو الرجل الكلب"، الكلب في الحالتين هو الفاعل والرجل هو المفعول به، ويظهر ذلك من الحركات على أواخر الكلمات، ولذلك لا يوجد فرق كبير في المعنى بين الجملتين على الرغم من استبدال موقع الاسمين. ولكن لو ترجمنا الجملة إلى اللغة الإنجليزية التي لا يوجد فيها تصريف مثل العربية فإن معنى الجملة يتغير كلياً عند استبدال موقع الفاعل والمفعول به. ولكن سواء في اللغة العربية أو غيرها، وبغض النظر عن مدى اعتماد اللغة على التصريف، فإن ترتيب الكلمات في الجملة يبقى مهماً، ولكن لدرجات متفاوتة، في جميع لغات العالم.

2ـ اللغويات التاريخية (Historical Linguistics)

بشكل عام جداً يمكن القول بأن اللغويات التاريخية هي دراسة تبحث في التغيير الذي حدث على لغة من اللغات عبر الزمن. وجود الوثائق المطلوبة يجعل من السهل دراسة التغيير في اللغة في المرحلة التاريخية، أي منذ ظهور الكتابة. أما بالنسبة لمرحلة ما قبل التاريخ، أي قبل ظهور الكتابة، فإن العلماء يلجأون إلى أسلوب اللغويات المقارنة، وهو الأسلوب الذي يعتمد

على مقارنة عدد من اللغات المتقاربة أو المتشابهة للتوصل إلى التعرف على مرحلة ما قبل التاريخ لهذه اللغات، أو للغة المشتركة التي جاءت منها هذه اللغات.

في أواخر القرن الثامن عشر اكتُشف أن اللغة السنسكريتية، التي أدخلتها قبائل آرية إلى شمال الهند حوالي سنة 1500 ق.م، كانت شبيهة باللغتين اليونانية واللاتينية وباللغات الأوروبية المعاصرة. وظهرت القرابة بين هذه اللغات من التشابه في القواعد وفي المفردات، فأطلق على الجذر المشترك لهذه اللغات مصطلح "هندو - أوروبي" Indo-European. وظهرت مدرسة في الفقه التاريخي المقارن (Philology) في القرن التاسع عشر، فطورت هذه المدرسة أساليب تحليل طبقتها على دراسة وتحليل هذه اللغات الهندو - أوروبية، وأصبحت هذه الأساليب فيما بعد تستعمل لدراسة لغات أخرى في نواحٍ مختلفة من العالم. حاول هؤلاء العلماء تحديد كلمات متشابهة باللفظ والمعنى بين هذه اللغات. بسبب الترابط الوثيق بين مفردات اللغة والثقافة التي كونت تلك اللغة جزءاً منها، أصبح من الممكن، ليس فقط عمل دراسات لغوية، بل أيضاً استعمال المفردات المتشابهة لدراسة الثقافة الهندو - أوروبية في مرحلة ما قبل التاريخ. فامكِن مثلاً اكتشاف بعض المعتقدات الدينية التي سادت فيها، والمنطقة الجغرافية الأصلية التي جاءت منها، أو على الأقل تحديد المناطق الجغرافية التي لا يمكن أن تكون قد نشأت فيها.

3- اللغة والإدراك (Language and Cognition): الاهتمام بالعلاقة بين اللغة التي تتحدثها جماعة من الناس وطريقة إدراكيهم للعالم المحيط بهم، أدى إلى ظهور حقل فرعي خاص ضمن علم الإنسان يُعرف «بالأنثروبولوجيا الإدراكية» أو «علم الإنسان الإدراكي» (Cognitive Anthropology). لكل من اللغة والثقافة قوانين، وكل منها تسهل الحياة على الإنسان من جهة وتضبط سلوكه في إطار قوانينها، وبذلك تحدد سلوكه، من جهة أخرى.

كل من اللغة والثقافة تمد الإنسان بمجموعة من "العدسات" يرى العالم

من خلالها. جميع لغات العالم تكون تصنيفًا للعالم كما تراه، ولكن العالم والأشياء فيه قابلة للتصنيف بطرق عديدة. لقد استغرب علماء الأنثروبولوجيا أن يجدوا شعوبًا لا توجد لديها مصطلحات تميز بين اللونين الأزرق والأخضر أو بين الأزرق والأسود، فظنوا أن لدى هؤلاء الناس نقصاً في المقدرة على رؤية الألوان أو نوعاً من "عمى الألوان"، ولكن الدراسات التي أجروها على هؤلاء الناس أثبتت أنهم قادرون على فصل خيطان زرقاء وسوداء مخلوطة مع بعضها. كان من الواضح أنهم قادرون على التمييز بين هذين اللونين ولكن لغتهم تعطي الكلمة واحدة لهذين اللونين معاً. ووجدوا أن اللغات المختلفة تقسم الطيف بطرق مختلفة وإلى عدد مختلف من الألوان. وبالتالي فإن اللغات المختلفة تقسم النباتات والحيوانات والطيور وجميع الأشياء الموجودة في البيئة بطرق مختلفة. علماء الأنثروبولوجيا الإدراكية يدرسون عادة طريقة تقسيم العالم وتنظيمه في اللغات التي يدرسوها. وإذا وجدنا أن قواعد تصنيف بعض الظواهر في لغة ما تختلف عنها في لغتنا فهذا لا يعني أن لغتنا أفضل أو أسوأ من تلك اللغة. وأحياناً يكون تصنيف بعض نواحي الطبيعة في لغات بعض الشعوب البدائية أدق وأعقد بكثير منها في لغات الحضارات العالية، إذ نجد مثلاً أن الرجال في إحدى القبائل الأفريقية البدائية يستطيعون إعطاء أسماء ما يزيد على أربعين ألفاً وخمسين نوعاً من النباتات وأكثر من عشرين نوعاً من النمل.

4- اللغة والمجتمع (Language and Society)

هناك نوع من الدراسات اللغوية التي تزايد الاهتمام بها في العقود القليلة الأخيرة، هذه الدراسات تتناول الفروق اللغوية الموجودة بين الناس في المجتمع نفسه، أو حتى في المجتمع المحلي الصغير ذاته. فنحن نجد مثلاً أن هناك فروقاً في استعمال الكلمات تتطابق مع عدد من الفروق الاجتماعية في المجتمع الواحد، مثل المنزلة الاجتماعية للمتكلم أو للمخاطب، أو الشخص الذي يدور حوله الحديث، أو الإطار الاجتماعي الذي يدور فيه

ال الحديث. ونحن نلاحظ طبعاً الاختلاف في مجتمعنا في اللغة المستعملة بين القرية والمدينة، وبين الشمال والجنوب، وبين الأميين وال المتعلمين. دراسة هذا التوافق بين الفروق اللغوية والفروق الاجتماعية هو ما أصبح يعرف اليوم باللغويات الاجتماعية «Sociolinguistics».



مفاهيم أساسية في الفصل

علم المعاني (Semantics): علم يدرس، بطريقة منهجية، معانٍ الكلمات في لغة من اللغات.

الألسنية أو اللغويات (Linguistics): دراسة مقارنة للغات المختلفة، من حيث تركيبها وطبيعتها وتاريخها وتطورها وعلاقتها ببعضها. ومن فروع هذا العلم اللغويات المقارنة، واللغويات الوصفية، واللغويات الاجتماعية، وغير ذلك.

الوحدة الصوتية، الفونيمية (Phoneme): أصغر وحدة صوتية يمكن أن تميز بين كلمة وأخرى أو مقطع آخر بالنسبة للناطقين بتلك اللغة، مثل الفرق بين "سار" و"صار" بالعربية.

وحدة المعنى، المورفيمية (Morpheme): أصغر وحدة لها معنى ولها أهمية في قواعد اللغة فكلمة "له" مثلاً فيها وحدتان، لكل منهما معنى: "ل" و "ه" (اللام والهاء).

بناء الجمل (Syntax): فرع من القواعد يختص بدراسة ترتيب المورفيمات في الكلمات، وترتيب الكلمات في الجمل.

الفقه اللغوي المقارن (Philology): دراسة النصوص لغرض تحليلها لغوياً وفهم أبعادها ومعانيها الثقافية.

أسئلة للنقاش والمراجعة

1. قد يحدث أحياناً "سوء فهم" بين نحاتين، ما معنى ذلك؟
2. أحياناً قد تشتمل الرسالة على "ضّجة"، ما معنى ذلك؟
3. ما هي الرسائل التي يمكن أن توصلها نحلة إلى أخرى من النوع نفسه عن طريق الرّقص؟
4. هناك عدة علوم فرعية ضمن علم اللغويات، اذكر أربعة منها، وأعط تعريفاً مختصراً لكل منها؟
5. كثيراً ما يقع الأطفال، من أصحاب اللغة، والكبار من الأجانب، عند تعلمهم لغة جديدة، بنوع الأخطاء اللغوية نفسها، اشرح السبب وقدم بعض الأمثلة.



الفصل الخامس عشر

التغيير الثقافي

يوضح هذا الفصل مفهومي «التغيير الثقافي» و «الثقاف»، ثم يركز بشكل مكثف ومحصر على أسباب التغيير الثقافي الاجتماعي، الداخلية منها والخارجية.

التغيير الثقافي حدث ويحدث في جميع الثقافات منذ بداية وجودها، إلا أن سرعة التغيير وزخمه يختلفان من مكان إلى آخر ومن زمان إلى زمان. زمناً الحالي هو زمن تغيير سريع جداً، ولكن هذا لا يعني أن الثقافات البدائية في الماضي لم تكن تتغير، كما أن الثقافات المتقدمة أو "الحضارات" تمرّ هي أيضاً أحياناً في فترات ركود واستقرار. بشكل عام يمكننا القول بأنه كلما كان المجتمع معقداً أكثر كانت إمكانيات الاختراع والتتجدد فيه أكثر.

التغيير الثقافي في مجتمع ما يمكن أن يأتي إما كنتيجة للاختراعات والتغيرات الداخلية أو نتيجة للاتصال والتأثير بمجتمعات أخرى. ويمكن للأفكار والاختراعات الجديدة أن تنتقل من مجتمع إلى آخر، ليس فقط بالاتصال والتأثير المباشر، بل يمكن أن تصل التأثيرات عبر عدة ثقافات أخرى بالانتشار عن طريق التجارة أو الحروب أو وسائل أخرى. انتقال سلوك أو أداة جديدة من مجتمع إلى آخر يمكن أن يأتي مباشرةً أو عن طريق انتقال الفكرة المجردة أو انتشارها دون انتقال الأداة أو السلوك نفسه، بحيث تستثير الفكرة تحديداً واحتراعات محلية في المجتمع الجديد. من الأمثلة على تأثير الفكرة في مجتمع جديد دونأخذ الأداة نفسها، ما حدث في إحدى قبائل الهندوسيين في أمريكا عندما قام رجل أمريكي بتصميم أبجدية ناجحة لغة قبيلته بعد أن استوعب فكرة القراءة والكتابة عن طريق مراقبة البيض وهو يقرأون ويكتبون.

يستعمل اصطلاح ثاقف (Acculturation) لظاهرة التغيير الثقافي الذي يحدث عندما تتصل ثقافتان مختلفتان ومنفصلتان بعضهما. تختلف العلاقات بين مجموعتين بثقافتين منفصلتين ومختلفتين أصلاً، عندما

تصالان ببعضهما، حسب عدة أبعاد أو متغيرات. أحد هذه المتغيرات هو مدى كون كل منهما ثقافة مرنة ومنفتحة، أو متصلبة ومنغلقة. فكلما كانت الثقافة مرنة ومنفتحة زاد التغيير الثقافي فيها بتأثير التعلم والتأثير بالثقافة الأخرى. وتكون كل ثقافة عادة انتقائية فيما تقتبسه من الثقافات الأخرى. فكل ثقافة تفترض أو تقتبس عادة ما لا يتعارض مع قيمها ومعتقداتها من الثقافات الأخرى. وعندما تأخذ جماعة ما نمطاً ثقافياً جديداً من جماعة أخرى فإنها تقوم عادة، بشكل واعٌ أو غير واعٌ، بإجراء تعديلات وتغييرات على النمط الجديد، بحيث تستثنى منه ماً يتعارض مع قيمها، وتجعله أكثر تناسقاً مع ثقافتها الأصلية. كذلك فإن أصحاب المصالح الاقتصادية في المجتمع قد يعارضون دخول أنماط ثقافية تؤثر على مصالحهم. من جهة أخرى قد تسعى بعض القوى لإدخال تغييرات ثقافية لأسباب أيديولوجية، كما يفعل بعض المبشرين أو قادة الحركات الثورية. وقد تقوم بعض الحكومات في الدول الحديثة بوضع خطط للتغيير الثقافي - الاقتصادي. بعض الحركات التصحيحية، مثل الحركة النسائية، قد تقوم أيضاً بالدفع باتجاه التغيير الاجتماعي. في جميع هذه الحالات يكون الشباب، وصغار السن عموماً، وكذلك أبناء الفئات المظلومة والمغلوبة على أمرها، أكثر قبولاً للتغيير الثقافي من كبار السن وأفراد الطبقات المستفيدة من النظام القائم.

أسباب التغيير الداخلية والخارجية:

قد تأتي الأسباب التي تؤدي إلى التغيير الثقافي من داخل المجتمع أو من خارجه. تتعلق **الأسباب الداخلية** للتغيير بدوافع أفراد المجتمع ورغباتهم، ومنها:

1. **نظريّة الرجل العظيم** (Great Man Theory): هذه النظرية تشدد على دور الأفراد الخالقين والمبدعين من أبناء المجتمع في تقليل الاختيارات والاكتشافات الجديدة التي تنتقل إلى باقي أفراد المجتمع وتصبح جزءاً من نمط ثقافي جديد. وتعرف هذه النظرية بنظرية

"الرجل العظيم". وقد انتقد بعض علماء الأنثروبولوجيا هذه النظرية وحجتهم أن الكثير من الاختراعات يقوم بها عدد من الأفراد في الوقت نفسه وبشكل مستقل؛ أي إنه عندما تصل ثقافة ما إلى مستوى معين فلا بد لبعض الاختراعات أن تأتي آجلاً أو عاجلاً من قبل شخص ما. بالإضافة إلى ذلك فإن أي اختراع جديد يجب أن يلاقي قبولاً من قبل الكثيرين في المجتمع لكي يصبح جزءاً من ثقافة ذلك المجتمع. فالعبارة يمكن أن يكتشفوا أشياء سابقة لأوانها ولكنها لا تصبح جزءاً من الثقافة ما لم يتفهمها ويستوعبها الكثيرون من أبناء المجتمع؛ أي أن الثقافة يجب أن تكون قد وصلت إلى مستوى معين حتى تتمكن من استيعاب اختراع أو نمط ثقافي جديد.

2. نظريات «الدّوافع الداخليّة» Motivation Theory بالإضافة إلى نظرية «الرجل العظيم» هناك نظريات وتفسيرات أخرى للتغيرات التي تأتي أسبابها من داخل المجتمع، منها:

أ. لاحظ عالم الاجتماع ماكس فيبر Max Weber أن التقدم الاقتصادي الكبير في أوروبا والذي جاء بعد "الثورة الصناعية" كان مرتبطاً بالدول البروتستانتية أكثر منه بالدول الكاثوليكية، فاستنتج فيبر من ذلك أن السبب كان يكمن في أن المذهب البروتستانتي يشدد كثيراً على الاستقلالية والتقشف والجدية في العمل.

ب. يرى ديفيد ريزمان David Riesman أن هناك مجتمعات يكون الفرد فيها "متوجهاً نحو الذات" (Inner Directed) ويكون فيها تشديد على الفردانية، ويسعى الناس فيها إلى جمع الأموال وإلى الشهرة والإنجاز عن طريق بذل الجهد والجدية والمثابرة في العمل، بينما توجد مجتمعات أخرى يكون توجه الفرد فيها إلى الآخر" Other Directed" بحيث يكون الإنتاج فيها في إطار مجموعات متناسقة ومتكلمة ويكون الفرد فيها حساساً ومتقبلاً لمشاعر الآخرين وحاجاتهم ورغباتهم. ويرى ريزمان أن الإنتاج يكون أكبر والتغيير أسرع في النوع الأول منه في النوع الثاني من المجتمعات.

ج. يعزّو ديفيد ماكيلاند David Mc Clelland النجاح الاقتصادي



والتأثير الاجتماعي السريع في بعض المجتمعات دون غيرها إلى وجود عامل نفسي عند أفراد المجتمع يسميه "النهاية إلى الإنهاك" "Need for Achievement". هذا العامل حسب ما كيلاند هو الذي يكمن وراء التغيير الثقافي والنجاح الاقتصادي، ويرى أن المجتمع الياباني هو خير مثال لتوفّر عامل "النهاية إلى الإنهاك" عند أفراد المجتمع.

- وهناك أيضاً أسباب خارجية للتغيير الثقافي الاجتماعي، منها:
1. هناك عدد من النظريات في الحقل ترى زيادة السكان كمحرك أو دافع أساسي للتطور والتغيير الثقافي - الاجتماعي.
 2. التغيير السريع في الظروف الاقتصادية في مجتمع ما، مثل الثورة الصناعية، التي تحدث بدورها تغيرات اجتماعية - ثقافية في كل نواحي الثقافة.
 3. الحرب تحدث اهتزازات ثقافية - اجتماعية تصيب إلى جميع نواحي المجتمع.
 4. دخول الاستعمار إلى مجتمع ما يحدث تغيرات كبيرة وسريعة في ثقافة المجتمع المستعمر والمستعمَر.

وبشكل عام يمكن القول إنه كلما كانت الثقافة مركبة ومعقدة أكثر فإنها تزداد إمكانيات حصول تغيرات كبيرة وسريعة فيها.

مفاهيم أساسية في الفصل

تثاقف (Acculturation): الطريقة التي تنتقل بها الثقافة من مجتمع إلى آخر نتيجة اتصال مباشر ومستمر بينهما، وتنتقل الثقافة عادةً من الثقافة الأكثر تطوراً إلى الثقافة الأبسط والأقل تطوراً، وقد يكون الانتقال في الاتجاهين في الوقت نفسه.

انتشار (Diffusion): الطريقة التي ينتقل من خلالها جزء من ثقافة ما إلى مناطق أخرى، وقد يكون الجزء عبارة عن مؤسسة أو اختراع جديد أو عادةً أو تقليد أو نمط ثقافي. وقد يكون انتقال الجزئية الثقافية عبر المكان عن طريق الهجرة أو الاقتراض، وقد يجري الانتقال عن مسافات كبيرة دون اتصال مباشر بين الثقافتين.

انتقال الفكرة المجردة (Stimulus Diffusion): انتشار جزئية ثقافية عن طريق انتقال الفكرة التي تكمن وراء الجزئية دون انتقال الجزئية نفسها، مثلأخذ فكرة الزراعة من مجتمع ما وتطبيقها على محاصيل جديدة غير موجودة في المجتمع الأصلي.

اختراع (Invention): أيّ تغيير أو تحسين في الأشياء أو في الممارسات ينتج عنه شيء جديد. أيّ تغيير واع ومقصود في نشاط الإنسان يعتبر اختراعاً، وقد يكون الاختراع مادياً أو غير مادي.

حركة تصحيحية (Revitalization Movement): حركة أيدلوجية اجتماعية يقصد بها استعادة نظام اجتماعي سابق، أو إقامة نظام جديد مبني على ما كان يعتقد أنه كان سائداً في نظام مثالى ساد في وقت ما في الماضي.

نظريّة الرجل العظيم (Great Man Theory): النظريّة القائلة بأن الرجال العظام هم الذين يقدّمون الاختراعات ويغيّرون الثقافة، بكلمات أخرى إن العظام يصنعون التاريخ وليس العكس.

توجه نحو الذات (Inner Direction): اصطلاح وضعه ديفد ريزمان، يقول فيه إن هناك نوعين من الثقافات، نوعاً يصف الناس فيه بالانضباط والنظام والمحديّة في العمل وحب الإنجاز، ويسمى هذا السلوك «التوجه نحو الذات».

والنوع الآخر يتصف فيه الناس بالحساسية الشديدة لشعور الآخرين وحاجاتهم ويسمى هذا السلوك «التوجه نحو الآخر» (Other Directed).



أسئلة للنقاش والمراجعة

1. يمكن انتقال أداة أو سلوك جديد من مجتمع إلى آخر عن طريق انتقال الفكرة المجردة دون انتقال الأداة أو السلوك نفسه، أعط مثالاً من المجتمع الفلسطيني؟
2. من هي أكثر الفئات في المجتمع قبولاً لدخول أداة أو سلوك جديد إلى المجتمع، ومن أقلّها؟
3. وضح نظرية "الرجل العظيم" في التغيير الثقافي؟
4. ما هو دور "الحاجة إلى الإنجاز" في التغيير الثقافي حسب "ماكليلاند"؟
5. اذكر ثلاثة من الأسباب الخارجية للتغيير الثقافي - الاجتماعي، وأعط مثالاً على كل منها؟



الفصل السادس عشر

أنثروبولوجيا الدين

نحن في هذا الفصل لا ندرس ظاهرة الدين ككل ولا ندرس ديانة محددة بالذات، وإنما نوضح كيف نظر علم الإنسان إلى الدين وكيف تعامل معه، من حيث طبيعته وكيفية نشوئه، ووظائفه وعلاقته بالسحر ودوره في الثورات والحركات الدينية.

تعريف الدين: لا توجد أي ثقافة في العالم ليس لديها مظاهر تدل على وجود نوع من الدين. جميع ثقافات العالم المعروفة اليوم لديها طقوس دينية يقصد منها استرضاء القوى الخارقة أو قوى ما وراء الطبيعة. كذلك فإن جميع ثقافات العالم لديها نوع من المعتقدات المتعلقة بوجود الروح وبالحياة بعد الموت. الجنائزات والطقوس موجودة في كل ثقافات العالم، الطرق لمحاولة معرفة الغيب موجودة عالمياً، وكذلك الاعتقاد بالسحر.

هذه الأنماط الثقافية الموجودة في جميع المجتمعات بما فيها المجتمعات التي تملك تكنولوجيا عالية ومعقدة، هذه التعميمات طبعاً تنطبق على جميع الثقافات، ولكن ليس على جميع الأفراد في تلك الثقافات.

حاول علماء الأنثروبولوجيا إيجاد تعريف موحد ومشترك للدين، بحيث ينطبق على جميع المجتمعات بغض النظر عن مراحل تطورها. وكان التعريف الذي توصل إليه تايلور (Tylor) والذي أصبح فيما بعد مقبولاً في حقل الأنثروبولوجيا بشكل عام هو: "الإيمان بكائنات روحانية" هذا يضم الاعتقاد بالأرواح، والأشباح، والشياطين، والآلهة، وغير ذلك من القوى الخارقة.

عندما توجد هذه المعتقدات في أذهان الناس في مجتمع ما فإن باقي المعتقدات والممارسات الدينية الأخرى تنبثق عنها بشكل منطقي. هذه الطقوس والمعتقدات المشتركة على المستوى العالمي لا بد أن تكون قديمة جداً.



الطرق الأنثربولوجية

اهتم علماء الإنسان كثيراً بدراسة الأديان في إطار دراساتهم للثقافات المختلفة واستعملوا في ذلك أساليب وطرقًا كثيرة ومتنوعة، ولكن يمكن تلخيصها كلها في مقارتين رئيسيتين:

1. المقاربة الاجتماعية: بدأ استعمال هذه المقاربة في دراسة الدين منذ أوائل القرن العشرين، ومن أوائل من تركوا أثراً كبيراً في هذا النوع من الدراسات العالم الفرنسي إميل ديركهaim Emile Durkheim. ويعتمد أتباع هذه المقاربة على الفكرة القائلة بأن الطرق التي ينظم بها الناس علاقتهم ونظمهم الاجتماعية تعكس في أدائهم، وبذلك فإن الدين يدعم البناء الاجتماعي للمجتمع، ويحافظ على استمراريه، ويساعد في تنظيم السلوك الاجتماعي وضبطه، وفي بناء القيم الأخلاقية والحفاظ عليها.

وبهذا يكون هناك تناقض وتناغم بين النظام الديني والنظام الاجتماعي لكل مجتمع إنساني، هذا التمايز والتناغم بين النظمين الاجتماعي والديني هو ما يدرسه علماء الأنثربولوجيا في إطار المقاربة الاجتماعية.

2. المقاربة الأنثروبولوجية: هذه المقاربة في دراسة الدين عند علماء الإنسان حديثة نسبياً وقد بدأت بعد منتصف القرن العشرين، وكان من أهم منظريها العالم الأنثروبولوجي الفرنسي كلود ليفي . ستراوس Claude Levi-Strauss). ويقول أتباع هذه المقاربة إن الدين ليس فقط يعكس النظام الاجتماعي، وإنما هو نظام من الأفكار والمفاهيم يستحق الدراسة والتحليل بحد ذاته وبغض النظر عن وظائفه الاجتماعية.

يسعى أصحاب هذا التوجه إلى تшиريح وتحليل هذه الأنظمة الدينية، ومعرفة طبيعة جزئياتها، وكيف تترابط تلك الجزئيات بعضها لتكون نظاماً منطقياً متكاملاً، وفهم الافتراضات والقواعد التي تكمن وراء تلك النظم، ويطمحون من وراء ذلك إلى معرفة كيف يعمل عقل الإنسان، إلا أن تفاصيل هذه المقاربة وأساليب البحث فيها لم تتضح بعد.

كيف جاء الدين البدائي: أكثر تفسير مقبول في حقل الأنثروبولوجيا لنشوء الدين هو التفسير التطوري الذي وضعه إدوارد تايلور (Edward Tylor) والذي يقول بأن الدين البدائي بشكل إيمان بوجود أرواح قوية خارقة جاء من تجاذب يمر بها كل بني الإنسان ، مثل الأحلام، والتفكير بحالات المرض، والموت وحالات الفضام والإغماء والغيبوبة. التفكير بمثل هذه الحالات أوصل الإنسان إلى الاستنتاج بأن هناك روحًا تسكن الجسد وتبعث فيه الحياة وأن تلك الروح قادرة على الانفصال عن الجسد أثناء النوم والابتعاد بعيداً، والالتقاء بأرواح أخرى، والتفاعل معها. عندما تعود الروح إلى الجسد وتعيد له الحياة يستيقظ الشخص ويعود لممارسة حياته العادية. أما الموت فيأتي عندما ترك الروح الجسد دون عودة.

مثل هذه الأفكار والمعتقدات لا حاجة لوجود وهي لإيصالها، وإنما يصل إليها الإنسان بشكل طبيعي ومنطقي من خلال التفكير بما يجري له وحوله في حياته اليومية العادية. وهناك نتائج أخرى تأتي بشكل طبيعي ومنطقي، من الإيمان بوجود الأرواح، منها مثلاً أن الروح عندما ترك الجسد نهائياً يكون لها حياة يعرفها الجسد، فقد تنتقل لتحل في جسد آخر أو قد تحل في نبات أو جماد، وهذا قد يؤدي منطقياً إلى عبادة بعض الحجارة أو الأشجار أو عبادة الأجداد، عند بعض المجتمعات. استنتاج آخر قد تكون إمكانية أن تدخل روح ما جسد شخص آخر أو "تلبسه" وتطرد روحه، وأنه يمكن طرد الروح الجديدة عن طريق اللجوء إلى بعض الطقوس أو الممارسات، ويمكن لبعض الأشخاص استدعاء بعض الأرواح.

وظائف الدين:

هناك فروق كبيرة جداً بين الأديان المختلفة، فيما يتعلق بإدراكتها للقوى التي تحكم بالكون وتسيّره وبعلاقة الإنسان بتلك القوى، ما جعل من الصعب إيجاد تعريف موحد للدين، يوضح "ما هو الدين"، ولكن، على الرغم من ذلك، فإن الوظائف التي يؤديها الدين في جميع المجتمعات

